أول يوليو سنة ١٩٣٢
شهر صفر سنة ١٣٥١

المعرفة

الجزء الثالث
السنة الثانية

مجلة — شهرية — جامعة

لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول

عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد الثالث　　شعارها : اعرف نفسك بنفسك　　العدد ١٥

العلوم الرياضية عند قدماء المصريين

هل هي خالية من السحر؟

بقلم الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري

قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد فؤاد الأهواني مدرس الفلسفة بالمدارس الأميرية فى مجلة « المعرفة » عدد شهر يونيو سنة ١٩٣٢ تحت عنوان « فلسفة العلوم الرياضية » ، وقد راقنى هذا المبحث الجليل وحفزنى إلى كتابة هذا المقال : —

إن معرفة تاريخ العلم لها أكبر الأثر فى الأمم ، وكل علم جهل تاريخه عند قارئيه فهو أبتر ، لا يورى ناراً ، ولا ينفع جاراً ، ولا يدفع عاراً ؛ فلله در من يفتحون هـذا الباب للأمة المصرية كالأستاذ الأهوانى . . . ولكنى لما قرأت فى هذا المقال ما ملخصه : إن المصريين أول من تكلموا عن الرياضـة ، بصفة وصفية علمية ، وإن رياضتهم كانت خالية خلواً تاماً من النظرة السحرية ، التى طغت على عقل الانسان الأول ، كالأمـة الاغريقية التى كانت مليئة بالأفكار السحرية عن الأعداد . . . أقول لما قرأت ذلك ، تذكرت أن أستاذنا المرحوم على مبارك باشا مؤلف كتاب (خواص الأعداد) قد أثبت أن قدماء المصريين كانوا يستعملون الأعداد فى السحر ، فاذا كان الأستاذ الأهوانى قد أثبت ذلك عند غير قدماء المصريين ، فها هو ذا مبارك باشا أكمل حلقة الأمم القديمـة بالمصريين ، ويقول هم بالأعداد ساحرون ؛ وكتابه

(خواص الأعداد) المذكور مملوء بالجمال العلمى والمباحث العالية الشريفة ، وقد قال فى أول الكتاب : إن تلك المباحث اطلع عليها من الكتب الفرنسية ، وإن فيها كثيراً من خواص الأعداد ، وعلم الأوفاق ، وهذا بيت القصيد فى مقالنا . . . إنه يقول : إن الجدول الوفقى عبارة عن مربع مقسم إلى عدة مربعات صغيرة متساوية ، تشتمل على حدود متوالية هندسية أو عددية من داخلها ، موضوعة على وجه بحيث يكون مجموع أعداد كل صف من الصفوف الأفقية أو الرأسية واحداً ، وكذلك فيما إذا جمعت أعداد كل صف من الصفوف المار بها قطر المربع الأكبر ، فيما إذا كانت أعداد المربعات حدوداً متوالية عددية ، ومثاله هذا الجدول :

٣	٢٠	٧	٢٤	١١
١٦	٨	٢٥	١٢	٤
٩	٢١	١٣	٥	١٧
٢٢	١٤	١	١٨	١٠
١٥	٢	١٩	٦	٢٣

هذا جدول وفقى مركب من خانات فردية عددها ٢٥ ، وما فى داخلها من الأعداد هو ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . . . وهكذا إلى ٢٥ ، موضوع على الوجه المذكور فى التعريف ، بحيث لو جمع كل صف من صفوفه الرأسية أو الأفقية أو الصفين المار بهما قطر المربع الأكبر ، لكان حاصل جمعه مساويا حاصل جمع أى صف من تلك الصفوف ، التى مجموع كل منها ٦٥ ، وخاصية هذا الجدول الوفقى الفردى ، هى أن حاصل جمع أى صف من صفوفه ، أو صف أى قطر من قطريه ، يكون مساويا لحاصل ضرب جذر عدد الخانات ، وهو ٢٥ فى عدد ١٣ الذى هو وسط المتوالية ، والموجود فى مربع تقاطع قطرى هذا الجدول ، أى فى الخانة الوسطى منه ، فان جذر ٢٥ هو ٥ ، وبضربها فى ١٣ يتحصل ٦٥ ، وهو مجموع أى صف كما سبق ، وهكذا أخذ المؤلف يضع أوفاقاً على هذا النمط ثلاثية ورباعية وخماسية إلى تساعية .

وإلى أن قال فى صفحة ٥٦ ما نصه : « هذه الجداول التى كان يعتنى بها المصريون ، ومن أخذ عنهم : مثل فيثاغورس وجماعته ، إنما سميت بجداول الأوفاق لنسبهم لها إلى السبعة الكواكب ، فانهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة فى صور مختلفة ، وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن المؤتلف مع الكواكب ، وكانوا يجعلون جدول الوفق المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة ، عدد أضلاعه بقدر ما يشتمل عليه ضلع المربع من الوحدة (كذا) ، ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكواكب ، ومرسوم عليه أيضا فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة إشارات منطقة البروج ، وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معه .. ، وكيفية انتساب تلك الجداول إلى الكواكب هى أنهم كانوا يجعلون لزحل المربع المنقسم

إلى تسع خانات التى جذرعددها ٣ ، ومجموع أعداد صفه ١٥ ، وإلى المشترى المربع المكون من ١٦ خانة التى جذرها ٤ ومجموع أعداد صفه ٣٤ ، وإلى المريخ المربع المركب من خمس وعشرين خانة وضلعه ٥ ومجموع أرقام صفه ٦٥ خانة ، وإلى الشمس المربع المكون من٣٦ خانة وضلعه ٦ ومجموع أعداد صفه ١١١ ، وإلى الزهرة المربع المشتمل على ٤٩ خانة وضلعه ٧ ومجموع أعداد صفه ١٧٥ ، وإلى عطارد المربع المشتمل على ٦٤ خانة وضلعه ٨ ومجموع أعداد صفه ٢٦٠ ، وإلى القمر المربع المشتمل على ٨١ خانة وضلعه ٩ ومجموع أعداد صفه ٣٦٩ .

وأخيراً كانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على أربع خانات وضلعه ٢، والله الواحد الأحد المربع المكون من خانة واحدة وضلعه واحد ، بحيث إنه لو ضرب فى نفسه لا يتغير أبداً » اهـ .

ثم أخذ يبين أن هذه الأوفاق التى كانت موضوعة للسحر عند هذه الأمم ، أصبحت الآن موضوعة لورق لعب القمار عند الأوربيين ، وأطال فى ذلك بما لا محصل لذكره .

هذا ما أردت أن أبينه لقراء «المعرفة» من هذا الكتاب الجليل المنقول عن الفرنسية، ومنه تتبين أن المصريين أصابهم ما أصاب غيرهم من جعل تلك الاوفاق البديعة الجميلة الدالة على جمال العقل الانسانى ، قد استهوت عقول أمم وأمم ، إلى التنزل بذلك الجمال البديع من أفقه العالى ومقامه السامى ، فى مناطق العقل الانسانى ، إلى دركات الجهل والاستجداء ، وطلب المعونة من الكواكب تارة عند قدماء المصريين وغيرهم من الجن وغيرهم عند كثير من رعاع المتعلمين فى الديار الاسلامية .

إن عدوى التطور سريعة ، سرت من الأمم القديمة إلى الأمم الحديثة ، وقد حلت هذه الجهالة بساحة الأمم الاسلامية وسرت إليها ... ألم تر إلى الباطنية فى العصور الأولى قبل ظهور حسن بن الصباح بقلعة الموت هناك، كيف كانوا يجعلون للأوفاق المذكورة سلطانا على تابعيهم ، ويقولون إن المثلث ــ الذى تراه أمامك ــ له أثر فعال فى وضع الحامل وغير ذلك ؟ وقام أبو حامد الغزالى وفند آراءهم فى إنكار بعض فضائل الشريعة الاسلامية واحتج عليهم بأن هذا المثلث على ما تزعمون: تقولون إنه نافع ، فما المناسبة بين هذه الأعداد وبين وضع الحامل ؟ وإذا كنتم تجهلون ذلك الذى تزعمونه باطلا ، فكيف تعرفون المناسبة بين الصلاة وبين نجاة الروح يوم القيامة ؟.. (انظر شكل المثلث الآتى فى كتابه الرد على الباطنية).

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

إن هذه الخرافات التى حلت بساحة عقول الأمم القديمة كالمصريين ، حلت بساحة الأمم الاسلامية ولا تزال عالقة بأذهان صغار المتعلمين إلى الآن، وكتبها التى تداولها الناس منتشرة انتشارا مزعجا ، أوقف عقول كثير من صغار المتعلمين ، فيجب محوها من أمم الاسلام ، كشمس المعارف الكبرى للبونى وغيرها .

هذا ما كان عند الفاطميين كما قلنا أيام حسن بن الصباح فى القرن الخامس الهجرى ، أما هو فانه حرم العلم على الخواص ، وأمرهم باتباعه هو وخلفائه ، ومنهم (أغاممنون) بالهند اليوم ويتبعه ثلاثة ملايين من النفوس . . . إذن فالقدماء استعملوا طريقتين فى تخدير الأمم :

الطريقة الأولى طريقة السحر المتقدمة ، التى تجعل الانسان متكلا على شىء خيالى، فيعيش خاضعا لرئيسه بلا عقل ولا هدى ولا كتاب منير .

الطريقة الثانية أن يقول المتبوعون للتابعين لاتقرءوا العلم، إن العلم حجاب بين الله والناس.

والطريقتان معا لاتزالان فى أمم الاسلام إلى الآن، وكم من كتب سحرية خيالية ، نسبت إلى الدين والدين منها براء ، وما هى إلا عبادة الصابئين (عباد الكواكب) مزجت بآيات القرآن ، وكم من شيوخ صغار النفوس يزهدون الناس فى العلم ويقولون إنه حجاب ...

وإنما أفضت القول فى هذا المقام ، لتعلم أن معرفة تاريخ العلوم هو الذى يخرج الأمم من الظلمات إلى النور ، فلو لا ما اطلعنا عليه من تاريخ العلوم الرياضية الآن ، لم نعرف من أين جاءت هذه الخرافات فى الكتب السحرية التى شاعت فى كل زمان . . . فاذا كان تاريخ العلوم الرياضية أثبت أنها دخلتها خرافة السحر ، وربطت عقولا وعقولا ، فانا نقول : وهذه الخرافة ها هى ذى الآن تودى بكثير من صغار المتعلمين ، فيجب على أمم الاسلام إزالة هذه الخرافة التى أدخلها قوم قبلنا فى الآيات القرآنية ، وجعلوا لها حسابا وأوفاقا ، فبعد أن كان قدماء المصريين يتقربون بها للكواكب أخذها بعض قدمائنا ، ومزجوها بآيات القرآن فظن ضعفاء المسلمين أن هذا دين وما هو بدين ، إن هو إلا ضياع للشبيبة ، والسبب فى ذلك نشر تلك الكتب ، فيجب تحريم طبعها ونشرها بين المسلمين .

تذكرة : حدثنى أحد باعة الكتب فقال : كثيراً ما يرد لنا الشاب متأنقا ، لابسا أحسن الملابس فيأخذ كتاب «شمس المعارف الكبرى للبونى» ، فلا يمضى عامان حتى يرجع كالأبله ضعيف العقل مختل الشعور ؟

طنطاوى جوهرى

شعر الزهد والتشاؤم

قد لا تعثر على شاعر من شعراء العربية غير ضجر ولا ساخط ، بل تكاد تلك النظرة السوداء تملك على الشعراء شعرهم ، فيقعون تحت تأثيرها ولا يستطيعون الافلات منها ، ولسنا هنا بسبيل التحدث عن تلك الفلسفة التى نبعت من الشرق وملأت جوه حتى أودعت النفوس حب الزهد والقناعة ، وغمرت القلوب رضاً بالقليل واطمئناناً إليه ، ففترت الهمم وضعفت العزائم ، وساد السخط على الحياة وما فيها من مناعم ومباهج ، بيد أنا نريد اليوم أن نعمل بقدر ما أوتينا على إنهاض النفوس وتقوية القلوب ، حتى تسير فى ميدان الحياة مليئة بالهمة والاقدام ، غير آبهة بالصعاب والعقاب تحول بينها وبين أمانيها . ومن الجلى الواضح أن الأدب فى الأمة هو قلبها النابض وروحها المتوثبة إلى الأمام ، فلاغرابة — إذن — حين نحفل بالآداب ، ونطلب إليها أن تحدثنا دائما عن النهوض والاقدام والعمل والجد بلا تواكل أو توان ، وقد عرف الأقدمون للأدب هذه الفضيلة ، فطلب « أفلاطون » أن يحذف من الشعر كل مايبعث الجبن والخوف فى النفوس ، وقال فى ذلك . «ونرجو ألا يسوء « هوميروس » ولا غيره من الشعراء حذفنا هذه الأبيات وأمثالها ، لأننا نحذفها لا إنكاراً لشاعريتها ورغبة الكثيرين فى سمع تلاوتها ، بل قياسا على ما فيها من الشاعرية ، نحظر سمعها على الكبار وعلى الصغار الذين يجب أن يظلوا أحرارا وعندهم الموت خير من ذل الاستعباد » . وهكذا يبقى للشعر أثره فى النفس فيغرس فيها الجبن ويملؤها بالزهد ويغمرها بالقناعة إن كان مليئا بتلك الصفات .

وإذا نحن بحثنا فى المؤثرات التى عملت على القعود بالشرق والسير به إلى الوراء رأينا أثراً كبيرا من ذلك يعود إلى تلك الآداب المليئة بالتشاؤم المغمورة بحب الزهد والتواكل ، فانبث فى الشباب روح الكسل والخمول ورضوا بالقليل ، وتركوا ميادين النشاط والعمل ، قانعين بحظهم غير مجهدين نفوسهم فى نيل أمل أو بلوغ مأرب ، وما لهم وللآمال ! وهى لا تحل إلا حيث الهمة ، والعزيمة والنفس القوية التى لاتبغى الحياة إلا لتملأها بالجهاد والعمل ، وهى مبتسمة راضية مغتبطة بتحقيق أحلامها — إن فى القريب وإن فى البعيد — وكلما أوفت على أمل تحفزت لنيل أمل جديد ، من غير أن يدركها فتور ، أو ينال عزيمتها خور ، وكل آمالنا أن نملأ النفوس بحب المثل العليا والسعى اليها بكل ماأوتينا من قوة ، غير يائسين إن قام بيننا وبين آمالنا عقبة أو حجاب ، واثقين أن الفوز حليف كل مثابر صبور ، وهذا هو مانسعى لغرسه فى قلوب نشئنا ليشبوا عالمين أن الحياة لاخير فيها إن لم تملأ بالعمل والغبطة والجد والسعادة ، والتفاؤل بالمستقبل البهيج وما فيه من خير ونجاح . وأريد اليوم فى تلك الكلمة أن أبين العوامل التى أنتجت لنا هذا النوع من الشعر وأن نذكر أثره فى نفوس الناشئة لنرى أمن الخير للوطن أن يدرسه أبناؤنا أو الخير فى حذفه واطراحه ؟ ؟

إذا نحن بحثنا عن الأسباب القوية التى أنتجت تلك الثمرة فى أدبنا الشرقى وجدناها ترجع إلى عاملين قويين : أحدهما طبيعة البلاد ، والآخر سوء فهمنا للدين ، ! إذ لسنا نستطيع إنكار ما يبعثه فينا مناخنا وجونا من حب الركون إلى الراحة وحب الاستسلام إليها ، فمتى وجد أحدنا عيشه لا يفكر يوما ما فى أن يعمل على الزيادة والرقى ولا يبغيهما إلا من طريق الراحة وإعفاء النفس من الكد والجهاد ، وكلما قاربت خط الاستواء رأيت تلك الظاهرة واضحة جلية ، ويظهر لى كذلك أن الجو الزراعى حيث كل شيء موكول فيه إلى الزمن وحيث يعيش المرء مضطراً غير مختار ، بطيئا غير متحرك ، لا يستطيع أن ينتج إلا الزهد والقناعة والكسل والاستسلام ، وكأنه يدعو المرء إلى النوم والقعود ، لا إلى العمل والنشاط ، وكأنما حرارة الجو وسهولة العيش تملأ النفس عزوفا عن الجد وحبا فى الزهد واطمئنانا إليه ، وما لها وللحرص والكفاح فى الحياة لتنال حظاً أحسن وعيشا أرغد وسبل الحياة أمامها ممهدة يسيرة ولم تعتد الكفاح والجهاد لتنال حظها من السعادة والنجاح .

كان لذلك من غير ريب أثر بالغ فى إنشاء تلك النفسية الزاهدة التى أرغمتنا على أن نعيش قانعين ، راضين مغتبطين بحياتنا الكسلة القانعة التى لا تحب السير إلى الأمام ، فاذا أضفنا إلى هذا ما فهمناه خطأ فى الدين ، إذ زعمناه يدعو إلى الزهد والقناعة والرضا بالقليل مع بغض الحياة الدنيا والسخط عليها وإهمال العناية بأمرها ترقباً للدار الآخرة وما فيها من النعيم ظهر لنا ذلك الأثر واضحاً جلياً؟ .

فهمنا وكنا خاطئين حين ظننا ديننا الاسلامى الذى يدعونا إلى الأمام وإلى العمل وإلى الجد من غير فتور ولا ضعف يقعد بنا دون إدراك العظمة والمجد ، ويملأ نفوسنا بغضا للدنيا وانصرافاً عنها وميلا كلياً إلى إهمال العمل والجد فيها والسعى فى سبيل الترفيه والترقى والسعادة فى الحياة ، ولست أبغى الآن أن أذكر وجهة نظر الدين وأنه لا يريد أن يمنعنا من نيل الرفهنية والرغد ، بل هو قد دعانا كثيراً إلى أن ننال حظنا منهما كاملا غير منقوص ، غير أنه رمى إلى التوسط فى كل شيء ولا زال التوسط خيراً وفضيلة ، والدين لم يدع إلا الى الهدوء والطمأنينة المقترنة بالجد والعمل ، فان قصرنا أو أهملنا فلن نعود باللائمة إلا على أنفسنا وحدها ، لأنا قد أسأنا فهم الدين ، وكانت إساءتنا لهذا الفهم — مضمومة الى أثر المناخ و الجو — كفيلة بأن تملأ أفئدتنا زهدا وقناعة .

أما التشاؤم ونظرة السخط على الدنيا فمنشؤها ضعف العزيمة والهمة التى تقف أمام أول عقبة لا تحاول اجتيازها ولا تكلف نفسها مئونة الكد والجهاد ، فوقر فى أنفسنا أن الدنيا لا تحسن يوما إلا أساءت أياماً ، ولا تهب خيراً إلا أنالت شراً ، وغلبت علينا تلك النظرة السوداء ، فأنتجت هذا الشعر الحانق على الحياة الساخط على بهجتها وحسنها ، ولو أن عزيمتنا كانت قوية ناهضة لاستطعنا أن تتغلب على ما يعترض سبيلنا من صعاب ، وحينئذ نبلغ آمالنا

وما آربنا ، وتبدو لنا الحياة باسمة ضاحكة ، لا قاتمة سوداء ، وليس عندنا من شك فى أن الخور وضعف الفؤاد كانا عاملين قويين فى نظرة التشاؤم السوداء التى غمرت شعراءنا وطبعت شعرهم بطابعها فنظرنا إلى الدنيا - من خلاله - بمنظار أسود قاتم ، غير محبب إلى قلوبنا ولا عذب لدى نفوسنا .

تلك هى العوامل التى أثمرت لنا هذا النوع من الشعر الذى يصح أن نطلق عليه بحق : شعر الخمول والموت : والآن نريد أن نذكر ما يتركه ذلك الشعر من الأثر فى نفس قائله ، لنرى ما يجمل بنا إزاءه ، وهل يحسن أن نلقنه نشأنا ونرويه شباننا ؟ وماذا نعمله لننتج شعراً زاهياً زاهراً يبتهج بالحياة ويغبط بها ، ويملؤنا منها حبوراً وسروراً .

ظاهر ثابت أن الأدب يحل فى النفس أسمى مكان ، ويقودها إلى حيث يشاء ، إما إلى النعيم والسعادة ، وإما إلى التعس والشقاء ، ولا نكون مغالين إذا ادعينا أن الأدب هو المصباح الوهاج الذى يضىء للأمة سبلها ، ويرشدها إلى حيث تأخذ مكانها بين الأمم تحت الشمس ، وهو - بعد ذلك - القلب النابض والروح الوثابة ؛ ولقد كان اليونان ينشئون بنيهم على حب الفضيلة المبثوثة فى ثنايا الشعر والقصص ، حتى يقوم جيل ناهض بالبلاد عامل على الرقى والتقدم ، ويكفى أن نرجع إلى (جمهورية أفلاطون) لنرى ما كانوا يجعلونه للأدب والفنون من المكانة التى لها فى نفوس الناشئين ، ولننصت إلى « سقراط » وهو يحادث « أديمنتس » طالباً إليه أن يضع فى دستور المدينة وجوب ترك الشعر والأدب الذى يبعث فى النفس الجبن والخوف لينشىء جيلا شجاعاً غير هياب ، قال سقراط : فاذا كنا نروم أن ينشأ شباننا على الشجاعة والبطولة ، أفلا يجب أن نضيف دروساً تحررهم من مخاوف الموت ؟ أو تظن أنه يمكن أن يكون أحد شجاعاً ما دامت المخاوف مستولية عليه ؟ فأجابه اديمنتس : حقاً إنى لا أتصور ذلك .

سقراط : أو تظن أن من يؤمن بوجود (هادز) وأهوالها يمكن أن يعيش حراً من مخاوف الموت فيؤثره فى ساحة القتال على هون الذل والانكسار ؟

اديمونتس : لا ، البتة .

سقراط : فيتحتم علينا أن نسيطر على الذين أخذوا على عاتقهم تلفيق هذه الأساطير وأمثالها ، فلنلحف عليهم ألا يشنعوا بوصف العالم الآخر تشنيعاً فظيعاً ، بل يحسنوا فيه المقال ، لأن ذلك غير مفيد ولا صحيح ، ولا يوافق الذين سيكونون جنوداً .

اديمونتس : ذلك واجب علينا بالطبع .

سقراط : فلنلغ هذه الأبيات وما ماثلها ، ومنها :

فأرى استعباد نفسى لفقير فى الأنام
هو خير من عروش فى أعاميق الظلام . . . الخ

وهكذا عرف اليونان أثر الأدب فى النفوس ، فكان لهم نعم المرشد إلى سواء السبيل .

وإذن فلنضع فى الأدب ولنلقن أبناءنا كل ما يحدوهم إلى الكمال والجمال غير مدخرين جهداً فى هذا السبيل ، ويتبع ذلك أن نكف عن تلقينهم مثل تلك الأشعار الميتة التى تحبب إليهم الجمود ، وتجعل الحياة أمامهم سلسلة من المتاعب والآلام ، ينظرون اليها بعين ملؤها التعاسة والشقاء ، ولن يفيدوا من ذلك إلا عيشاً بائساً يظلون بين أحضانه يائسين من غير أمل ولا رجاء .

لا ننكر أن فى العالم شقاء ، ولكن لا نحب أن نرهب ناشئتنا بأن الشقاء هو كل شىء فى هذا العالم ، وكم نكون سعداء مغتبطين يوم نغرس فى النفوس حب الجهاد مع التفاؤل والغبطة ، فالجهاد شهى لذيذ إن صحبته آمال كبيرة ، وأمان عذبة ، ولنضع نصب أعيننا أنا سنصادف مصاعب وعقاباً ، ولكنها سوف تتبدد أمام عزمنا وقوتنا ، فاذا آمنا بهذا سرنا فى الحياة بأبقى زاد وأمضى سلاح ، وإنى موقن بأن نظرتنا إلى كل شىء ستختلف وستتبدل ، فنرى الكون مبتهجاً بساماً ، فنقبل عليه بنفس شهية ، وقلوب رضية ، وهمة قوية ، ويزول ذلك التشاؤم الذى يملأ نفوسنا ، ويجعل الوجود والقدر أمامنا قاسيين بغيضين ، ولا نستطيع أن ننكر الأثر الذى يتركه التفاؤل فى النفوس ، إذ يشحذ العزيمة ، ويملأ القلب ولوعاً بالكد والعمل ، فهيا نعمل على أن نعفى نشأنا من سماع هذا الشعر وحبه ، لنباعد بينهم وبين روح اليأس والتشاؤم ، ولنغرس فى نفوسهم دائماً عذوبة الحياة والرضا بها والغبطة فيها .

ولنحبب إليهم روح الآمال وعذوبتها ، والسعادة بالعمل على نيلها والاستزادة منها ، ولنطرح نفسية الزهد جانباً ، عالمين أنا خلقنا فى الحياة لننال أقصى مانستطيع نيله ، ولنحرز لأنفسنا كل ما فى وسعنا من رغد العيش والهناءة ، فنضع أمامنا دائماً حب الرقى والطموح إلى العلا ، فلا نقف عند أمل بلغناه ، ولا نقنع بأمنية نلناها ، بل كلما نلنا مأرباً رسمنا لنا طريقاً آخر إلى أمل آخر واضعين أمامنا مثلا أعلى نحث السير فى الوصول إليه ، ولندع شعر الزهد لأولئك الذين خلقوا فى الحياة ضعافا كسالى ، لايرفعون أعينهم ليروا نور الآمال الوضىء ، وكفانا ذلك العهد الطويل الذى قضيناه غافلين عن نعم الحياة وبهجتها قانعين بما لا يقتنع به إلا ضعاف الهمم فاترو العزائم .

هيا بنا يارجال التربية ننشىء لمصر جيلا جديداً ، طافحا بحب الحياة ، طامحا لأن يبلغ السماء بقوة عزيمته ، وشجاعته وهمته ، وهو ضاحك السن مؤمن من كل قلبه بما سوف يبلغه من غبطة وسعادة وراحة وهناء ، فان بلغنا تلك الأمنية رأينا مصر زاهرة ناضرة ببنيها الرافهين الوادعين ، ولنبرهن للغرب بأن الشرق ليس هو ذلك الكسل . الزاهد ، الساخط ، المتشائم ، بل هو الضاحك ، الباسم الناهض الطامح .

(البقية على الصحفة ٢٧١)

أحلام النائم

بقلم الاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

موضوع قيم جدير بالبحث ، بحثه المتقدمون واختلفوا فيه أيما اختلاف، وبحثه المحدثون وذهبوا فيه مذاهب شتى ، وإلى (فرويد) الطبيب النمساوى والعالم النفسى الشهير يرجع الفضل فى فتح باب الجدل وإثارة البحث فى هذا الموضوع من جديد ، فانه ذكر فى كتابه القيم — المسمى « تأويل الأحلام » (١) الذى ظهر عام ١٩٠٠ — أن الحلم ظاهرة من الظواهر النفسية المعقدة التى تستحق العناية والدقة فى البحث ، فهو ليس — كما كان يقول بعض القدماء — آثاراً مهوشة لاضطراب الخلايا والمراكز العصبية أثناء النوم ، ولا بقية من بقايا النشاط العقلى الذى ضعف بانتهاء وقت اليقظة ، ولكنه عمل عقلى خاضع لقوانين وقواعد ، فللبحث العلمى فيه مجال فسيح ، وليست دراسته مفيدة من الوجهة العلمية البحتة ، فحسب ، ولكنها منتجة جداً من وجهة التحليل النفسى والعلاج النفسانى .

وقبل أن أذكر لك رأى فرويد فى الأحلام ، أود أن أصفها لك وصفاً عاماً فأقول : —

إن معظم الأحلام المتصلة الكاملة التى يتذكرها الانسان بعد اليقظة تحصل غالباً قبيل الاستغراق فى النوم ، أو قبيل الاستيقاظ منه ، أو أثناء النوم الخفيف فى الأوقات الأخرى.

فى مثل هذه الأوقات يؤدى الحلم وظائف بسيطة كتذكر الصور الذهنية ، واستحضار التجارب الماضية البسيطة ، الخالية من النقد والتمحيص والتفكير العميق والأحكام السديدة ، البعيدة عن المظاهر الجذابة والجمال الخلاب ، التى لا تدل على حضور البديهة ولا على الانسجام فى الفكر أو العمل ، فالمناظر مضطربة متفرقة مبعثرة ، يندمج بعضها فى بعض ، والشخص الواحد يمثل أدوار أشخاص متعددين ، فهو يبدأ بشخص وينتهى بآخر ، والحوادث تتقلب ، والأمكنة تتغير سراعاً لأدنى مناسبة وأقل رابطة .

فالأحلام التى هذه صفاتها ينطبق عليها تعريف الخيال الابتكارى ، لأنها مركبة من عناصر مختلفة ، قديمة فى جزئياتها ، غريبة فى مجموعها وتركيبها ، إلا أن الصورة العامة التى تتراءى للانسان تكون أكثر غرابة ، وأشد مخالفة للواقع ، وأقل خضوعاً لقوانين تداعى المعاني :

---

[1] Die Jraumdeutung. by Prof. S. Freud,

ومع ذلك نرى من أخص خواص الحلم أنه ينصبغ بصبغة الحقيقة أثناء وقوعه ؛ فالحالم يعتقد أنه يعيش فى عالم الحقيقة ، وكثيراً ما يعتريه الشك فى أمره فيعمل أعمالا يستدل بها — فى زعمه — على أنه مستيقظ لا نائم ، وأن الذى يراه حقيقة واقعية لا خيال نائم ، وما ذلك إلا لعدم الرقابة الفكرية ، وعدم القدرة على ضبط النفس أثناء أحلام النوم .

وقد يصل وضوح الأحلام ، وظهورها بمظهر الحقيقة إلى درجة أننا نخلط بينها وبين الحقيقة ، وذلك أظهر فى الأطفال ، الذين يعتقدون تمام الاعتقاد أن ماحصل لهم أثناء النوم حقيقة ؛ فيقصون على آبائهم وأمهاتهم مارأوا ، كأنما يقصون عليهم أموراً وقعت لهم بالفعل . والمتوحشون مثل الأطفال فى ذلك ؛ فقد حكى « مكدوجل » عن بعضهم أنه اعترف أمامه بأنه خاطب بعض الحيوانات وفهم لغاتها ، لا أثناء النوم ، ولكن وقت اليقظة ! وما ذلك إلا لعدم تفرقته بين الأحلام والتجارب الحقيقية .

أثر الاحساس فى الأحلام

من أبسط الأحلام ما كان ناشئا عن إحساسات حقيقية كسماع دقات الساعة ، أو حديث الحاضرين ، أو الاحساس بألم فى المعدة ، أو غيرها من الأعضاء الباطنية أو الأطراف ؛ فالنائم يتصور هذه الاحساسات مكبرة معظمة ، فتقوم دقات الساعة مقام طلقات المدفع ، وحديث الحاضرين مقام ضجيج وغوغاء ، وألم المعدة مقام وخز بالابر أوطعن بالخناجر ، وطنين الذباب مقام خرير الماء ، أو حفيف الريح ، أو زمجرة الزوابع .

فالحلم فى هذه الأحوال أقرب ما يكون إلى « الادراك الحسى الكاذب » [1] ، الناشىء عن خطأ فى الاحساس أو فى التأويل ، إلا أن الخطأ يكون هنا أظهر كما رأيت . ومن الأحلام التى تروى من هذا القبيل أن غلاما تنبه من نومه ، بعد ظهر يوم من أيام الصيف ، على أثر رؤيا رآها ، وهى : أن يوما قد أتى وأن الأرض قد ملئت نوراً وهاجاً يذهب بالأبصار ، وأن اسرافيل اخذ ينفخ فى الصور النفخة الأخيرة ، فذعر لها الغلام واستيقظ من نومه ، فاذا بالشمس ساطعة ساقطة على جبينه ، وإذا بساعة على مقربة منه تدق ، محددة منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر .

وأحياناً يبدأ الاحساس أثناء الرؤيا فيتداخل فيها ، ويؤثر فى اتجاهها . فمن ذلك ماجرى لاحدى مشاهير الكتاب ، التى كانت تجرى عليها تجربة ، فبينما كانت نائمة تتناقش فى حلمها مع بعض أصدقائها ، وتعد معهم الخطة التى يجب اتباعها أثناء الأجازة المقبلة ، إذ ألقى المجرب على مقربة منها قطعة من الشعر ، فكانت هذه عندها رسالة من أحد أرباب المطابع يذكرها باتفاق وقع بينهما ، فأخذت هذه الرسالة على أنها مقلقة لراحتها ، ولكنها مع ذلك لن تؤثر على خطتها التى عقدت العزم على اتباعها أثناء الأجازة .

ومن ذلك أن شخصاً رأى رؤيا عن الثورة الفرنسية ، وفى أثنائها سقط شىء على رقبته ،

[1] Illusion

فاستيقظ مذعوراً لأن هذا الشيء وقع على رقبته موقع المقصلة (الجلوتين)، على أن الغالب أن الحلم يحدث بدون إحساس ، ويكون فى هذه الحالة أشبه شيء « بالخبل العقلى » [1] الذى تكلمنا عنه فى المقال السابق ، وذلك حينما يتخيل المريض أشياء ويرى صورا لاوجود لهافى الخارج .

وظائف الأحلام .

ليست جميع الأحلام مجرد خيالات تمر وتنقضى بلا داع ولا غرض ، ولكنها مثل أحلام اليقظة مرتبطة بحياة الانسان وتجاربه وميوله أثناء اليقظة .

(١) فمن الأحلام ما يمثل حوادث وقعت بالفعل تمثيلا مطابقا لما وقع ، ولو على وجه التقريب ، وهذه الأحلام التمثيلية كانت تقع للكثير من الجنود أثناء الحرب العظمى الماضية ، وكثيراً ما كانت أحلام هؤلاء تتكرر وتقع مطابقة تماماً لما حصل لهم فى المواقع الحربية ، وبالبحث وجد أن هذه ترجع إلى مخاوف ؛ فإن هؤلاء الجيوش كانوا يتشجعون ، ويضبطون أنفسهم ، ويكظمون غيظهم وخوفهم ، أثناء القتال ، ومازالوا كذلك حتى ظهرت هذه المخاوف فى أحلامهم ؛ وقد كانت هذه الأحلام من دلائل الوهن والضعف الجسمى والعقلى ، وعلامات على اقتراب مرض جسمى أو عقلى .

ومن الأحلام الناشئة عن الخوف أحلام الطفل الذى يخاف حيوانا أذاه ، فيظهر له فى نومه أثناء الحلم ، وأحلام المجرم الذى يخاف عاقبة جرمه فيراها ماثلة أمامه فى نومه .

وليس الخوف هو السبب الوحيد فى الأحلام التمثيلية ، فالغضب والاشمئزاز من أسبابه أيضا ، ولكن الخوف أقواها أثرا ، لأن كرامة الانسان واحترامه لنفسه يأبيان عليه أن يظهر الخوف أمام غيره ، فهو يخفيه ، ولا يزال يخفيه ، حتى تظهر عليه آثاره فى أحلامه . هذا إلى أن أثر الخوف فى النفس شديد ، فإذا لم يظهر فى اليقظة ظهر فى النوم ، ومن ذلك تفهم معنى قول البعض : إن الأحلام التمثيلية ترجع إلى الاضطراب العصبى وتداعى المعانى .

(٢) ومن الأحلام ما يكون وظيفته (التنفيس) أى إرضاء رغبة متهورة أو شهوة مكبوتة ؛ وهذه الأحلام التنفيسية حلوة لذيذة ريثما تستمر ، ومن المؤلم الاستيقاظ بعدها ، وكثيرا ما يحدث الشك أثناءها فيختبر الانسان نفسه فى النوم ، ليعلم إن كان نائما أو مستيقظا ، لأنه يستلذ التجربة ، فيريد أن يطمئن على لذته وسروره ، ويتأكد من أنه فى عالم الحقيقة ، ولكنه سرعان ما يستيقظ من نومه متحسراً نادماً .

ولاشك أن كثيرا منا قد رأوا عدة من هذه الأحلام ، وقول العوام «حلم الجعان عيش» يبرهن على شيوع هذا النوع من الأحلام بين الناس ، ولا شك أن القائل :

رأيت فى النوم أنى راكب فرساً ولى غلام وفى كفى دنانير

[1] Hallucination

أراد أن يظهر لممدوحه حاجته الشديدة إلى هـذه الأشياء ، ورغبته فى الحصول عليهـا ، تلك الرغبة التى جعلته يحلم بها ؛ فكل رغبة مقهورة ، أو ميل مدحور صالح لأن يكون سبباً فى حلم مرض له .

وأقوى الرغبات المثيرة للأحلام الرغبات الفرزية ، كالرغبة فى الاجتماع الجنسى ، أو فى الحصول على الطعام أو الشراب أو الدفء أو المـال أو الأولاد أو العلم أو الجاه ؛ ولغريزة حب الظهور والتسلط أثر كبير فى الأحلام ، فقل منـا من لم يروا فى أحلامهم أنهم قاموا بالمعجزات ، وحـلوا المشكلات ، وأتوا بالعجب العجـاب ، فى عالم الأقوال والأعمال ، ومن الاباء والأمهات من يرون أبناءهم ينتصرون على غيرهم ويقهرونهم ويتغلبون عليهم فى القول والعمل ، لأن الابن منسوب إلى أبيه وأمه فانتصاره انتصار لهما .

ومن الناس من يرى أنه طار من مكان لآخر ، أو جرى على المـاء ، أو مشى على الحـائط من أعلى إلى أسفل أو بالعـكس ، أو خاطب ملـكا أو أميراً ، أو قام بغير ذلك من خـوارق العادات ،مع أن شيئا من ذلك لم يكن رغبته يوما من الأيام ، فهذه الأحلام وما أشبهها من مظاهر غريزة حب التسلط .

(٣) وأهم من هذه الأحلام التى وصفناها الأحـلام المتعلقة بالمستقبل التى قد نسميها الأحلام الغيبية ، فمما لا شك فيه أن كثيراً من الناس يحلمون أحلاماً تتحقق بالفعل فى المستقبل ولو على وجه التقريب ، ولا شك أنك قد سمعت كثيرا من هذه الأحلام ، وعرفت أنها تقع لـكثير من الناس ، وعلمت أن منها الرمزى الذى يحتـاج إلى تأويل ، ومنها الحقيقى ، الذى يكون مطابقا لمـا يقع . فليس لنا أن ننكر هذه الأحلام ، ولا أن نحاول إرجاعها إلى أحـد النوعين السابقين ، بل من الواجب أن نعترف بحصولها ، كما اعترف بذلك المتقدمون من المسلمين وغيرهم .

ومن الممكن تعليل هذه الأحلام بأحد ثلاثة وجوه : —

أولها : إن الروح إلهية بطبيعتها ، فهى ترى المـاضى كما ترى المستقبل ، وتدرك ما « هنا » كما تدرك ما « هناك » ، فليست مرتبطة بزمان ولا مكان ، ولـكنها لمـا اتصلت بالجسم - ذلك الحجاب الـكثيف - تحددت بحدوده ، وصارت إدرا كاتها مثل ذلك السجن الذى تحـله ، محدودة بحدوده ، فلا يمكن لها أن تتطلع إلى ما وراء جدرانه ، فهى لا تدرك إلا ما كان أمامها ، ولا ترى إلا ما يقع فى الحال ، ومن الممكن لها الرجوع إلى المـاضى وتذكر ما حدث فيه ، فاذا تهيأ لها التخلص من قيود الجسم رجعت الى طبيعتها الأولى ولو جزئياً ، وهـذا ما يحصل أثناء النـوم ؛ فان الجسم والحواس تـكون فى حالة انكماش وخمـود ، فتظهر الروح

وتقوى ، وتسترد شيئا من حريتها المسلوبة ، فيتسنى لها حينئذ أن تدرك ما فى المستقبل .
وهذا هو التعليل الروحانى الذى جرى عليه الروحانيون ، ويقرب منه رأى ابن سينا وابن خلدون وغيرهما من المسلمين ، وبه تعلل أحلام الأنبياء والأولياء والصالحين .
وثانيها : إن هذا النوع من الأحلام يشبه الفكر أثناء اليقظة ، فهو يعتمد على الخيال المقيد الذى يرمى إلى غرض خاص ، فكما أن الانسان يصل بفكره أثناء اليقظة من المعلوم إلى المجهول ، كذلك يصل العقل الباطن الى أمور مجهولة أثناء الأحلام ، فالأحلام الغيبية على هذا الراى من استنتاجات العقل الباطن الذى تكون معلومات العقل الظاهر بمثابة مقدمات يصل منها الى نتائج صحيحة ، ويعضد هذا الرأى أن الأحلام الغيبية تكون عن أشياء أو أشخاص نعرفهم أو نسمع عنهم ، وكثيراً ما نفكر فى شؤونهم وأحوالهم الخاصة أثناء اليقظة ؛ ويسمى هذا التعليل الاستنتاجى وهو أقرب إلى مذهب المحدثين الذين يعارضون المذهب الروحانى ويرجعون جميع الادراكات المسماة بالغيبية أو الشاذة الى التجارب الماضية أو الالهام [1] ، ولا يعترفون بامكان تجرد العقل أو الروح عن الجسم .
وثالثها : أن الرؤيا قد تكون فى ذاتها حافزة نحو العمل مشجعة على السعى فى تحققها ، فاذا تحققت فليس ذلك راجعا الى أنها كانت من قبيل إدراك الغيب ، وإنما السبب فى تحققها هو السعى المتواصل تحت تأثير الايحاء ، فاذا رأى شخص أنه نجح فى امتحان مقبل عليه ، فقد تدفعه هذه الرؤيا إلى الجد والاجتهاد فينجح ، فتكون الرؤيا بمثابة الايحاء الدافع إلى العمل ، ولذا يسمى هذا التعليل التعليل الايحائى ، وهو وإن صح أحيانا لا يمكن تطبيقه على جميع الأحلام الغيبية ، فان كثيرا من الناس يحلمون أحلاما عن غيرهم ، ثم يسمعون أنها تحققت ؛ وإن تكرار هذه الأحلام فى كل زمان ومكان يحملنا على رفض رأى من يقولون بالصدفة .
فالظاهر أن للتعليل الاستنتاجى الغلبة على الايحائى ، ولكن ليس هناك مانع يمنعنا من التوفيق بين التعليلين بأن نقول إن كلاهما صحيح ، هذا فى بعض الأحلام ، وذاك فى البعض الآخر .
هذا ما عن لى ذكره بالاختصار عن الأحلام بوجه عام ، وسأتكلم عن رأى «فرويد» والرد عليه فى مجلد آخر إن شاء الله تعالى .

حامد عبد القادر

شعر الزهد والتشاؤم
(بقية المنشور على الصفحة رقم ٢٦٦)

وتلك دعوة أرجو أن أرى صداها فى قلب كل مصرى ، فيسعى بكل عزيمته إلى آماله الكبيرة وأمانيه الزاهرة ، غير حافل إلا بهمته ، ولا آبه لعقبة تعترضه وتحول بينه وبين أمنيته ، عالما أن النجاح توأم الثبات ، والمجد والعظمة وليدة الدأب والمثابرة .

أحمد أحمد بدوى

---

[1] Intuition

خواطر ونقدات

هاتوا قروشى . . . !!

من منا لم يبن على مشروع القرش العلالى والقصور ؟ ومن منا لم يذهب به الفرح إلى عالم الخيال فتصور مصر وفيها المعامل والمؤسسات ؟ ومن منا لم يعجب بالطالب والطالبة يتسابقان فى مهمة التحصيل دون كلال أو ملال ، يغشون المحال والمنتديات ، ويجوبون الشوارع والطرقات ، وتجدهم فى القرى وفى الحاضرات ، يقولون هات ، هات . كلنا من غير شك رحبنا بهذه الفكرة وقدرناها ، وكلنا بلا ريب أعجبنا بها وزكيناها .

إنى لأذكر ذلك الطالب فى مدرسة الحقوق ، وقد لقينى فى محطة السنبلاوين ، يتقدم إلى فى جرأة مشكورة قائلا (مشروع القرش) ، فأعتذر إليه بأن أريه ما كان لدى من طوابع المشروع ، ولكنه يلح ويأبى إلا أن أبتاع بعض طوابعه فأفعل فى كثير من الاعجاب والتقدير .

وإنى لأذكر كذلك ذلك الطالب الذى طالب أباه بخمسين قرشا فسأله لماذا ؟ فقال : بعت طوابعى عدا خمسين ، وغداً التوريد ، وصعب على إرجاعها ، فما كان من أبيه إلا أن دفع المطلوب وهو فى شدة السرور . لماذا كان هذا النشاط من جانب الطلبة والطالبات ؟ ولماذا كنا جميعا فرحين بهذا المشروع ؟

ظننا جميعا فى هذا عملا صالحا وفكرة قومية ، نخرج منها بمشروع وطنى نافع يكون نواة لمشاريع كثيرة نافعة .

ولكن ! ولا بد من لكن ، أين هو المبلغ وأين هو المشروع ؟ فأما المبلغ فقد أودعوه بنك مصر ، ولكن ! بدون فائدة !!! إذن فقد جمعت هذه القروش منى ومنك ومنه ومنها ، لينتفع بها مساهمو بنك مصر المحترمون ، وهنا يتجلى المثل العامى (طلب الغنى شقفه ، كسر الفقير زيره) ، وأما أمثالى وأمثالك - إن كنت ممن لا يملكون شيئا من سهوم - فربما كانت فائدتهم إن شاء الله بعد عمر طويل ، لأنهم وإلى وقتنا هذا ، لم يهتدوا إلى ذلك المشروع الذى به (نضرب الأرض تطرح بطيخ) يا ناس ! حرام عليكم ، أإلى هذا الحد ؟ أنسيتم أنكم قلتم إن مشروع القرش سيكون مشروعا سنويا ؟ إذن ماذا قدمتم فى سنته الأولى ، شحذا للهمم فى سنته الثانية ؟

إنكم بمثل هذا العمل تسيئون إلى الجميع ، تسيئون إلى الطلبة الأبرياء إذ يعرض عنهم الجمهو وتسيئون إلى الجمهور الوادع بما يقوم بذهنه من شكوك ، وتسيئون إلى الوطن فى الصميم

أنظرية جديدة ؟ أفتريدون الجماعة ملكا للفرد ؟ أتأخذون منا القروش لتودعوها بنك مصر بلا فائدة إلا لأصحاب الجنيهات ؟

شيئا من حسن الظن بعقولنا أيها الناس !!!

كلمة أخيرة : هاتوا المشروع أو هاتوا قروشى ؟

احمد منصور

مدير ادارة « المعرفة »

التربيـة والتعليم

عند العرب والفرنج

للاستاذ أحمد فهمى العمروسى بك
ناظر مدرسة المعلمين العليا

فى الجزء الأول من السنة الثانية (مايو سنة ١٩٣٢) تناول الأستاذ الجليل أحمد فهمى العمروسى بك ، البحث عن أصول التربية والتعلم عند العرب وموازنتها بما عند الافرنج ، مثبتاً أن للعرب فضل الأسبقية فى جل الآراء الحديثة؛ وقد عنى الاستاذ العمروسى بك بكتاب أدب الدنيا والدين بصفة خاصة ،فتناول منه طرفتين بالتحليل والتفصيل.

وها هو الآن يتناول الطرفة الثالثة ـ والأخيرة من البحث ـ بالتبيان والتبسيط، مما لا يترك مجالا لناقد أو جاحد على العرب فضلهم ؟ المحرر

الطرفة الثالثة للماوردي : وهى طرفة هامة جداً لأنها تتناول جوهر التربية وتمس أهم معضلاتها وأدق مشكلاتها وهى بنصها :

« ينبغي للعالم أن تكون له فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله ذكاؤه أو يضعف عنه بلادته ، فانه أروح للعالم وأنجع للمتعلم — وقد روى ثابت عن أنس بن مالك، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت»،وقال عبد الله بن الزبير: « لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه » .

وإذا كان العالم فى توسم المعلمين بهذه الصفة،وكان بقدر استحقاقهم خبيراً، لم يضع له عناء، ولم يخب على يديه صاحب ،وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه فى عناء مكد وتعب غير مجد .

وقال بعض العلماء :« كل علم كثر على المستمع،ولم يطاوعه الفهم، ازداد القلب به عمى، وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان » ا ه

هذه الجملة على قصرها أثارت فى نفسى أمرين خطيرين: الأول حرج مركز المعلم وصعوبة موقفه وعظم التبعة الملقاة على عاتقه فى المجتمع ، والثانى الطريقة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها فى تقويم عقول الناشئين وتهذيب أخلاقهم .

ولكى تفهم موقف المعلم فى الأمة من موقف غيره من العاملين لخيرها كالمهندس والطبيب وغيرهما، ولكى ندرك الصعوبة التى يلقاها، والعقبات التى يصادفها بالنسبة لهؤلاء، يجب أن نلم بالفرق بين العلم والفن، فنقول: إن العلم والفن شكلان مختلفان من أشكال التفكير، والفرق بينهما كالفرق بين النظرى والعملى؛ فالعلم يبحث فى النظريات والنواميس العامة دون أن يلابس الكائنات، إلا ريثما يلاحظ ليستنبط، ويقنن، بخلاف الفن فانه يلقى بنفسه فى أحضان المحسوسات ليطبق تلك القوانين العامة على الكائنات على اختلاف أنواعها، وفى الظروف المختلفة التى تحيط بكل حالة منها على انفرادها؛ فعلم الطبيعة مثلا يضع القوانين العامة للجاذبية والحرارة والكهرباء والمغناطيسية بصرف النظر عن استقراء الأجسام التى تظهر فيها تلك الخواص، فلا يتبعها فرداً فرداً لمعرفة أحوالها وخواصها، أما الفن فانه يصرف همه إلى تطبيق تلك القوانين العامة والاستفادة منها فى رفع الأثقال مثلا، ونقل الأجسام من مكان إلى آخر بحيث إن كل مسألة تؤخذ على حدتها وتحل على حسب ما يناسبها.

وبينما العالم يسبح فى هدوء وسكون فى عالم الحق الفسيح بمعزل عن الناس يشحذ ذهنه ويرهف فكره فى استنباط الحقائق وتقنينها، وليس له من غرض سوى اتباع شهواته العقلية، والتوغل فى الفتوحات العلمية، والتعمق فى ميادينها المجهولة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، إذا بالفن يضع نفسه وسط الأشياء لغرض معين محدود؛ فالمربى مثلا ينصب نفسه وسط الناس لتعليمهم وتلقينهم الحقائق العلمية وفقاً للقواعد التى وضعها علماء التربية، وهى مهمة - ولا شك - أشق من مهمة العالم، لأنه باتخاذه إياها مهمة له قد أخذ على نفسه أن يهذبها ويرتبها حتى يجعلها سائغة تقبلها عقول الناس، ولهذا يتخير الأساليب السهلة، ويتوخى الطرق الشائقة التى تترك أكبر أثر فى نفوس المتعلمين، مع العناية بتمحيص تلك الحقائق وتخليصها من كل ما يشوبها من شوائب الشكوك والتأويلات الباطلة، فيكرر ويعيد - بدون ملل أو كلال - حتى يصل بالمتعلم إلى غاية ما يريد وتلك مهمة دائمة تستوعب العمر وتستنفد الحياة، فكلما ذللت صعاب بدا غيرها، وكلما دوويت علل ظهرت علل، ومن هنا ترى البون شاسعاً بين مهنة المدرس وبين مهنة المهندس مثلا فى الصعوبة التى يلقاها كل منهما، فالمهندس يعمل على أجسام خامدة وأرقام صامتة، ويصل إلى نتيجة حاسمة، وليس لجسم من الأجسام أن يشذ عن القاعدة، أما المدرس فيعنى بأجسام ذات أرواح وعقول وشعور وميول، تختلف فى شخص عنها فى الآخر، ولكل واحد أحوال خاصة تستدعى علاجاً خاصاً. ولذلك كان أفلاطون يقول: إن أرسطو يحتاج إلى لجام، أما زينكرات فانه يحتاج إلى مهماز.

وقصارى القول: إن الصفة البارزة فى المعلم هى الفراسة والنظر الصحيح إلى المتعلمين وتوسمهم، كما يقول الامام الماوردى رحمه الله، حتى يرسل شعاع فراسته إلى عقولهم وميولهم وسلوكهم وأخلاقهم، فهم يختلفون فى العقول اختلافهم فى الوجوه، وإن اختلافهم فى الاحساس

والشعور أوسع وأعظم، فلكل واحد منهم شعور خاص وميول خاصة، كما أن له لغة خاصة وتعبيراً خاصا، وطرقا للتفكير غير طرق أخيه وزميله؛ خذ الشرف مثلا ـ الذي يظن لأول وهلة أنه فضيلة عامة فى الناس بدرجة واحدة ـ فان تقديره يختلف كذلك فى إنسان عن تقديره فى آخر. فقد ذكر التاريخ أن القائد الرومانى (كانون) قتل نفسه عقب انتصار يوليوس قيصر عليه فى موقعة «يوتيك»، بينما سلم أقرانه القواد الآخرون الذين تربوا معه تربية عسكرية واحدة، وهزموا معه فى تلك الموقعة، دون أن يروا فى الخضوع للقوة والاستسلام للغالب حطا من كراماتهم أو مساسا بشرفهم.

ومن نصائح الامام ابن خلدون الغالية فى هذا الصدد «أن لا يؤخذ الغلمان جميعا بطريق واحدة، وأن لا يعاملوا معاملة واحدة فى العلاج والتهذيب، وإنما يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم»، قال: «وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وفى سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته» اهـ.

وهنا يجب على أن أنبه الأذهان إلى هذه الملاحظة الدقيقة، وهى أن فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلا ذا شخصية مستقلة ـ يحتاج فى تقويمه وتهذيبه إلى علاج خاص، تلك التى فطن لها فلاسفة العرب ـ لم تكن معروفة قط عند الأمم الأوروبية فى القرون الوسطى، بل كان المعروف عندهم أن التربية واحدة للجميع، فكان التلاميذ يفكرون بطريقة واحدة ويشعرون بكيفية واحدة كأنهم أفرغوا فى قالب واحد، وكان المدرس يعطى درسه لتلاميذه كأنهم كتلة واحدة، دون أن يفكر فى تكييفه وتنويعه وفقاً لطبائعهم وأمزجتهم وأحوالهم وأسنانهم؛ وكانت العقائد الدينية تحظر كذلك أن يفكر إنسان بتفكيره الخاص، وأن يشعر بشعوره الخاص، ولم تظهر فى أوربا كلها فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلا ذا شخصية ذاتية إلا فى عصر النهضة أو إحياء العلوم فى القرن الخامس عشر، ولكننا نحن فى الشرق نتفخر بما كان عليه أسلافنا فى تقرير هذه الفكرة والعمل بها بطريقة فعلية، كما أشار إليها ابن خلدون فيما نقلناه، وهو الذى دعا أساطين التربية والتعليم فى أمريكا إلى التنويه والاعجاب به كما أسلفنا(١).

وعلى المربى فوق ذلك أن يكون منزها عن الأغراض المادية والمعنوية؛ لأنه نصب نفسه لهذه الحرفة الشريفة كما أسلفنا، وعليه أن يجد فى عمله، ويسعى إلى الخير جهده، وليس عليه أن تتم المطالب؛ فان من أجمل أمور هذه المهنة أنها تتهيب نتيجة جهودها، وتخشى عاقبة أمرها، فقد يخفق المربى حين يظن النجح حليفه، وقد يكون انتصاره إخفاقا تاما وهزيمة منكرة؛ وهذا

(١) راجع الجزء الاول من السنة الثانية لهذه المجلة (مايو سنة ١٩٣٢)

ما حدث للمربى «فنلون» حين عهد إليه تأديب «دوق برجونيا» ولى عهد لويس الرابع عشر، فانه بدل أن يخرج منه للملكة ملكا حازما أخرج لها قسيساً زاهداً، ذلك لأنه وجه كل جهوده ـ عن صدق نية وحسن اعتقاد ـ إلى ناحية الزهد والورع، فنجح فى ذلك نجاحاً تاماً، إلا أنه أخطأ خطأ فاحشاً فى التوسم وبعد النظر؛ فقد كان من أوجب الواجبات عليه أن يبث فى تلميذه قبل كل شىء روح النشاط وحب العمل والتسيطر والتسلط وما إلى ذلك من الصفات التى يجب أن تتوافر فيمن هو مرشح لتولى السلطنة والهيمنة على أمور أمة بأكملها؛ وقد تأتى الخيبة من طبيعة التلميذ الجامدة وعقله الخامل، وهذا ما حدث للمربى الفرنسى «بوسويه» مع ابن لويس الرابع عشر نفسه؛ فانه لم يحصل منه بعد العناء الشديد والجهد الجهيد على نتيجة تذكر.

من أجل هذا كله وجب على المربى ـ قبل كل إنسان ـ أن يعنى بعمله عناية تامة، وأن يبذل الجهد الجهيد فى سبيل تذليل مسائل العلم وتبسيطها وتمهيد الطريق لتفهيمها للنشء تفهيما صحيحاً، وعليه فى الوقت نفسه أن يشتغل لوجه الله خالصاً، وأن لا ينتظر مكافأة على جهوده سوى شعوره أنه قام بما وجب عليه نحو أمته وبلاده بقدر ما وصل إليه الجهد، واتسعت له الطاقة، وإذا قدر له النجاح وأخرج للأمة رجالا نافعين، فقد تمت له السعادة ونال الحسنى وزيادة، لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «يا على لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»، وفى رواية أخرى: «خير لك مما طلعت عليه الشمس»؛ ذلك هو الموقف الدقيق الذى يقفه المعلم من تلاميذه شرحته لقراء «المعرفة» الغراء شرحاً يتفق وأهمية نظرية التفرس أو التوسم كما يقول الامام الماوردى.

بقى أن ننظر فى تطبيق تلك النظرية وترسمها فى معالجة أمور التربية والتعليم فنقول: يجب أن تسير تربية الأطفال بطيئة متدرجة متصاعدة، كما تتدرج الطبيعة نفسها فى ظهور قوى الطفل النفسية، فيبدأ بتربية الجسم والعمل على إنمائه بالطرق الصحية، ثم يعنى بأمر التربية الخلقية التى تتناسب مع أسنان الأطفال، ثم تأتى بعد ذلك تربية الحواس، فيدربون على دقة الملاحظة والمضاهاة، حتى يتسنى لهم استنباط الكليات من الجزئيات، والقواعد والتعاريف من الأمثلة، وبذلك ينتقل من المحسوس إلى المعقول ومن البسيط إلى المركب؛ فعلى المربى أن يتريث وألا يتعجل فيكلف الطبيعة فوق طاقتها، والطبيعة البشرية كما يقول (روسو) هادية من تلقاء نفسها إلى الحق والباطل، كما أنها ملهمة الخير والشر؛ ولا شىء يصدها عن سواء السبيل ويبعدها عن إدراك الغاية، التى هيأها الله لادراكها، إلا التربية الناقصة البتراء التى نعاها (مونتين) على القائمين بأمر التربية فى زمانه، حيث يقول: «لقد كانت حكمة الأمة الفرنسية مضرب الأمثال من قديم الزمان، وإننا حتى اليوم لا نرى أذكى من أبناء فرنسا الصغار، ولكنهم للأسف لا يلبثون متى صاروا رجالا أن يخيبوا الآمال، ويخلفوا المظنون، ويغشاهم من الغباوة والبلادة مايلفت الأنظار ويحير الأفكار، وقد قال لى بعض الثقات: إن المدارس التى يختلفون اليها هى التى تفسد عقولهم وتعمى أفئدتهم».

وقد نحا الروائى الشهير (الكسندر دوماس) نحوه فى الازراء بالتربية فى زمانه، حيث يستفهم أحد الممثلين فى إحدى رواياته قائلا: لماذا ينقلب أطفالنا الظرفاء المهذبون رجالا غلاظ الأكباد خبثاء الطوية قساة القلوب، فيرد عليه ممثل آخر قائلا: لا بد أن يكون السبب فى ذلك التربية.

وعلى ذكر انتقاد الأفراد الخارجين عن دائرة التعليم طرق التربية فى المدارس، أنقل لك فكرة طريفة من كتاب «مشكلة التربية» (١) تأليف الدكتور (دوجاس) أستاذ علم التربية فى جامعة «رين» بفرنسا وهى:

«إن الاصلاحات التى أدخلت على طرق التربية والتعليم فى المدارس، إنما كان مصدرها تلك الانتقادات التى جادت بها قرائح مفكرين ليس لهم صلة بالتربية والتعليم، ولكنهم أفراد يثورون ضد كل فاسد، وينهضون لاصلاح كل معوج، وإن علم التربية برمته قد نما وترعرع خارج منطقة المدارس بفضل جهود هؤلاء الأفراد، فلم يكن «رابليه» و«مونتين» و«روسو» و«ستيوارت ميل» و«سبنسر» ممن اشتغلوا بمهنة التربية والتعليم، ولكنهم باخلاصهم وغيرتهم على الصالح العام أوجدوا علم التربية الحديث، وتعهدوه، وهو لا يزال ينمو اليوم ويرقى بفضل جهود أفراد بعيدين عن حركة التعليم»، ثم استدل على ذلك بفقرة من كتاب التربية تأليف «هربرت سبنسر» هذا نصها:

«لو لم يكن لدينا سوى المدارس العامة (٢) وما يتخرج فيها من رجال وعلماء رسميين لبقيت انجلترا إلى اليوم كما كانت فى عهد الاقطاعات، ولكن علمنا — الذى يزداد كل يوم والذى تمكنا بوساطته أن نخضع الطبيعة، وأن نسخرها لحاجاتنا حتى أصبح الفلاح عندنا يتمتع برخاء وسعادة ما كان يحلم بها الملوك الأقدموز — لم يكن لمعاهد التعليم العامة فيه سوى حظ يسير. أما المعلومات الحيوية التى أوجدت منا أمة عظيمة، والتى تقوم عليها حياتنا الأهلية، فمن عمل أفراد مخلصين، لا يشعر بهم أحد ولا يعلم الجمهور عنهم شيئاً، وبينما هؤلاء يكدون ويكدحون فى الخفاء إذا بعلمى المدارس العامة الرسميين ذوى المناصب العالية يلوكون ألفاظاً ويرددون عبارات ما أنزل الله بها من سلطان».

لذلك ينصح (روسو) للمعلم أن يمحو شخصيته أمام الأطفال، وأن يقتصر عمله على النصح والارشاد والهدى إلى التى هى أقوم، (وهذا ما يعبر عنه روسو) بالتربية السلبية.

وهو ينحى باللائمة الشديدة على التربية التى تدفع الطفل إلى العلم دفعاً وتكلفه حمل ما لا طاقة له بحمله، وفهم ما لا قبل له بفهمه، وإدراك ما لا تقوى عليه مداركه، ويصفها بأنها تربية متعسرة، لأنها تحاول أن تنقل الطفل فجأة من طور الطفولة إلى مصاف الرجال، وتريد أن تلقنه — وهو طفل — حقوق الرجال وواجباتهم.

وقد سبق (روسو) إلى نقد هذا النوع من التربية فلاسفة العرب، فهذا صاحب «أدب

---

(1) Le probleme de l'edu cation

(2) Public Schools

الدنيا والدين » يهيب بها وينادي بذمها ، ويراها تأتى بعكس المقصود منها ، وأنه بها ينقلب النور ظلاما والبصر عمى ، وذلك حيث يقول : « إن كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان » .

غير أن الناس فى كل زمان وفى كل مكان يتغاضون – للأسف الشديد – عن هذه القضية البديهية الواضحة الجلية ، فيتجاهلها الآباء فى البيت ، كما يغفلها المدرسون فى المدرسة ، فتراهم يبكرون جداً بتلقين أبنائهم ألفاظاً وعبارات لا يفهمون لها مغنى ، ولا يقيمون لها وزناً ، وهم مع ذلك يسرهم جد السرور أن يسمعوها منهم كما يسمعون الببغاوات .

ومن ثم تنشأ فى الأولاد عادة قبيحة لها أسوأ الأثر فى تربية الأفراد والأمم ، وهى التكلم بالألفاظ دون الاهتمام بمدلولاتها ومعانيها ، ذلك بأن القائمين بتربيتهم حشوا أذهانهم بألفاظ وعبارات حشوا ، وحشروها فيها حشراً ، غير عالمين بأن ذلك مما يؤخر فيهم قوة الفهم ، ويضعف ملكة العقل والادراك ، ويكون حجر عثرة فى سبيل التربية فيما بعد – لاحظ ابن القرية تجده أقوم فكراً وأحسن أداء وأفصح منطقاً من ابن المدينة ، لأنه يعيش فى بيئة هادئة ساكنة لا يكاد يراه أهله إلا قليلا ، نظراً لاشتغالهم بالحقول ، فلا يتعلم إلا ألفاظاً قليله محدودة ، ثم هو لقلتها يكون على بينة من معانيها وفهم واضح لمراميها بخلاف ابن المدينة .

وقد أدرك ذلك من كان قبلنا من مفكرى العرب وحكمائهم ، فنصحوا لمن عهدوا اليهم فى تربية أبنائهم من المعلمين ، أن يقتصدوا فى عرض الأفكار عليهم حتى لا يشغلهم تزاحمها عن فهمها ، وأن يتثبتوا من فهمهم ما يعرض لهم من الألفاظ والتراكيب حتى لا يستعملوها إلا فى مواطنها اللائقة ومواضعها المناسبة .

ولنعرض فقرة من كتاب عمرو بن عتبه لمعلم أولاده حيث يقول :

« ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بعينيك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم فيه فيهجروه ، روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم » .

وجعل الامام الماوردى (صاحب أدب الدنيا والدين) من شروط بلاغة الكلام ، أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة ، وفسر المطابقة بأن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها ، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن المعتمر فى وصيته فى البلاغة :

« إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة إلى مستقرها ولا حالة فى مركزها ، بل وجدتها قلقة فى مكانها نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على القرار فيه » ، وقال بعض البلغاء : « لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك . »

وهذا ما يجب على الأهل والمعلمين أن يفطنوا له ، وأن يعنوا به العناية كلها حتى لا يكون كلام أطفالهم وتلاميذهم اليوم وكلامهم وهم رجال الأمة غداً هراء فى هراء ، فان الكلام ميزان دقيق فى تقدير الرجال ، والحكم على كفايتهم العلمية والخلقية .

أحمد فهمى العمروسى

الدولة الفاطمية

قيامها وزوالها وخراب القصور الزهراء

بقلم الدكتور أحمد عيسى بك

كان الدكتور أحمد عيسى بك عندما وضع رسالة البيمارستانات، قد ألف رسالة في القصور الزهراء وهي التي أنشىء مكانها البيمارستان المنصوري قلاوون، ثم توسع في الكتابة حتى أتم وضع تاريخ لقيام الدولة الفاطمية وانقراضها، وهذا هو الفصل الأخير من تلك الرسالة ننشره لقراء «المعرفة» حتى يعلم جمهور القراء كيف زالت دولة تعد من أعظم الدول الاسلامية مدنية؟ المحرر

في تدهور الدولة الفاطمية وزوالها وخراب القصور الزهراء

كان آخر خلفاء الدولة الفاطمية في مصر هو العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف، ومولده لعشر بقين من المحرم سنة ٥٤٦ هـ، ولي الخلافة بعد موت الفائز، وكان عمره يوم بويع إحدى عشرة سنة، فقام الصالح طلائع بتدبير الأمور إلى أن قتل سنة ٥٥٦، فقام بعده ابنه رزيك بن طلائع ثم ثار عليه شاور بن مجير السعدي وقبض عليه، واستقر شاور في الوزارة مكانه سنة ٥٥٨ فأقام بها إلى أن ثار ضرغام ففر منه شاور إلى الشام واستبد ضرغام بالوزارة فقتل أمراء الدولة وأضعفها بسبب ذهاب أكابرها؛ فقدم الفرنج وأغاروا على بلبيس، فردوا عنها مراراً، فوصل شاور بعساكر الشام سنة ٥٥٩، فحاربه ضرغام بعساكر مصر فانهزموا، وغنم شاور سائر ما خرجوا به حتى آل الأمر إلى هزيمة ضرغام وقتله، فاستولى شاور على الوزارة مرة أخرى، واختلف مع الغزاة القادمين معه من الشام، فاستعان عليهم بالفرنج، فكتب شاور إلى ملك الفرنج يستدعيه إلى القاهرة ليعينه على محاربة شيركوه، فحصلت بينهما وقائع واستفحل أمر شاور بمساعدة الافرنج واستبد بالناس وقوي طمع الافرنج في البلاد وجاروا في حكمهم فكتب الخليفة العاضد إلى نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام يستصرخه ويحثه على نجدة مصر وإنقاذها من الفرنج وقتل شاور، فجهز أسد الدين شيركوه في عسكر كثير، وسيرهم إلى مصر، فنزل شيركوه على القاهرة وقتل شاور؛ فخلع عليه العاضد وأكرمه، وتقلد شيركوه وزارة العاضد فقام بالدولة شهرين وخمسة أيام ومات، ففوض العاضد الوزارة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، فساس الأمور ودبر لنفسه، فبذل الأموال وأضعف العاضد فلم يزل أمره في ازدياد وأمر العاضد في نقصان، وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان نور الدين محمود بن زنكي وأقطع أصحابه البلاد واستبد بالأمور ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة إلى أن كان من واقعة العبيد وقتل مؤتمن الخلافة الخصي الذي كان بالقصر، فلما قتل غار السودان

وثاروا ، فأبادهم صلاح الدين وأفناهم ، وكانت الواقعة بين القصرين تحت سمع العاضد ونظره وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه ، ومن حينئذ تلاشى العاضد وانحل أمره ، ولم يبق له سوى إقامة ذكره فى الخطبة فقط ، هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه فصار لا يخرج من القصر البتة ، وتتبع صلاح الدين جند العاضد ، وأخذ دور الأمراء واقطاعاتهم ، ووهبها لأصحابه ، وعزل قضاة مصر الشيعة ، وقلد القضاء قضاة شافعية ، فتظاهر الناس من تلك السنة (٥٦٢) بمذهب مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة ، وتحدثوا بخلع العاضد وإقامة الدعوة للعباسيين بالقاهرة ومصر ، ثم قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة ، وأنزل أصحابه فى دورهم فأصبح فى البلد من العويل والبكاء مايذهل ، وتحكم أصحابه بالبلد ، وقبض على بلاد العاضد وأقطاعه ، ومنع عنه سائر مواده ، وقبض على القصور ، وسلمها الى الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فضيق على أهل القصر ، وصار العاضد معتقلا تحت يده ، وأبطل من الآذان حى على خير العمل ، وأزال شعار الدولة ، وخرج بالعزم على قطع خطبة العاضد والدعاء للمستنجد العباسى ، وكان الخليفة المستنجد بالله قد أرسل من بغداد الى نور الدين محمود بن زنكى بدمشق يعاتبه من تأخير إقامة الدعوة له بمصر ، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وأخرجه الى ولده صلاح الدين يوسف بمصر يطلب منه قطع الخطبة عن العاضد وإقامتها للعباسيين وأصحبه بالهدايا السنية ، فخرج العاضد لتلقيه الى ظاهر باب الفتوح ولم يجر بذلك عادة من قبل وخلع عليه العاضد ولقبه الملك الأفضل وأفرد له داراً الى جانب داره ، وحمل اليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا وأقطعه البلاد ، فلما بلغ الى صلاح الدين أمر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية اعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين ، فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه لزاماً لا فسحة له فيه ، واتفق أن العاضد قد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة ومنهم من خاف ذلك ، وكان قد دخل الى مصر إنسان أعجمى يعرف بالأمير العالم فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال أنا أبتدىء ، فصعد المنبر فى أول جمعة من المحرم ودعا للمستضىء بأمر الله لأن المستنجد بالله أبا المظفر يوسف بن المقتفى كان قد مات ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا إن سلم فهو يعلم ، وإن توفى فلاينبغى أن ننغص عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله فتوفى يوم عاشوراء بعد قطع الخطبة بثلاثة أيام . ولم يعلم مات وعمره إحدى وعشرون سنة إلا عشرة

أيام ، منها فى الخلافة إحدى عشر سنة وستة أشهر وسبعة أيام سنة ٥٦٧ (صبح الأعشى)
ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه ، فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه ، وقيل إن ندم صلاح الدين كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض ، وقال لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها الى أن يموت ، وجلس صلاح الدين للعزاء وأغرب فى الحزن والبكاء وبالغ فى إجمال أمره والتوديع له الى قبره ، ثم تسلم القصر ، وكان منذ قتل مؤتمن الخلافة وكل بهاء الدين قراقوش بالقصر وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه ، فما دخل الى القصر شىء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع ، فبطلت تلك القواعد ووهت المعاقد وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده فى موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد ، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد ، وجعلهم فى دار المظفر بحارة بيرجوان ، وكانت تعرف بدار الضيافة ، فكانت عدة الأشراف فى القصور مائة وثلاثين ، والأطفال خمسة وسبعين ، ومنهم الأمير داود بن العاضد وكان ولى العهد وينعت بالحامد لله ومعه جميع أخوته : الأمير أبو الأمانة جبريل ، وأبو الفتوح ، وابنه أبو القاسم ، وسليمان ابن داود ، وعبد الوهاب بن العاضد ، واسماعيل بن العاضد ، وجعفر بن ابى الطاهر بن جبريل ، وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد ، وجماعة من بنى أعمامه ، وعبد الظاهر بن أبى الفتوح ابن جبريل بن الحافظ ، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم فى إيوان من القصر ، واحترز عليهم فى ذلك المكان ، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا فيكثروا ، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم ، فظلوا محصورين محسورين لم يظهروا ، وقد نقص عددهم وقلص مددهم ، ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدة والعديد والطريف والتليد ، فوجد أن أكثرهن حرائر فأطلقهن ، وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن ، وأخلى دوره وأغلق قصوره ، وسلط جوده على الموجود ، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود ، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وامرأته ولخواص مماليكه وأوليائه من أخائر الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمة والمصوغات التبرية والمصنوعات العنبرية والأوانى الفضية والصوانى الصينية والمنسوجات المغربية والممزوجات الذهبية والمحبوكات النضارية والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمشدود والمنعوت والمنحوت والدر والياقوت والحلى والوشى والعبير والحبير والوثير والنثير والعين واللجين والبسط والفرش ومما لا يعد إحصاء ولا يحد استقصاء ، وفيه ما تخلو الدنيا من مثله من الجواهر التى لم توجد عند غيرهم ، فمنها الجبل الياقوتى وكان وزنه ١٧ مثقالا ، قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٦٧ : أنا لا أشك فى ذلك فانى رأيته ووزنته ، واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله والنصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد

كبير أى مقدار الابهام، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد ، وقد احتاطوا له بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب فيه فسخروا من العاضد فأخذه إنسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك فكان كل من ضرب به ضرط فألقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل لأجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك ، فأما قضيب الزمرد فقد كسره السلطان وفرقه على نسائه وحصل على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت ، وأما الأبريق فأنفذه إلى بغداد فوقع فى هذه كلها الفناء وكشف عنها الغطاء وأسرف فيها العطاء وأطلق البيع بعد ذلك فى كل حدث وعتيق ولبيس وسحيق وبال وأسمال ورخيص وغال وكل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول واستمر البيع فيها مدة عشر سنين وتنقلت إلى البلاد بأيدى المسافرين الواردين والصادرين، ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجايب الدنيا ، لأنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر ، وكان لبيعها فى كل أسبوع يومان ، وهى تباع بأرخص الأثمان وخزائنها فى القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف ، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولى القصر والحال والعاقد للأمر : هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى ثمينها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها الى أرضها ـ وهو تركى لاخبرة له بالكتب ولا دربة له باسفار الأدب ـ وكان مقصود دلالى الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها فتولى بيعها ابن صورة فأخرجت وهى أكثر من مائتى ألف كتاب من أما كنها وشتت شملها واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها وطبيها بهندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبار ، يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءا مجلداً فاختلطت ، فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبا مبعثرة فتسام بالدون وتباع بالهون وقد شارك الدلال فى ابتياعها حتى اذا لفق كتابا قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة وحصل منها القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى على مائة الف كتاب مجلد جعلها فى المدرسة الفاضلية لما أنشأها وحصل العماد على قدر كبير منها فباع ابن صورة دلال الكتب هذه الخزانة فى عدة أيام وذكر ابن أبى واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد .

واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر وأعطى السلطان صلاح الدين القصر الكبير للامراء فسكنوا فيه وأسكن أبا نجم الدين أيوب بن شادى فى قصر اللؤلؤة وهو قصر عظيم على الخليج الذى فيه البستان الكافورى ونقل الملك العادل الى مكان آخر منه وأخذ أصحابه الامراء دور من كان ينسب الى الدولة الفاطمية ، فكان الرجل اذا استحسن دارا أخرج منها سكانها ونزل بها وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمين

وملئت المناظر المصونة عن الناظر والمتنزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر، وانقضت تلك الدولة برمتها وذهبت تلك الأيام بجملتها، وكانت مدة دولة الخلفاء العبيديين أو الفاطميين بالمغرب ومصر ـ منذ قام عبيد الله المهدى الى أن مات العاضد ـ مائتى سنة واثنتين وسبعين سنة وأياما، بالقاهرة منها مأتان وثمان سنين، والدنيا دول، فسبحان من له الدوام، وكل يوم هو فى شأن، يعطى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، إنه على ما يشاء قدير.

وقد اعتمدت فى وضع هذه الرسالة على المراجع الآتية : —

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسى .

(٢) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى .

(٣) كتاب صبح الأعشى للقلقشندى .

(٤) الكامل لضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى .

(٤) النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى.

(٥) كتاب سيرة صلاح الدين الايوبى للقاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد.

(٦) تاريخ الملك المؤيد اسماعيل أبى الفداء صاحب حماه .

(٧) كتاب أخبار الدول وآثار الأول لابى العباس أحمد بن يوسف الدمشقى الشهير بالقرمانى .

(٨) تاريخ زين الدين عمر بن الوردى .

(٩) الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى للشيخ أحمد بن خالد السلاوى .

(١٠) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر لعبد الرحمن بن خلدون .

(١١) الخطط... الخ لأبى السرور البكرى.

(١٢) أخبار مصر لمحمد بن على بن يوسف بن حلب المعروف بابن ميسر (الجزء الثانى)

(١٣) كتاب فتوح مصر وأخبارها تأليف أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى .

(١٤) كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزى .

(١٦) كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان .

(١٨) كتاب الملل والنحل للامام الشهرستانى . ؟

أحمد عيسى

واماه !!

للشاعر الكبير الاستاذ محمد الهراوى

هـذه قصيدة رائعة قالها الأستاذ الهراوى فى رثاء والدته منذ مدة ، وقدبعث بها إلى « المعرفة» تعزيةلصاحبها فى وفاة والدته،ونحن ننشرها شاكرين ، سائلين الله الصبر والسلوان

تكشفت للأحداث بعدك ياأمى   فياطول ماألقى من الحزن والهم

لى الله ياأماه ما أنا بالذى   تعود أن يقوى على الحادث الجهم

تلمست حزمى فى المصاب فعزنى   لقدغاب عنى فى الثرى مصدر الحزم

فقدت التى كانت إذا شط بى النوى   تسائل عنى فى الدجى سارى النجم

وإن ترمنى الأقدار منها بحادث   تلقفه عنى على الروح والجسم

وإن تربت كفى تجود بروحها   مخافة ما لم أحتمله من العدم

وإن مسنى سقم ثوت عند مرقدى   لزاما فلم تبرحه إلا مع السقم

على أنها والسقم يبرى عظامها   تحاول أن تخفيه عنى بالكتم

ولو أنها اسطاعت لدى الموت خفية   لأخفته إشفاقا على من الغم

فيا رحمتا للفاقدى أمهاتهم   من الناس مثلى أو من الطير والبهم

فان الحنان الحق فى الأم وحدها   وغير حنان الأم ضرب من الوهم

هى الأم سر لست تعرف كنهه   وإن خلتها فى صورة الدم واللحم

يقولون فانظر رسمها بعد موتها   فقلت لهم فى الرمس أمى لا الرسم

فان فاتنى ذاك الحنان التمسته   على حسرة من ذلك القبر بالاثم

دفنت به من لا ينى إن دعوته   إلى معشر صم إذا ما دعوا بكم

فان قلت ياأماه أغنانى اسمها   عن الأب والأبناء والخال والعم

عصامية كانت على حين أنها   لها نسب فوق النقيصة والذم

وأمية كانت ولكن رأيها   لدى معضلات الأمر فوق ذوى العلم

فقدت أبى طفلا فلم أدر ما الأسى   وأفقدتها كهلا فأوهى الأسى عظمى

سلونى أحدثكم عن اليتم بعدها   فان اليتيم الكهل أعرف باليتم

فياليت أيام الحياة وقفن بى   لدى موضعى منها من اللثم والضم

وياليت لم يقطع بنا الدهر شوطه   فان خطاه للقطيعة والصرم

سرى لى ياأماه طيفك فى الكرى   فناب خيال الأم عن زورة الأم

وأنى لى السلوى وقدحال دونها   مثالك فى عينى وطيفك فى حلمى

سأخضع يا أمى لقلبى ومدمعى   على رغم ماأسديت من نصحك الجم

وأبكيك بالقلب الذى تعرفينه   وللدمع شأن غير قلبى فى الحكم

الحاج محمد الهراوى

الضمير

سنكا وابن المقفع وما كتباه في الضمير ومحاسبة النفس

بقلم الاستاذ محمد مهدى علام

أستاذ التربية والفلسفة بدار العلوم وقسم التخصص

تمهيد :

أتينا فيما سبق على معنى الضمير ، ونشأته ، ومراحله ، وسلطانه ، وعلى الندم والتوبة ، وعلى عوائق الضمير [1] . ونريد أن نبين هنا ما كتبه كل من سنكا خطيب الرومان ، وابن المقفع فيلسوف العرب ، عن الضمير . وإنما اخترنا الجمع بين هذين الحكيمين لعلاقة قوية بين رأييهما ، حتى ليخيل إلينا أن ابن المقفع قد تأثر بمقالة سنكا ، فيما تأثر به من فلسفة الرومان القديمة .

سنكا ، Seneca . (٣ ق . م – ٦٥ م)

هو فيلسوف أسبانى المولد ، رومانى المربى ، أظهر ذكاءً خارقا منذ صغره ، وتربى على أيدى طائفة من أمهر الأساتذة ، ورحل إلى بلاد اليونان ومصر ، واشتغل بالقانون . ثم عهد إليه بتربية العاهل العاتية نيرون ، ولقد أظهر سنكا من الضعف فى تثقيف هذا الطاغية الناشىء ما كان له أسوأ الأثر فى حياة كل من التلميذ والأستاذ ، بل فى حياة الأمة الرومانية نفسها. ولقد اتخذه نيرون مستشاراً له بعد جلوسه على العرش ، فكان له أطوع من بنانه فى كتابة الفتاوى التى تبرر أعماله الشاذة من قتل وسفك وغدر . ولم يلبث نيرون أن قلب لمستشاره ظهر المجن ، فنحاه عن منصبه أولا ، ثم بعث إليه بمن قتله أبشع قتلة .

مقالته فى الضمير [2] :

الضمير الحى شهادة بالحياة الفاضلة ، وهو جزاؤها ، وهو الذى يحصن العقل من الخطر حينما يسيطر المرء على عواطفه ، ويتعود الرضا بحالته ، ويعلم أن الموت ليس شراً فى ذاته ، وإنما هو نهاية الحياة .

إن لكل إنسان فى قرارة نفسه قاضياً وشهوداً على كل ما يعمل من خير أو شر ؛ وهؤلاء يوحون إلينا أفكاراً عالية ، ويبذلون لنا نصائح غالية . إن الرجل الذى لا يكترث بالمخاوف ،

(١) راجع الجزأين الأول والثانى من السنة الثانية لمجلة (المعرفة) شهرى مايو ويونيو سنة ١٩٣٢

(٢) نقلا عن كتاب (The morals of Seneca)

ولا ينغمس فى الشهوات ، ولا تكرثه الكوارث ، ولا تهيجه العواصف ، بل هو يبتسم لكل شيء من الأشياء التى يتشوف الناس إليها أو يتهيبونها — مثل هـذا الرجل لا يسعنا جميعاً إلا أن نعترف بأن فى نفسه شعاعا إلهيا يضيء نواحيها . إن العقل العظيم ، الخير، الحق، ليس إلا نوعا من الأسرار الالهية التى أودعها الله صورة اللحم والدم . . . .

. . . .

إن كل ما نفعله من خير أو شر داخل فى مملكة العقل ، وإن الضمير النقى يمنحنا حالة هادئة لا يعكر صفوها . إن ضمير كل إنسان هو قاضيه ، فهو الذى يقضى له أو عليه ، على شرط أن نفرق بين الضمير والهوى . إن دهماء الناس يرون العظمة والشرف فى معدهم وقحتهم ، فاذا رأوا رجلا متواضعاً دمث الأخلاق قالوا إنه مخنث لا رأى له ، ولكنهم إذا لاحظوا عظمة عقله الممثلة فى أعماله المتناسقة التى لا تضارب فيها ، وأدركوا أن سلمه الظاهرى مؤسس على طمأنينة داخلية ، لم يسعهم إلا احترامه والاعجاب به ، فانه ليس فى الوجود شخص لا يرضى عن الفضيلة ، وإن كان قليل من الناس من يتبعونها . نحن نرى الفضيلة ولكننا لا نجرؤ على التقدم إليها ، والسبب فى ذلك أننا نغالى فى تقدير ما يلزمنا أن نضحى به للوصول إلى الفضيلة .

إن الضمير الحى لا يخشى شهوداً ، أما الضمير المثقل فملىء بالتوسل حتى فى ساعة العزلة . إذا نحن لم نعمل إلا ما هو شريف فلتعلم الدنيا جميعها أننا نعمله ، وإذا ارتكبنا ما هو قبيح فماذا يغنينا أنه لم يعلم به أحد ، ما دمنا نحن نعلم أننا قد اقترفناه ؟ ما أشقى ذلك الرجل الذى يغض من شأن هذا الشاهد ! إن من المعترف به أن الرذيلة قد تنجو من العقوبة (عقوبة القانون)، ولكن لا خلاص لها من يد الضمير (١) فان حكم الادانة المستتر هو أول عقوبة للمجرم ، وأقسى عقوبة ، حتى إن الخطيئة لتردى نفسها ، وإن خوف الانتقام ليقض المضاجع ، حتى مضاجع أولئك الذين نجوا من وخز الضمير .

ولقد كان يكون محزناً أن يجد الظلم لنفسه نجاة من القانون ، والقاضى ، والقصاص ، لو لم تكن الفطرة قد زودت ضمير المجرمين بأنواع من العذاب والآلام ، فالمجرم يعيش فى ذعر دائم ، وهو فى ترقبه أن ينزل به العقاب ، يلاقى أشد عقاب ، وكل من استحق عقابا ترقبه .

وماذا يحدث لو لم تنكشف جريمته ؟ إنه يعانى آلام احتمال كشفها ؛ فعيناه لا تذوقان النوم إلا غراراً ، لأن الألم يقض مضجعه ، حتى النوم لا يستر جريمته عن نفسه ، ثم هو لا يستطيع أن يتحدث عن جرائم الناس من غير أن يذكر جريمته ، فى حين أن الضمير النقى ينعم أبداً فى وليمة دائمة . وليس فى مباهج الحياة الدنيا إلا ما هو ناشيء عن ضمير تسيطر على حياة طيبة

---

(١) من شاء التوسع فى بحث هذه النقطة فليرجع إلى كتابنا «فلسفة العقوبة» ص٢٨، ٢٩

أعمالها ؛ وليس يعنينا من الصخب والجلبة ما قد يحيط بنا مادمنا نحس بهدوء واطمئنان فى قرارة أنفسنا ، أما إذا كانت عواطفنا طاغية معتدية ففى ذلك ما يكفى لتأريقنا ، حتى لو كانت الدنيا حولنا هادئة ساكنة ، ألا إنه ليس الجسم المستريح ، ولا الفراش الوثير ، هو الذى يمنح الراحة عقلا قلقاً . . . .

فالسعادة الحقة ليست فى إدمان الخمر ، ولا فى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فالحظ يستطيع أن يمنحنى باليمين ما يسلب بالشمال ، وما دام ما بيدى لا ينمو ويزيد لى ، فما أسهل أن أفارقه من غير ألم . (١)

إن من يريد أن يفهم نفسه فهما حقاً ، يجب أن يدع جانباً أمواله ، وحظوظه ، وكبرياءه ، وليفحص نفسه عارية عن كل ذلك، غير معتمد فى فهم نفسه على ما يخبره به الناس.

ليحاسب كل انسان نفسه :

إن من المخاطرة أن يسارع المرء إلى اعتقاد أنه فاضل ، فلنختبر قلوبنا ، ولننظر إليها نظر فحص وتمحيص ، ولنلاحظها ، ولنفتشها ، فان المرء أعظم الناس مدحاً وإطراء لنفسه . إن علينا أن نطلب من أنفسنا حسابا فى كل ليلة : أى [illegible] اليوم ؟ أى عاطفة عارضت اليوم ؟ أى إغراء وفتنة قاومت اليوم ؟ أى فضيلة كسبت اليوم ؟

إن رذائلنا لتتضاءل إذا هى وقفت فى كل يوم على منصة الاعتراف . ما أهدأ النوم الذى يتلو مثل هذه المعركة ! يالها من سكينة ، وحرية ، وعظمة لذلك العقل الذى يتجسس على نفسه ، ويقيم من نفسه رقيباً على أعماله وتصرفاته ! إن من عادتى فى كل ليلة ألا تنطفىء الشمعة حتى أستعيد كل ما صدر منى فى خلال اليوم المنصرم من كلمات وأفعال ، من غير أن أسمح لأمر ما بالافلات من هذا الحساب . ولماذا أخشى شبح أخطائى ما دمت أستطيع أن أؤنب نفسى وأصفح عنها ؟ (٢) إننى أقول لنفسى : لقد كنت مغالياً بعض المغالاة فى ذلك الجدل ، ولقد كان من الممكن أن أوفر على نفسى الادلاء برأيى هذا ، فقد أساء إذ أعلن ، ولم يعقب خيراً مطلقاً . نعم لقد كان الأمر حقاً ، ولكن ما كل حق يقال دائماً . إنى أتمنى لو أننى كنت قد أمسكت على لسانى ، فانه ليس من الصواب أن تجادل المغفلين أو الرؤساء ، لقد

---

(١) وازن بين هذا وقول ابن المقفع « وعلى العاقل ألا يحزن على شىء فاته من الدنيا أو تولى ، وأن ينزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب ، ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها ، ولا يبلغن ذلك سكراً ولا طغياناً . فان مع السكر النسيان ، ومع الطغيان التهاون. ومن نسى وتهاون خسر » (الأدب الصغير ص ١٩ طبعة مدرسة محمد على الصناعية)

(٢) إن الناظر إلى حياة سنكا يظهر له أنه كان يصفح عن نفسه أكثر مما كان ينبغى

أخطأت ، ولـكنى لن أعود إلى ذلك الخطأ.

ولو أن كل رجل نظر فى نفسه هذه النظرة لـكان هذا خيراً لنا جميعاً . (١) وهل هناك ما هو أكثر انطباقاً على العقل من هذه المراجعة اليومية لحياة لا نملك امتدادها لحظة واحدة ؟ إن قدرنا مقدور ، وإن أول نفس تتنسمه فى الحياة لأول حركة فى طريقنا إلى نهايتها . (٢) إن حياتنا لتختلف صورها اختلافاً عظيما ، ولـكنها كلها تنتهى بخاتمة واحدة . لقد خلقنا لنفقد ولنبلى ، لنأمل ولنخاف ، لنضايق أنفسنا ولنضايق غيرنا ، وليس ثمة بلسم يشفى من هذه الفاجعة العامة إلا الفضيلة ، إذ ان أساس النعيم الحق إنما هو فى الضمير (٣)»

محمد مهدى علام

---

(١) وازن بين الفقرات الأخيرة هنا وبين قول ابن المقفع « وعلى العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها ، والقضاء عليها ، والاثابة ، والتنكيل بها . أما المحاسبة فيحاسبها بما لها ، فانه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التى ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها فى الباطل لم يرجع إلى الحق . فينتبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال ، والشهر إذا انقضى ، واليوم إذا ولى . فينظر فيما أفنى من ذلك ، وما كسب لنفسه ، وما اكتسب عليها ، فى أمر الدين وأمر الدنيا ، فيجمع ذلك فى كتاب فيه إحصاء ، وجد ، وتذكير للأمور ، وتبكيت للنفس ، وتذليل لها ، حتى تعترف وتذعن . وأما الخصومة فان من طباع النفس الآمرة بالسوء أن تدعى المعاذير فيما بقى ، والأمانى فيما بقى ، فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها . وأما القضاء فانه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحة مردية ، موبقة ، وللحسنة بأنها زائنة ، منجية ، مربحة. وأما الاثابة والتنكيل فانه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ورجاء عواقبها وتأميل فضلها ، ويعاقب نفسه بالتذكر للسيئات ، والتبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها . فأفضل ذوى الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذاً ، وأقلهم عنها فيه فترة» . (الأدب الصغير ص ١٦)

(٢) هذا معنى دقيق ، وقد تناوله السيد توفيق البكرى فأبدع فيه بما لم يترك حاجة لمستزيد إذ يقول :

وما أذن القوم لما أقاموا صلاة الجنازة يوم الوفاة
وأذن للطفل يوم الولاد فهذا الأذان لتلك الصلاة

(٣) وازن بين هذا وقول ابن المقفع : «وعلى العاقل أن يذكر الموت فى كل يوم وليلة مراراً ، ذكراً يباشر به القلوب ، ويقدع الطماح ، فان فى كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر ، وأمانا باذن الله من الهلع . وعلى العاقل أن يحصى على نفسه مساويها فى الدين ، وفى الأخلاق ، وفى الآداب ، فيجمع ذلك كله فى صدره أو فى كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفســه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف ذلك عليها توظيفا ، من إصلاح ، خلة ، والخلتين ، والخلال ، فى يوم أو الجمعة ، أو الشهر . فـكلما أصلح شيئا محاه ، وكلما نظر الى محو استبشر ، وكلما نظر الى ثابت اكتأب» . (الأدب الصغير ص ١٧)

نثر ابن شهيد

بقلم الدكتور زكى مبارك

١ — اتفق من ترجموا لابن شهيد على وصفه بالبراعة فى الانشاء ، فقال ابن حيان : « كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجرى فى البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى إبانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته لا ما شاء من نظمه ونثره فى بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ، فانه لم يوجد له رحمه الله — فيما بلغنى بعد موته — كتاب يستعين به على صنعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك فى عجائبه ، وإعجاز بدائعه وكان فى تنميق الهزل والنادرة الحادة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وبقاها فى الناس خالدة . وكان فى سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشى كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه » (١) .

وقال الثعالبى : » فنثره فى غاية الملاحظة ، وشعره فى غاية الفصاحة » (٢)

وقال ابن بسام : « وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ، ونوادره القصار والطوال وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويحن معه الكبير إلى صباه » (٣)

وقال الحناط وهو يهاجمه : « الأسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثراً ، ويطيل نظما ، شامخاً بأنفه ، ثانياً من عطفه ، مخيلا أنه أحرز السبق فى الآداب ، وأوتى فصل الخطاب ، فهو يستصغر أساتيذ الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء

وابن اللبون إذا ما لز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس » (٤)

وهذا الآراء التى نقلناها عن ابن حيان والثعالبى والحناط ، تمثل رأى جمهور الناقدين فى ابن شهيد ، وتدلنا على أنه شغل الناس حيناً من الزمان . ولو انتقلنا إلى رأيه فى نفسه لرأيناه مفتوناً أشنع الفتون بما اعتقده من إجادة النظم والنثر ، والتفوق البالغ على كتاب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٩٤ (٢) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٤ (٣) الذخيرة ج ١ ص ٩٤
(٤) الذخيرة ص ٢٣٢

المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه فى شعر ابن هانىء الأندلسى فأجاب « رحى تطحن قروناً »، وهو جواب يدل على فهم وذكاء، فضلا عما فيه من روعة التصوير. وأخشى أن يكون الأمر كذلك فى نثر ابن شهيد ، فهو فى الأكثر جعجعة وقعقعة وقلقلة فى غير نفع ولا غناء. ويسوءنا والله أن يكون ذلك ما نراه فى نثر ذلك الرجل الذى نعتقد فيه دقة الفهم ، ورقة الطبع ، وسلامة الذوق ؛ ولكن ما الحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا ما بقى منه أكثر من عشرين مرة ، فلم نزدد إلا اقتناعاً بأنه كان فى إنشائه من المتكلفين.

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذى نشهده فى نثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارعة كتاب المشرق ، ومواجهة كتاب المغرب، بألوان من الفن كان لها فى زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر فى ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية ، واستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة، تؤدى فى عالم النثر ما كانت تؤدى النقائض فى عالم الشعر ، فوقع له مع الافليلي والحناط وغيرهما منافرات كان لها فى مجالس المغرب دوى شديد. هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر ، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحيى فى بلاده معارك نثرية كالمعارك التى كانت تقع فى المشرق بين أمثال الخوارزمى وبديع الزمان . وفى هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعانى فى مختلف الأغراض، ولكنه انحدار بالنثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فان الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدى إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما فى نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القارىء بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التى يوقن المتطلع بأن فيها كنوزاً ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل إلى بعض ما ينشد من الذهب الدفين . ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نحاة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليلي فلم يقل شيئاً ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة فى وصف الافليلي :

« ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر » (١) .

٥ — غير ان ابن شهيد لا يظل فى جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فان له أحياناً يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

« من عز بز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار . جد كبا ، وحسام نبا ، وآمال تفرقت أيدى سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها اليك ، كنا قبل أن ترمى

(١) الذخيرة ج ١ ص ١٢٣

بنا النوى مراميها ، وتلقى علينا الخطوب مراسيها ، وتمخضنا الأيام مخضاً ، وتركض بنا الليالى ركضاً ، تربى صحبه ، وحليفى صبوه ، قد تخلينا عن الأنساب ، وانتسبنا إلى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والملتقى كثب ، والزمان غر ، وحواصلنا صفر ، نترنم ترنم الحمام ، على زرق الجمام (١) ، ثم ألقت الأيام علينا بكلكل ..... فنشرنا بكل فج عميق ، وأفق سحيق ، ونفحت عليك رياح السدر ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدة العواء (٢) ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الاخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكاتبة ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبتنا فيما لديك ، وهيهات ! يأبى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل بالرؤساء ، ويجاذب العظماء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم ، فانطويت على ود ، وثبت على صحة عهد ... الخ » (٣)

وهذا نثر مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شىء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

« لما قدم زهير الصقلبى فتى بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المروانى وابن الحناط والطبنى ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوافانى رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت اليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعاً إلى ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساحباً لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن فى أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابى يصيخون إلى ترنمه ، فسألتهم عن ذلك فقال الحناط ــ وكان كثير الانحاء على ، جالباً فى المحافل ما يسوء إلى ــ : الوزير حضره قسيم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أنى المراد ، فأنشده وهو :

مرض الجفون ولثغة فى المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديهاً :

مرض الجفون ولثغة فى المنطق	شيئان جرا عشق من لم يعشق
من لى بألثغ لا يزال حديثه	يذكى على الأكباد جمرة محرق

(١) الجمام : المياه الكثيرة ، والمفرد جم ؛ وهو فى الأصل الكثير من كل شىء.
(٢) العواء : من منازل القمر
(٣) الذخيرة ج ١ ص ١١٥

ينبي فينبو فى الكلام لسانه فكأنه من خمر عينيه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له فى مهرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا على، وأخبرونى أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديه، وسألونى أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأفحش، فلم أستحسن الافحاش، فقلت فيه معرضا اذ التعريض من محاسن القول. (١)

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدثنا فى «التوابع والزوابع» أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والحطب، ورسالته فى الحلواء، وكلماته فى وصف جارية، ونعت الماء والثعلب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل فى جملتها تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفذاذ من شعراء الحجاز والشام والعراق!

وأجود ماوقع له فى تلك الرسائل «المستجادة» قوله فى وصف ماء صاف:

كأنه عصير صباح أو ذوب قمر لياح

وقوله فى وصف البعوض:

«تنقض العرائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته» (٢)

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيه نهم لقيه فى المسجد الجامع: فلما طالعوا الحلواء «اضطرب به الألم، واستخفه الشره، فدار فى ثيابه، وأسال من لعابه، وازور جانبه، وخفق شاربه» ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا، فالفالوذج «مجاجة الزنابير خالطها لباب الحبة، فجاءت أطيب من ريق الأحبة» والخبيص «جليد سماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة، تجرحه اللحظة، وتدميه اللفظة»، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام: «فأمرت الغلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التى أنطقته، وتحتوى على ضروبها التى صرعته، فجاء بها فوضعها بين يديه، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه، وألقى عليها بجرانه، وجعل يركل برجليه، ويجاحش بفخذيه، مانعا عنها ومدافعا، فصحت به لا عليك حكمها، فجعل يقطع ويبلع، ويوجر فاه ويدفع، وعيناه

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضاً هو أيضا إفحاش لم نر روايته لأننا لا نستجيز رواية الهجاء المهتوك الذى يجرح الأدب والذوق. وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٢

تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان. وأنا أقول على رسلك يافلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جماهرها ، وألحق أولها بآخرها ، فهبت منه ريح عقيم ، قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، تترتنا شذر مذر ، وفرقتنا فى كل شعب شفر بفر ، فالتحمنا منه الظربان ، وصدق فيه الخبر العيان » (١)

وعندى أن ابن شهيد فى رسالة الحلواء عارض بديع الزمان فى المقامة البغدادية ، والنكتة فى الرسالتين متشابهة ، فهى عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكول ، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم ؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ؛ ولننظر كيف يقول وقد استدرج سوادياً بالكرخ : (٢)

« فقلت : فهلم إلى البيت نصيب غداء ، أو إلى السوق نشترى شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب . فاستفزته حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شواءاً يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسايل جوذابه مرقا(٣) ، فقلت : أبرز لأبى زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر من تلك الاطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ، وشيئاً من ماء السماق (٤) ، ليأكله أبو زيد هنيئا ؛ فأنحى الشواء بساطوره ، على زبدة تنوره ، فجعلها كالكحل سحقا ، وكالطحين دقا ، ثم جلس وجلست ، ولا نبس ولا نبست ، حتى استوفيناه ؛ وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فانه أجرى فى الحلوق ، وأسرى فى العروق ، وليكن ليلى العمر ، يومى النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤى الدهن ، كوكبى اللون ، يذوب كالصمغ ، قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئا . ثم قعد وقعدت ، وجرد وجردت ، واستوفيناه . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ، ليقمع هذه الصارة (٥) ، ويفثأ (٦) هذه اللقم الحارة ! اجلس ، أبا زيد ، حتى آتيك بسقاء ، يحيينا بشربة من ماء . ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولا يرانى ، أنظر ما يصنع به ، فلما أبطأت عليه قام السوادى الى حماره ، فاعتلق الشواء

(١) وردت رسالة الحلواء فى الذخيرة ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ وفى . اليتيمة ج ١ ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ . وفى النسختين اختلاف شديد ، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التى اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف النسختين .

(٢) الكرخ محلة كانت فى الجانب الغربى من بغداد .

(٣) الجوذاب : خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أو لحم .

(٤) السماق : حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان .

(٥) الصارة : العطش

(٦) يفثأ : يسكن

بأزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال : ما أكلتــه إلا ضيفا ، فقال الشواء : هاك وآك ، متى دعوناك ؟ زن يا أخا القحبة عشرين ، وإلا أكلت ثلاثاً وتسـعين ! فجعل السوادى يبكى ويمسح دموعه بأردانه ، ويحل عقده بأسنانه ، ويقول : كم قلت لذلك القريد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! » .

وإنما افترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه ، لأنه كان مشغوفاً بأدبه ومعنياً بمعارضته ، فقد حدثنـا فى « التوابع والزوابع » أنه قابل بأرض الجن (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان ، وجرت بينهما مصاولة انتصر فيها ابن شهيد . وهذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس ، وفعلت فعلها فى أنفس الأدباء هنـاك ، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد ، وقدمه كذلك الى شعراء الجن فاستجادوه ، فهو رسالة قصيرة فيها فقرات تنم عن قلب غزل ونفس طروب ، وفيهـا كذلك كلمات تليح بمغامز الفتك والمجون . وكانت جاريته « أخت نعمة ، وربيبة نعمة ، كأن شعرها على غرتها الغراء ، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلمك بألحاظها ، وتأسوك بألفاظها ، تقابلك من خدها بوردة ، ومن عينها بنرجسة ، كأنما ثغرها من جوهر ، وشفتها خيط حرير أحمر ، تقبل عليك بقضيب بان ، ثمرته رمانتان ، وتنفتل عليك بكفل مائج ، كأنه كثيب عالج ... المنظر منظر غلام ، والمخبر مخبر فتاة ، إن علوتها تدفعت اليك ، أو علتك تداركت عليك ، وأن أعطشك فراشها سقتك من شراب ، إن شئت قلت خمرة أو رضاب ، أو أجاعك عراكها أطعمتك من لسان ، يصل اليك وصول الايمان » (١)

٨ — ورسالة عن النار والحطب تمثل فزع أهل الاندلس من البرد ، ولـكنها كأكثر ما كتب ، مثقلة بالصنعة ، خالية من الروح ، وهى رسالة مهداة إلى صديق نفحه بأحمال من الحطب الجزل ، والحطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء . ولننظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود .

« حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... فجعلت مجنى حطبا دل على نفسه ، وتشظى من يبسه ، فسلطت عليه صاحب الشرر ، ورميته منها ببنات الحديد والحجر ، فواقعه قليـلا ، وعاركه طويلا ، فكان لها عجيج ، وله من حرها ضجيج ، ثم خر لها صريعا ، واستولت عليه صعبا منيعا ، فبددت شمله وألفت شملها ، واستحالت حية لا نستلذ قتلها ، ترمى بألوان ، وتتهـدد بلسان ، فلذعت البرد لذعة ، ونكزته على فؤاده نكزة ، خرلها على جبينـه ، ومات بها من حينه » (٢)

---

(١) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٤

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٠

٩ — وبعد، فان نثر ابن شهيد — على ما فيه من مآخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصريه أشد الاختلاف. والنثر الفنى كالشعر له دقائق قلما يتفق فى تذوقها الناقدون. وكان للرجل فى حياته نجاح مرموق، فقد وصل نثره وشعره إلى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لايزال من الأحياء، وفى هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه واستولى بقوة على عرش البيان.

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل الينا منه إلا شىء قليل، ولم يدون منه إلا الجانب البراق، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول. ولو وصلت الينا جملة صالحة من نثره الذى جرى فيه على سليقته وفطرته، وانحاز فيه إلى فيض عقله وروحه، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى، وخاصة إذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان، تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة وأسدهم رأيا، وأصدقهم فراسة، إذا مضى يشرح مزالق الأفكار ومزلات العقول.

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يمتح من قليب فكره، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان.

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد، فان جهد المقل غير قليل، ولنذكر أننا ننقد وننقض، فى سلامة وعافية لم يحلم بها أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود، فعلى ذكراهم تحية وسلام!

زكى مبارك

اليتيم

للشاعر العراقى الاستاذ أحمد الصافى النجفى

مترجم رباعيات الخيام

أودى الردى بأبيه قبل فطامه ... فحسا المذلة فى حليب المرضع
مستسلم والرعب يملأ قلبه ... إذ لم يجد عند الأذى من مفزع
فتراه يلعب فى الزقاق وطالما ... من صحبه يمنى بضرب موجع
فيجىء يشكو ضاربيه لأمه ... فتجيب شكواه بجارى الأدمع
فيقول أين أبى ؟ فتدعو غائب ... فيقول غاب ! فما له لم يرجع ؟
فتظل واجمة وليس تجيبه ... إلا بزفرة قلبها المتوجع

***

ولربما وجد الحنان من امرىء ... فدعاه أنت أبى وكنت مضيعى
أبتاه خذنى واشر لى دراجة ... أعدو بها عدو النشيط المسرع
واثأر من الأطفال لى واضربهم ... وليتقونى إن رأوك أبى معى
ويظل يلثم ركبتيه توسلا ... متمسكا فى ذيله بتضرع
فيجيبه هذا بثغر باسم ... وعيونه تهمى كسحب همع
ويقول سوف أجىء بيتك فى غد ... ويمد نحو الطفل كف مودع

***

لهفى لطفل لا يزال يعيش فى ... أمل بكف الحادثات مضعضع
ولقد يقول له الصغار بأنه ... قد مات عنه أبوه قبل وما يعى
فيجىء يركض كى يسائل أمه ... والنار فيه تشب بين الأضلع
فتكذب الأم الحنون مقالهم ... وتقول لاتجزع ولا تتفجع

***

ولكم يرى الأطفال مع آبائهم ... متمتعين بهم وأى تمتع
يشرون ماتهواه أنفسهم لهم ... والطفل إن يأمر أباه يسمع
فيغار منهم ثم يركض خلفهم ... لكنه إن يدن منهم يردع
فيظل يرمقهم بطرف دامع ... ويعود منهم فى حشى متقطع

ويعود للصبر الجميل لأنه ألف الشقا وبسعدهم لم يطمع

***

متذلل لم يدر علة ذله أو سر وطأة سره المتجمع
تعيي الرجال عن الخطوب وحملها كيف احتمال الخطب للمترعرع
ترنو الأنام له بعين تعطف لا فى عيون تودد وتولع
حتى الكرام ترى اليتيم لديهم يبدو بلا سبب بقدر أوضع
ولقد تراه إلى يتيم جالسا متفاهمين بروح ذل مخضع
متباعدين عن الصغار كأنما حسباهم نسلا لجنس أرفع

***

أما إذا افترقا فكل منهما يدنو لهم خوف انفراد مفزع
لكن تراه كالغريب أمامهم يرنو لهم كالسائح المتطلع
وإذا أراد الاشتراك بلعبهم لم يلق منهم غير سب مقذع
ولكم يرى لعبا لدى مستودع فيردد الزفرات للمستودع
لعب تمنى لو يطيق شراءها ليعيد بهجة قلبه المتصدع
فيطوف فى الأسواق ثم يعود فى قلب على اللعب الصغار موزع

***

ولربما ركب العصا دراجة ليسد رغبته بوهم مقنع
ولقد تخيط الأم أثوابا له فصلن من ثوبى أبيه الأروع
أو قصرتها من طويل قبائه أو ضيقتها من رداه أوسع

***

يزهو الصغار بزاهيات ثيابهم ويلوح ذا من برده بمرقع
ويروم أن يخفى حياه مكابرا فيدير فيهم نظرة المترفع
يروى لهم ماحدثته أمه عن برد والده الذكى الألمعى
ويقول كان الثوب هذا خلعة لأبى حباه بها مليك لوذعى
والصحب تهزأ فيه غير كئيبة منه لقلب فى الحياة ملوع

***

ليت الصغار جميعهم لم يعرفوا آباءهم وربوا معا فى موضع
كى لا يصيب اليتم بعضا منهم فيعيش عيشة بائس متسكع

(دمشق) احمد الصافى النجفى

اجتماعيات مصرية

الابن الضال

بقلم الاديب عبد الحميد يونس

الرسالة الأولى

.... كانني الصديق كامل بتحيتك، وهو يعتب عليك لأنك لا تراسله ، وهو كما كان في الماضي مشرق الوجه، يعرف كيف يوفق بين العمل واللعب . أما عبد العزيز فلم يترك المعابثة والمجون ، وقد جاءنا أول أمس وأخبرنا أنه لاحظ كاملا « يفتح الدرج » ، ويخرج منه صورة يتأملها في شغف وإعجاب ، ثم يردها إلى مكانها ، وأقول لك الحق لقد أثار الشيطان فضولنا، ولهذا طلبنا إليه أن يبرهن على دعواه بالدليل المحسوس .. !

وبالأمس في « حصة » الرياضة ، شعر الجميع بالملال من درس في « النسبة والتناسب » ، وكأنما أقسم الناقوس على مضايقتنا لأن الحصة طالت حتى يئسنا من الخلاص منها ... وأخيراً جداً انتهى الدرس فأسرعنا إلى فناء المدرسة لا نلوي على شيء ، وهناك رأينا عبد العزيز مقبلا نحونا في سرعة وحذر ، وما أن اقترب منا حتى قال « لا تخافوا ... كامل يتناول السندوتش ! »

وما كان أشد دهشتنا عند ماوجدناها صورة فتاة ، ولقد خيل إلينا أنها تنظر نظرة عميقة، فيها وداعة الأنوثة ، وثورة الشباب معاً ! ولا أكتمك أنني شخصياً حسدت كاملا على توفيقه في العمل وفي اللعب وفي الحب ..

وشعر كامل بالأمر عند إعادة الصورة إلى مكانها، وخشينا أن يغضب، ولكنه عاتبنا مبتسما ، وهذا بالطبع غاظ عبد العزيز الذي يحب الثورة والشجار.

ليس عندي الآن ما أقوله غير هذا لأن الحياة تسير سيرها العادي في تشابه أيامها وسخافة حوادثها ... إلى اللقاء .

الرسالة الثانية

.... لا أشعر أنني طالب حقاً إلا إذا اقترب الامتحان ، وها هو قاب قوسين أو أدنى ، ومصيبتي أنني لا أذاكر إلا ليالي الامتحان ، وقد كان هذا محتملا في الماضي، ولكنه الآن مستحيل لكثرة الدروس وتنوع المواد .

ولما شعر الصديق كامل بما أنا فيه من ضيق ، رأى أن يذاكر معى لاستوضحه ما غمض من هذه الرموز الجبرية التى لا نهاية لها، ومن تلك المعادلات الكيمائية التى لا أعرف الفائدة منها !

ولهذا توثقت عرى الصداقة بينى وبين كامل ، وكيف لا تزيد هذه الصداقة وقد ساعدنى بكل شىء ؟ وكيف لا أعجب به وأنت تعرف عن أخلاقه ما تعرف من تسامح ونبل ؟ وكيف لا أعبده وقد كشف لى عن قلبه وباح لى حتى بقصة حبه ؟

تسكن فتاته التى رأينا صورتها فى المنزل المقابل لمنزله ، وقد كان يعرفها منذ طفولتها ، ويعرف أن أمها ماتت عند ولادتها ، وأن أباها تزوج من سيدة تزعم أنها « عصبية »، سلطان الغريزة عليها أقوى من سلطان العقل، تسىء إلى الفتاة وتضربها وتعاملها معاملة لا تليق بالخدم، وهى لا تكتفى بهذا ، بل تشى بها عند أبيها فيعاقبها دون أن يسألها عن ذنبها !.

والعجب أن كاملا بكى عند هذه النقطة، وقال هذه الجملة التى أذكرها لك حرفياً لأنها أثرت فى أبلغ تأثير « ومن أقدر على فهم حالة يتيمة الأم من يتيم الأم ؟ أنا أيضاً ماتت والدتى منذ أمد بعيد »

والآن أدركت أنه يبتسم وقلبه يفيض بالعطف والألم ، ولعل ابتسامته «صمام الأمن» ينفس به ما يعانى من هموم هذه الدنيا ، وأقسم لك لقد كبر فى عينى وتحول الاعجاب به إلى عبادة وتقديس . . . هل فكرت فى زيارتى ؟ . . .

الرسالة الثالثة

. . . . . لست أعرف كيف أشكرك على تهنئتك الرقيقة، والواقع أننى لم أكن أنتظر النجاح ولولا مساعدة كامل وتشجيعه لتركت الدور الأول إلى الدور الثانى .

أما كامل فقد نجح بالطبع فى الامتحان ولكنه تغير فجأة وترك القراءة والكتابة وانقطع عن الموسيقى التى كان يكلف بها إلى درجة الجنون ، وقد حاولت زيارته مراراً فلم أوفق إلى لقائه .

تألمت أول الأمر عندما ذكرت أنه لم يفكر فى أن له صديقاً يستطيع أن يواسيه، وخشيت أن تكون ثقته بى قد زالت .

وأخيراً حضر كامل هادئاً رزيناً كعهدى به دائماً لم تفارقه ابتسامته ، وبعد أن اعتذر سألته عن سبب تغيره فأجاب بهذه الجملة المقتضبة . «شغلتنى مصالح العائلة» ، وللمرة الأولى لم أصدقه لأننى أظن أن هناك صلة بين تغيره وقصة حبه ، وكم حاولت أن أجره للحديث، ولكنه كان يدير الموضوع إلى غيره فى لباقة ومقدرة . . .

وأخوف ما أخافه أن تكون ابتسامته مفتعلة ، وأن يكون هدوءه متكلفاً لأننى سمعت أنه يجيد التمثيل أيضاً . . .

الرسالة الرابعة

لما كنت أعلم أن خير ما يهدى إليك كتاب فقد أرسلت لك « الأخوة كارامازوف »، وأملى أن تعربها، فهى أحق بالترجمة من تلك القصص التى تملأ بها الصحف .. !

وأظنك تسألنى بعد هذا عن كامل . . لقد صح ما توقعته من أن هناك صلة بين تغيره وبين قصة حبه، والمدهش أنه لم يكذب عند ما قال « شغلتنى مصالح العائلة ! ». إليك التفصيل :

فكر والد كامل فى الزواج، وشكا وحدته إلى أصدقائه وجيرانه، فحبذوا له الفكرة، حتى أن أحدهم واسمه « ابراهيم أفندى » تحمس وعرض عليه ابنته البكر « سعاد ! ».

وفى صبيحة أحد الأيام استدعى الوالد كاملا وأعلنه بعزمه على الزواج، وأخبره أنه اختار فتاة طيبة ستكون أقرب إلى الابنة منها إلى الزوجة، هى « سعاد ».

كاد يصعق كامل عندما سمع بهذا لولا تجلده وثباته وقدرته على ضبط نفسه . أتدرى لماذا؟ لأن سعاد فتاته التى يحبها !

ولقد تزوج الوالد من سعاد فى حفل متواضع جداً، أو بعبارة أصح تزوج «على السكت» كما تقول العامة . . . والمؤلم أن الذى اصطحب الوالد أو «العريس» -إذا شئت- فى الدخول على عروسه سعاد هو كامل نفسه ! فعل كل هذا فى سكون وثبات.

ورأيت من واجبى أن أدعوه وأن ألحف فى الدعوة ليقضى بقية الليل عندى، وما أن استقر فى غرفتى حتى تهالك على مقعد طويل، ولست أشك فى أن قلبه كان كالبركان يهم بالثوران..

الرسالة الخامسة

لما كانت آمالى لا تقف عند حد، ولما كنت أعد نفسى للخدمة العامة عن طريق الصحافة، فقد التحقت بكلية الآداب لأنها المعهد الوحيد - على ما أعتقد - الذى يوجهنى الاتجاه الذى أريده ..

أما كامل فقد انهارت أمانيه فجأة، وهو يحاول - مخلصا - البحث عن وظيفة، وكم اعترضت عليه وطالبته بالمغامرة فى ميدان الأعمال الحرة، ولكنى وجدت أخيرا أنه معذور، إذ ليس عنده رأس المال، أو إذا أردت الصراحة : مدارسنا لا تعد الفرد لممارسة أى عمل، فاذا قلت « أليست الوظيفة عملا ؟» أجبتك لا لا . وإنما هى بطالة متصلة، بطالة يؤجر صاحبها عليها آخر كل شهر!

الرسالة السادسة

.... « أنا أشعر بالخجل كلما ذكرت أنى مقصر، فقد انقطعت عن الكتابة بجميع أنواعها، ولم اعد اليها إلا لانتهاء اجازة الصيف» ،بدأت حياتى الجامعية، وهأنذا أقبل على المحاضرات فى شغف واهتمام.

مكث معى كامل نهار الامس بطوله وكان كثير الاطراق ، ولكن ابتسامته لم تفارقه .. قال بعد فترة سكوت « اسمع إنه يوم الاعتراف فلتكن قسيسا كاثوليكيا ولو مرة واحدة فى حياتك » ، فضحكت ، ولكن ضحكتى ماتت عندما رأيته يجد فى أسلوبه الخفيف .

ثم اعتدل فى جلسته وقال ماخلاصته : « تزوج والدى من سعاد ، وأنت تعرف قصتى معها وأصبح مركزى المنزلى فى غاية الشذوذ ، وقد حرصت أول الأمر على عدم التحدث اليها إلا بمقدار ما تسمح به الضرورة القصوى ، وكنت أراها حيانا والدموع بين أجفانها تحتبس ثم تسيل !

« أما أنا فقد حاولت أن أتسامى بعواطفى ورغباتى فأقبلت على الموسيقى ، لا أقول فى حماس ولكن أقول فى نهم .. لم أكن أوقع على الكمان فى الحفلات الخاصة كما كنت فى الماضى ، ولكنى كنت أوقع عليها فى غرفتى المنعزلة التى تعرفها ..

« ولقد آثرت بعض المقطوعات ، بل أخذت أنشىء مقطوعات جديدة ، أحملها ما يغمر هذا القلب الكسير من عاطفة ... ولم يكن يحلو لى التوقيع إلا والناس نيام حيث تنساب الأنغام فى سكون الليل هادئة خافتة ثم مرتعشة مندفعة . . تمثل الغدير المترقرق الصافى وتمثل الشلال الثرى المنهمر ، زفرات وأنات ودموع ، ثم ضحكات رقص ، ولكنه الطير يرقص مذبوحا من الألم ! وأصبحت لا أعرف معنى للموسيقى فى غير الألم .. هو الحزين أيها العزيز لا يغتذى الا بكل ما هو حزين ..

« وفى إحدى الليالى تناولت الكمان وأخذت أوقع عليها ما أحفظ ، ثم انتقلت إلى ما أنشىء ، وقد نسيت كل شىء بل نسيت نفسى ، ولم أستيقظ إلا على صوت أقدام تقترب منى ، رفعت رأسى فاذا بها سعاد !

« مكثت برهة لا أعرف مقدارها ، ثم سألتها عن سبب مجيئها فلم تجب ، ورجوتها أن تعود خشية القيل والقال ، وقد صدعت للأمر بلا تردد ، وكأنها كانت مدفوعة بقوة خفية لا تعرفها !

« وأسرعت الى فراشى ، وكيف يغمض لى جفن ، والهواجس تهاجمنى من كل مكان الأفكار الخاصة تطاردنى وتتعلق بى ؟ »

هنا سألته ، وقد راعنى حديثه : « ما نوع هذه الافكار الخاصة ؟ » فأجاب « كانت هذه الأفكار على صورة حديث بين نفسى وبين ضميرى ! تسألنى النفس ماذنبك ؟ ألم تكن تنوى الزواج بها ؟ وما معنى الزواج ؟ ثم ترد على نفسها ، أجل لاذنب لك لأنك كنت تنوى الزواج بها ، ومعنى الزواج أن تكون معك فى بيت واحد ! وهنا يتداخل الضمير ويضحك ساخراً وهو يسأل : وأبوك ؟ .. أوه ! . ولكن النفس تجيب : لقد اغتصبها وليس هذا العقد المكتوب إلا ألعوبة الجماعة ، بل ليس هذا العقد المكتوب إلا رمز التمرد على القانون الطبيعى الذى يقول بزواج المتشابهين اللذين يرغب كل منهما فى الآخر رغبة صادقة لاتسف إلى التجارة والرياء !

(البقية على الصفحة ...)

نحن والمستشرقون

رد على الدكتور مبارك

للدكتور حسين الهراوى

علق الأستاذ الدكتور زكى مبارك على ما كتبناه عن المستشرقين وأثرهم فى البحث الاسلامى والاجتماعى عن الشرق(١) ، ورأينا فيهم أنهم ما تخصصوا فى العلوم الاسلامية والمباحث اللغوية العربية إلا لغزوة العقل الشرقى وإخضاعه واستعباده للعقل الأوربى حتى رأينا أن نهضتنا الأدبية والاجتماعية لاتتجه إلى غرض منتج ، كأن يكون لنا شخصية وطابع شرقى يتفق مع ديننا وأدبنا وعاداتنا وقوميتنا .

ولقد استهل الدكتور مبارك عرضه لما كتبنا بجملة تنم على وفائه لأساتذته منهم ، وأنه يحفظ لهم فى نفسه احترام الطالب للاستاذ .

وإنا نحمد له وفاءه واعترافه فى مستهل حديثه باستحاله تبرئة المستشرقين من المطامع لاستعمارية . ويرى أن الاستعمار رذيلة فى القوى ، والضعف رذيلة فى الضعيف ، وأن واجبنا لنحصر فى تقوية أنفسنا لنسود العالم مرة أخرى .

وليس من شأنى أن أتعرض للقسم السياسى من هذا الموضوع ، فان تقوية الممالك ، والاستعمار ، وتغلب الضعيف على القوى ، مسألة أخرى ، غير ما نكتب ونوجه الأنظار اليه . بل نرى لزاما علينا ، وقد عرض الدكتور مبارك برذيلتى الاستعمار والضعف ، أن نشير إلى رذيلة أخرى تفوقهما ، وهى أن يقبل الشخص العاقل تسليم عقله وعقيدته من غير بحث لقوم نشك فى أغراضهم ، وأن يقبل هذا الشخص احترام هذه الفئة وهو لم ينتقد أعمالها ولم يجردها من ذلك الثوب المزركش الخداع من العلم المصطنع ، والتبحر المغرض ، وإلا لرأينا كبار الكتاب منا ينشرون على الناس تلك الآراء التشكيكية والتلاعب بالعقائد مما لم يتصد له غير الأستاذ الامام المغفور له الشيخ محمد عبده والمرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش فى كتابه « الاسلام دين الفطرة » .

وعندى أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة ، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير .

ولا يخفاك أن التاريخ الاسلامى ينقسم إلى قسمين : القسم الأول منه هو الاسلام من حيث هو دين ، وعناصره : القرآن ، والحديث ، وحياة سيدنا محمد عليه السلام ؛ والقسم الثانى منه ، تاريخ الدول العربية التى نشأت وعاشت فى الاسلام . وهذا القسم

(١) راجع الجزء الماضى من مجلة (المعرفة)

قد خدمه المستشرقون حقاً ، لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة . أما القسم الأول منه، فهو بيت القصيد ، ولا يتصدى له كل المستشرقين ، والذين يتصدون له ترى كلامهم مملوءاً بالتشكيك ، والاستنتاج الخاطىء ، والغمز واللمز ، إن لم يكيلوا التهم جزافا ، ويرموا الدين الاسلامى بما يشاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية .

وإلا فاذا كان ذلك الولع الذى يصفه لنا الدكتور مبارك قد بلغ حد الايمان والعقيدة ، ولم يتجاوز ـ كما أسميه ـ الاحتراف والمهنة، لرأينا واحداً فقط من مئات هؤلاء المستشرقين اعتنق الدين الاسلامى ، وإلا كان لنا أن نستنتج ـ بحق ـ أن هؤلاء كلهم لم يروا فى الدين الاسلامى ، برغم اطلاعهم العميق على أسراره ، حسنة واحدة تستهوى واحداً فقط ، يعتنق هذا الدين الذى خصص له كل حياته . أفلست إذن على حق فى أن أقول إنها مهنة ، ومن المهن من لا يعتقد الشخص بفائدتها الروحية ، وإن اقتنع بفائدتها المادية ؟ أما الذين يبحثون عن المبدأ الروحى فقد أسلم منهم كثيرون ، وليس منهم مستشرق واحد .

كيف نقوى أنفسنا أمام المستشرقين الذين يدخلون الشك فى عقائدنا ويصوروننا فى كتبهم على غير حقيقتنا ؟ لا أشك فى أن القراء يوافقوننى على أن تكون المجادلة علمية نزيهة بالتى هى أحسن، كما افعل أنا فى نقدى لكتاب درمنجم ، وإن كنت أعتقد فى نزاهته ، إلا أنى أعتقد أن للعقيدة الشخصية أثراً فى كتابته . فنرى لزاماً علينا إذن ، أن نعرض لآراء المستشرقين ، وأن نقف أمامهم موقف الند للند لا موقف الطالب للأستاذ ، فان مصادرنا ومصادرهم واحدة ، وليس لهم من ميزة غير التهذيب والتحليل ، وكثير منه خاطىء ومبنى على التشكيك، والنزعة التى يراد بها استعباد العقل الشرقى ليحتقر الشرقى نفسه .

أستطيع أن أعد لك كثيراً منا يتغنون بمديح المستشرقين والاشادة بذكرهم ، ولا أستطيع أن أعد غير الأستاذ الامام والمرحوم الشيخ جاويش فى الرد عليهم ومجادلتهم (وقد مضى على ذلك ربع قرن تقريباً) .

فلو أننا قوينا أنفسنا بنقدهم، وأزلنا تلك الغشاوة الكاذبة التى خدرت أبصارنا وأنفسنا وتشكك الكثير منا فى عقائدهم ودينهم ، لكان هذا أول حجر فى بناء الانانية القومية ، والأدب الشرقى المستقل .

وأرى أننى والدكتور مبارك متفقان على وجوب الاحتراس من المباحث التى ينشرها المستشرقون ، لأنه يعترف فى صراحة أنهم أدوات الاستعمار ، غير أننى أختلف وهو فى نقطة جوهرية: هى أنهم يستعمرون العقول ، ويحتلون الأذهان ، ويشككون العقائد . وهذه كلها ملك أصحابها لا سلطان عليها لأحد كائناً من كان ، فاذا قوينا فى أنفسنا العقيدة القومية والأنانية الوطنية فتأكد أن لن يقف فى سبيلنا الى الرقى شىء مطلقاً .

إن الحضارة الأوروبية تنقسم فى نظرى إلى قسمين : حضارة مادية ، وحضارة أدبية . فأما الحضارة المادية كالميكانيكا والتجارة والصناعة فنحن أحوج الناس لها .

أما المدنية الأدبيـة ، كالقصص ، والعربدة فى الديانات ، والتشكيك فى العقائد ، فنحن أحوج إلى آدابنا القومية وعاداتنا الشرقية .

فنحن إلى الآن لم نركز اتجاهنا إلى ما يفيدنا حقاً ، وتشعبت مجهوداتنا فلم نظفر بغير مزيج من المدنية الأوروبية امتزج بآدابنا الشرقية،لا طعم له ولا لون،ولا يدعو إلى الاطمئنان للمستقبل الذى نسعى اليه ، وقد تمسكنا من الأدب الأوروبى بالناحيـة التى يشكو منها الأوربيون ، فالى أى طريق نحن مسوقون ؟ .

لقد أخذ الزهو قوما درسوا اللغات والأدب الأوروبى فنزعوا إلى هذا النهج ، اعتزازا بما تعلموا وتركوا أنانيتهم القومية التى ليس من وسيلة غيرها للرقى المنشود .

ليست كتب المستشرقين ببعيـدة عن متناول يد أى انسان ، فليس فيها فيما يخص الدين واللغة إلا الغمز واللمز والعربدة فى العقائد ، فماذا استفـدنا منهم ، وما هو أثرهم الأدبى فى الشرق ، غير استعباد العقول ؟!

إن العمل الجدى المنتج يظهر أثره فى الثقافة العامة ، وقد رأينا أثر المستشرقين واضحا ، فهل لنا أن نفتح أعيننا لخطره على العقائد ؟ ؟

الدكتور حسين الهراوى

الابن الضال

(بقية المنشور على الصفحة ٣٠١)

« وكم حاولت الصيام عن الموسيقى ولكنى لم أستطع، ولا أخفى عليك: لقد تكررت زياراتها وساعدنا سهر الوالد فى المقهى . . وكان عتاب أعقبه عناق وتقبيل ، لقد نسيت زوجها ونسيت أبى ، ولم أعد أذكر إلا أنها سعاد وأن هذا العناق وذلك التقبيل من حقى، فقد كنت أنعم بهما فى الماضى القريب !

« والآن كيف أتم حديثى ؟ لقد استبحنا كل الذنوب أو قل مثلنا مأساة أوديب الملك ! ليس الذنب ذنبى وإنما هو ذنب المقادير !

« انقطعت سعاد فجأة عن زيارتى فى غرفتى لسبب أجهله ، واستيقظ ضميرى بعد سباته ، وأصبحت لا أطيق الغرفة أو المنزل، يخيل إلى كلما دخلتهما أننى أسمع أبى يقول « هو الابن الضال ! الابن الضال ! »

« ولهذا خنقت آمالى الطويلة العريضة ، وبحثت عن وظيفة حتى وفقت إلى وظيفة كاتب بمصلحة الأموال المقررة بالمنصورة ، وسأسافر غداً . . . اذكرنى ! » . . .

وفى اليوم التالى ودعته على المحطة وكان بادى التأثر، وقد شد على يدى عند تحرك القطار وهو يقول « الرسائل أيها الصديق ! . . . » وانحدرت دمعتان على خده، وهذه هى المرة الأولى التى أراه فيها يبكى . . . لقد غادرنى وكأن قلبى معه ! ؟

طبق الأصل عبد الحميد يونس

شلر SCHILLER

حياته العلمية (١٧٨٥ — ١٧٩٤)

بقلم الدكتور على مظهر

تكلمنا فى العدد الماضى على حياة شلر ، ونتناول الحديث الثانى عن حياته العلمية فيما يأتى :

سافر شلر إلى ليبترج بناء على تلك الدعوة فى ابريل سنة ١٧٨٥ ، وسكن فى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى جوليس ، هناك أنشد قصيدة « أغنية إلى الحبور » جعل منها الموسيقار بيتهوفن العظيم ختاما لسماعيته التاسعة الشهيرة .

وفى صيف سنة ٨٥ سافر إلى درسدن بعد صديقه ، وعاش فى داره هناك كما لو كان فردا من أفراد أسرته ، وأعقبت أيام تعاسته أيام يسر وبشر . وكان لصديقه كورنر ـ بالقرب من درسدن وفى إحدى القرى الواقعة على نهر الآلة ـ حقل من العنب ، فأتم شلر (دون كارلوس) فى حديقة داره سنة ١٧٨٧ ، وفى تلك القطعة تلحظ صفاء روح الشاعر وسعيه إلى كمال الصيغة الشعرية ؛ وترى الشاعر يهجر طريق « الاندفاع والعواصف » ويفكر تفكيراً هادئا ويحن حنينا نقيا من الأدران خالصا من الشوائب للمثل الأعلى . وهو يرى فيها أن الدنيا يمكن قلبها وتطورها بواسطة أنوار الحقيقة وبسيف الكلمات الحرة ، لا عن طريق القوة الغاشمة ولا عن طريق الثورة . وترى شلر قد أوضح فى تلك المأساة (دون كارلوس) آراءه الشعبية وما يسبب السعادة فى هذه الدنيا ، كما أشار إلى المثل الأعلى الذى يتوخاه لحكومة حرة ، وتعرف منها اعتقاداته السياسية أيضا .

وملخص القصة أن دون كارلوس يحب زوج أبيه اليزابت التى كان مزمعا البناء بها ، وقد علم الملك بذلك عن طريق الأميرة (أبولى) التى تحب الأمير مع أنها كانت تعلم بحبه للملكة ، فأعلمت الملك بالخبر ، فتقدم المركيز (بوزا) صديق دون كارلوس وضحى بنفسه لانقاذه . فعمد إلى حيلة بأن دسوا كتابا مخترعا فى يد الملك فيليب الثانى ، وفيه أنه هو عشيق الملكة فقتلوه . أما كارلوس فكان يدبر الأمر للفرار والذهاب إلى الأقاليم الفلندرية ليحركها وتتخلص من اسبانيا ؛ ولكن أمره انكشف فقبض عليه وحكم عليه بالموت كذلك .

وترى فى تلك المأساة أن شلر قد بدأ يعدل عن طريقته الأولى فى حياته الفنية ، فان الوحدة التمثيلية لم تراع كما روعيت من قبل ، وتلحظ فيها آثاراً من خطتين الواحدة إلى جانب الأخرى بوضوح تام ؛ وكان يرمى الشاعر إلى رسم صورة لأسرة فيليب الثانى ؛ ولكن الفكرة قد تبدلت بمرور الزمن ، فبدلا من تصويره صورة لأسرة فيليب وإظهاره بمظهر الظالم المستبد

فى بيته . تضمنت تلك الصور آراءا تخص الطبقة الوسطى من الناس ، فكانت نتيجة ذلك أن تضاءلت شخصية دون كارلوس ، بينا ترى المركيز پوزا وهو متشبع بآرائه الشعبية عن الحرية ، وبأحلامه عن سعادة الشعب ، وصارت تلك الآراء والأحلام فى مقدمة ما تلحظه فى المأساة .

وبعد أن أتم شلر تلك المأساة غادر درسدن فى صيف سنة ١٧٨٧ ، وذهب إلى (فيمار) ليكون على مقربة من مركز الحياة الأدبية ، وهناك ألقى رحاله ووجد فى فيمار موطنا جديدا ، وأخذ تزور بعض معارفه وأقاربه فى الجهات القريبة هناك ، وقد توثقت عرى الصداقة وهو فى (رود لفشتادت) بينه وبين السيدة (فون لنجفلد) وابنتيها اللائى عرفهن معرفة سطحية من قبل . وقد بنى بصغرى الأختين شارلوتى فيما بعد (ولدت سنة ١٧٦٦) ، وقد أقام أثناء صيف وخريف سنة ١٧٨٨ فى (فولكشتيدت) القريبة جدا من (رود لفشتادت) ليكون قريبا من أسرة لنجفلد ، وفى منزل تلك الأسرة تقابل شلر وجوته وإن لم يتقرب أحدهما من الآخر ، وقد كتب شلر لكورنر يقول عن جوته : إن سلوكه كله يباين فى تركيبه من أول الأمر سلوكى ، كما أن عالمه غير عالمى ، وطرق تصورنا وإدراكنا متباينة مختلفة . ولما عاد شلر إلى فيمار وأقام بالقرب من جوته لم تسمح الظروف فى البداية أن يتقرب الشاعران الواحد منهما إلى الآخر ، وعلى نقيض ذلك كانت علائقه مع هردر وفيلاند ، فقد كانت على أتم صفاء ، وقد بعث فيه الأخير حب الاشتغال بآداب القدماء ، وكانت ثمرة اشتغاله بذلك ترجمته (لافيجينى فى أوليس) من تأليف أوربيدس وبعض مناظر من (الفينيقيات) ، وكذا الكتاب الثانى والرابع من الالياذة . كما أنه أنشد بعض القصائد مثل (آلهة الاغريق) و (أرباب الفن) . وقد ذكرت السيدة ليوبولدينا فون شتولبرج رسالة عن (آلهة الاغريق) قالت فيها : إن شلر يشير إلى أن المسيحية كانت كوقاء من ديانة الأغارقة . أما فى قصيدته الثانية فقد بين شلر أهمية الفن لرقى النوع البشرى ، وقد كتب شلر فى ذلك العهد قصة لم تتم ، أسماها (رائى الأرواح) . ولم يظهر له إذ ذاك شعر يذكر لاشتغاله بمسائل علمية لاسيما لدراسة التاريخ . وكان قد قرأ مطالعات بلوتارك فأحيت فيه الميل لذلك ، كما أن دراسته للمصادر التاريخية لفيسكو ولدون كارلوس حببت إليه تلك الدراسة التاريخية . ولما ظهر مؤلفه فى تاريخ سقوط البلاد الواطئة المتحدة سنة ١٧٨٨ عين أستاذا للتاريخ فى جامعة يينا بناء على إيعاز جوته سنة ١٧٨٩ ، وقد بدأ محاضراته فى ٢٦ مايو من تلك السنة بخطاب الافتتاح فى موضوع (ما معنى دراسة التاريخ العام ولأى غرض ندرسه ؟) .

وقد ألف شلر كتبا تاريخية كبيرة عدا الرسائل والمقالات الصغيرة الأخرى . ومن خير ما كتب : مقالاته على (تنقلات الشعوب ، وعلى الحروب الصليبية ، وعلى القرون الوسطى ، ونظرة لحالة أوروبا فى الحروب الصليبية الأولى) . أما مؤلفاته التاريخية العظيمة فقد كانت

(تاريخ سقوط البلاد الواطئة المتحدة) وهي التى بدأ بها حياته التاريخية ، ثم تاريخ حرب الثلاثين سنة ، التى اختتم بها تلك الحياة ، وأحسن جزء فى المؤلف الأخير العهد الواقع بين ظهور فالنشتين حتى أن مات . وقد قال شلر فى سياق كلامه على التاريخ ودراسته له : « سأكون دائما ينبوعا سيئا للمؤرخين القادمين ، الذين سوف يعتمدون على لسوء حظهم ، فالتاريخ على العموم مخزن لخيالى ، والمواد التى يتألف منها هى التى ستقع تحت يدى » . ولم يكن شلر يقدر ولا هو بالراغب فى أن ينال من الشهرة كباحث علامة فى التاريخ . وترى شلر يتحمس فى تاريخه ، كما كان يتحمس فى مأساته للحرية الانسانية ، وللارادة البشرية ، ولحقوق الخلق ؛ فتراه يتحمس لها فى ألفاظه وخطبه ، وتراه إذا ما وصف الطباع أو ذكر الحوادث أو أشار إلى شيء ، يحارب الضغط السياسى والاضطهاد الدينى ، ففى تاريخه عن البلاد الواطئة يتحمس لحرية الشعب ، وفى حرب الثلاثين سنة يتحمس لحرية المعتقدات .

وبنى شلر بشرلوتى سنة ١٧٩٠ وأنعم عليه بلقب مستشار ملكى لمينجن ، ولكنه لم يلبث طويلا فى عمله ، إذ اشتد عليه المرض ، وقد لزمه ذلك المرض طويلا وجعله فى أشد الحاجة الدائمة الكبيرة للراحة والنقاهة ، وفى حالة من العوز كبيرة وفقر ملح ؛ إلا أن أحد أمراء الألمان ووزير الدنمارك ، قد أدركا حالته ، فكانا يعرضان عليه ـ بكيفية كلها الكياسة والرقة واللطف والعطف ـ أموالا كل سنة ، مقدارها ألف ريال تدفع إليه كل عام ، ولبثا يدفعانها له أربع سنوات .

ولما نقه من المرض وأبل ، ترك شلر دراسة التاريخ واتجه بكليته إلى الفلسفة ، ولما كان فى درسدن أشار عليه كورنر بدراسة (كانت) ، ولما جاء إلى يينا مهد له راينهولد دراسة فلسفة (كانت) . وكان بطبيعته ميالا إلى دراسة الجزء الخاص بالأخلاق والجمال ، وقد ساعده التاريخ على دراسة ظاهر الانسان ، كما أوضحت له الفلسفة الطريق لدراسة باطنه . وكما أن سياحة جوته فى ايطاليا ودراسته للفنون كانت واسطة لصفاء روحه ، فقد كان الأمر كذلك مع شلر فى اشتغاله بالفلسفة وأبحاثه فى الجمال ، وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقالات الخاصة بذلك .

اتصاله بجوته حتى وفاته ١٧٩٤ ـ ١٨٠٥

فى سنة ١٧٩٤ عاد شلر من رحلة النقاهة التى قام بها فى صيف سنة ١٧٩٣ لموطنه الشوابى فى جنوب المانيا ، واختمرت عنده الفكرة أن يصدر مجلة شهرية أسماها « آلهات فصول السنة Die Horen » ، وكرس صفحاتها للمسائل والأبحاث الفلسفية والشعرية والتاريخية ؛ وقد كتب فيها عدة من الشعراء والعلماء إذ ذاك ، نذكر منهم فيلهلم فون هومبلدت وجوته ؛ وكان شلر قد أرسل دعوة لجوته بذلك فلبى الطلب ، وبهذه الطريقة اتصل الشاعران أحدهما بالآخر اتصالا كبيرا .

وعاد شلر من أبحاثه العلمية أو قل من الفلسفة إلى الشعر والقريض . وقد كتب إلى جوته يقول : إن الشاعر هو الانسان الحق وحده ، وإن أحسن فيلسوف ما هو إلا صورة مضحكة بالنسبة إليه . وقد نشر شلر فى تلك المجلة (١٧٩٥ — ١٧٩٧) كتبه عن تربية الجمال فى الناس ، ورسالة عن القريض السهل الصادر عن العواطف وغيرها . ومنذ سنة ١٧٩٦ أصدر تقويم (عرائس الشعر) ، وقد جاء فى ذلك التقويم الذى نشر فى المجلة نخبة من القصائد، ذات أفكار فلسفية عميقة مثل قصيدة (أرباب الفن) نذكر منها أشهرها : النزهة ، والمثال الأعلى، والحياة ، والسعادة . والقصيدة الأولى كان اسمها مرثية فى الأمل ، وتشتمل على نظارة عامة لتقدم الانسان فى الحضارة ، وقد وصف الشاعر فيها حياة الانسان الطبيعية،والحياة فى المدن، وازدهار الفنون والعلوم، ثم زمن الانحطاط.وهو يرى أن خير طريقة للنجاة إنما هى الرجوع إلى الطبيعة ، وقد أوضح ذلك التقدم بمجموعة من صور المناظر الخلوية، وفى قصيدته (المثال الأعلى والحياة)—وكان أسماها أولا مملكة الظلال— ترى الشاعر فرض على الانسان الواجب أن يفعله، بأن يتخطى الخوف من الحياة الدنيا إلى الدائمة ، وأن يمزج بين السعادة الحسية وسلام الأرواح، وأن يصور الحياة ويشكلها تشكيلا فنيا بواسطة الفنون. أما فى قصيدة السعادة فقد أتى فيها على رأى المسيحية بأن الانسان لن ينال العلا بواسطة قوته وحدها ، وإنما يصل إليه إذا ما رضى الله عنه وتقبل ذلك بخضوع وخشوع .

ونشر الشاعران نقدا لمعاصريهما من الأدباء والشعراء ، وما ظهر فى زمانهما من مؤلفات وآثار . ثم أصدر شلر —منافسا لجوته— أناشيد اعتمد فى نظمها على بعض القصص الخرافية، وقدظهرت تلك الأناشيد وقصائد أخرى فى تقويم عرائس الشعر، فى سنة ١٧٩٨و١٧٩٩ ، إلا أن الشاعر بلغ الذروة بقرضه (أغنية الناقوس) التى أنشدها سنة ١٨٠٠، وهى ملأى بالأفكار والتأملات الشعرية ، التى أتى بها فى نهاية كل جزء من القصيدة على المراقى المتباينة لوجود الخلق ، وقد أنشد الشاعر قصائد أخرى تذكر فى السنين التالية .

وأخيراً عاد شلر إلى المأساة يتقن كتابتها ويدبج يراعها فيحسن ويبدع ، وأتم (فالنشتاين) سنة ١٧٩٩ ، وقد كلفته تلك المأساة فى دراستها النصب ، فانه درس الحرب الثلاثين سنة وتاريخها وأشياء أخرى ، وزار بعض الأماكن التى قتل فيها البطل ، كما أنه درس حالة الجيش النمساوى ونظام جنده وغير ذلك ، وتم ذلك قبل أن يبدأ فى كتابة المأساة ، وهى تبدأ بمقدمة عن معسكر (فالنشتاين) وقد أجاد فيها تصوير حياة المعسكر وأحكم . وقد أراد أن يجعلها تلمس القوة والجبروت ، التى كانت ضرورية للقائد أن يستعملها ؛ ليكون له النفوذ الضرورى فى الجيش إذا دعاه، وما كان كل جندى إلا صورة لقائد فرقته ، مع أن طباع كل الجنود متباينة مختلفة ، كما صورها الشاعر ؛ ولكنهم كانوا مجمعين أن لا يتركوا القائد. ولما انتشرت إشاعة فى

المعسكر أن القيصر يفكر فى حل جيش فالنشتاين وإضعافه ، قرر الجند فيما بينهم أن يكتبوا إلى القائد أنهم قد عزموا أن يكونوا كلهم معا، وأنهم لا يرغبون أن تفصلهم قوة ما ولا حيلة عن ابيهم . وتختم تلك المقدمة أو الاستهلالية ذات الفصل الواحد بأغنية فرسان من الأغانى البهيجة السارة . ويعقب تلك المقدمة تمثيلية (البيكولوميني) فى خمسة فصول . وقد شعر فالنشتاين بأنه رجل الساعة الذى جاء ليكون قوله فصل الخطاب ، لما رأى أنه على رأس جيش كهذا أوجده هو بنفسه وبث فيه روحه ، وداخلته الأطماع ليتوج نفسه ملكا على بوهيميا ، ويكاد يتم له ذلك لو أنه اتحد مع السويد ؛ ولكنه تأخر عن تنفيذ خطته ، لأنه لم يرض أن يكون خائنا للقيصر مع أن هذا كان يدبر له ما يدبر وراء الستار .

وأخذ بعض القواد والضباط العظام على عاتقهم أن يخففوا عن فالنشتاين عبء الحمل ، فقلدوا توقيع القواد على ورقة مزورة ، جاء فيها: أنهم أخذوا على عاتقهم جهد إمكانهم ، أن يلبثوا على ولاء فالنشتاين ، حتى إذا انفصل عن القيصر. ولاحظ (أوكتافيو بيكولوميني) تلك الخيانة، وكان ايطاليا متذبذبا منافقا كذابا ، أبطرته ثقة فالنشتاين فيه ثقة لا حد لها . وكانت مرتبته تأتى بعد فالنشتاين فى الرتبة ، وكلفه بلاط فينا أن يرقب القائد ويعمل على إسقاطه والكيد له . وأخذ فى تنفيذ ما ربه ، وتظاهر بالطاعة والخضوع الكاذب لقائده ، وأخذ يتعقبه ويحصى عليه أنفاسه ويقيد أعماله ، وكان لذلك الخائن ابن هو على نقيض طباع أبيه ، واسمه (ماكس بيكولوميني) فقد كان صادقا فى عمله صالحا طيب القلب صريحا ، وكان بين موقفين : إما أن يتابع أباه فى خيانته وغدره ولؤم طباعه ،أو ينضم إلى فالنشتاين ، وكان يحب ابنة تكلا ، ويعد ماكس قائده نابغة فى قيادة الجيوش لا يرغب فى خيانته ، وإلى هنا تنتهى تلك القطعة أو الجزء الثانى .

ويأتى الجزء الثالث بمأساة (موت فالنشتاين)وهى فى خمسة فصول، وفيها ترى أن فالنشتاين لا يمكنه أن يتراجع عما وصل إليه ، وكانت تلك الخيوط التى حاكها والتى اعتقد أنها فى يده ، إنما كانت فى الواقع كشبكة ألقيت فوق رأسه ، فقد جاءه الميرالاى السويدى (فرانجل) وأوضح له موقفه وأخبره أن لا خيار له بعد ، كما أن الكونتيسة (ترتزكى) دفعته إلى خطوة حاسمة ، وعليه عقد الحلف بينه وبين السويديين وترك القيصر وكان فى الخيانة هلاكه ، وهو يطمع فى أن تلقى مقاليد الحكم إليه ، وسعى ماكس بيكولوميني ليثنيه عن عزمه الذى اعتزمه بكلمات كلها حماس ومحبة،ولكنه لم يفز بذلك؛ وبعد أن كان فى كفاح شديد بين الشرف والحب انفصل عن فالنشتاين وهو آسف متألم ، وكذلك انفصل عن جيشه تكلا ، ولاقى فى القتال راحته الكبرى الأخيرة والموت الذى كان ينشده .

وأصدر القيصر أمراً سريا بتعيين اوكتافيو قائدا للجيش عوضا عن فالنشتاين ، ونجح

القائد الجديد فى جذب بتلر أحد شيعة فالنشتاين الغلاة إليه ، وكذلك تركته فرق بأكلها ، وانسحب هو من المعسكر إلى بلزن إلى حصن (ايجر) وهناك سقط ضحية الخيانة .

وقد جمعت تلك المأساة بين حياة كلها حركة وبين الهدوء التام الذى يشبه هدوء التماثيل ؛ وقد حافظ شلر فيها على الحقائق التاريخية أشد المحافظة إلى جانب الشكل الفنى التام ، وقد أظهر شلر براعته فيها، إذ أنه لم يجعل أفكاره ومشاعره تتغلب على أشخاص الرواية ، فيصبغها بصبغته وتتغلب عليهم روحه ؛ ولكنه أوجد أشخاصا آخرين من عنده ينطقون بتلك الأفكار، وينقلون إلى النظارة مشاعره وعواطفه . وقد قال جوته عن تلك المأساة ما يأتى : « إن فالنشتاين (أعنى المأساة) التى كتبها شلر كبيرة عظيمة وليس لها من شبيه ثان » .

وفى سنة ١٧٩٩ انتقل شلر إلى فيمار ليسكن على مقربة من جوته وليكتب للتمثيل ودوره ، وجعل ذلك واجبه الأكبر، وهنا جادت قريحته فى المآسى فجعل يظهر للناس كل سنة واحدة . وترجم مسرحيات عن اللغات الأجنبية لتمثل فى دور التمثيل عندهم ، فترجم ما كبث لشكسبير، و (توراندو) لجوترى، وترجم فكاهتين من بيكار (ابن العم فى مقام العم) و(الطفيلى) ، وكذلك نقل عن راسين رواية (فيدر) .

وفى سنة ١٨٠٠ أظهر شلر وهو فى فيمار أولى مآسيه الكبرى (ماريا ستيوارت) . وقد طالع لذلك تاريخ اسكتلنده (لروبرتسون) وتاريخ انجلترا (لهيوفر) ، وملخص تاريخ الملكة هو أنها ولدت سنة ١٥٤٢ ، وفى هذه السنة عينها توفى أبوها يعقوب الخامس ، فتولت أمها الوصاية عليها ، بينما كانت تتعلم هى فى فرنسا ، وقد تزوجها ولى العهد هناك ، وصار بعدئذ ملكا على فرنسا باسم الملك فرنسوا الثانى .

ولما ماتت أمها وزوجها سنة ١٥٦٠ عادت هى إلى وطنها لتتولى الحكم بنفسها ، وكان ذلك فى السنة التالية ، فتزوجت هناك بابن عمها (دارنلى) ؛ ولكنه أساء معاملتها وقتل كاتم سرها الأمين (ريتزيو) فاشتد حزنها عليه ، وتغلب عليها حب الانتقام ، ومرض الملك (دارنلى) سنة ١٥٦٧ ، وأقام فى دارخلوية ونسف ذلك البيت ، فاتهمت بالمؤامرة عليه ، وقد ثبتت التهمة ضدها لما تزوجت بالكونت (بوثول) ، الذى قيل إنه قاتل بعلها الأول .

وثارت ثائرة أشراف البروتستانت ضدها ، وقبض عليها وسجنت وأجبرت على التنازل عن العرش لابنها يعقوب السادس ، الذى تولى الحكم فى اسكتلنده من سنة ١٥٦٧ إلى سنة ١٦٠٣ ، وتولى حكم الجزائر البريطانية بما فيها انجلترا وارلندا أيضا ، وسمى بيعقوب الأول من سنة ١٦٠٣ إلى سنة ١٦٢٥ .

وتيسر لماريا ستيوارت أن تفلت من محبسها ، ولم يبق أمامها من سبيل إلا أن تلجأ إلى انجلترا ، وكلها آمال أن تجد كل رعاية وحماية من الملكة اليزابت ، وتلقتها هذه بكل ترحاب

عظيم مصطنع ؛ ولكنها ما لبثت أن عوملت معاملة الأسيرة، وصارت تنقل من مكان لمكان ، حتى أن أسكنوها قصر فوترنجهاى سنة ١٥٨٦ ، وهنا تبدأ الفاجعة التى أرادها شلر ، ولم تمكن رغبة الشاعر فى كتابة قطعة تاريخية ذات آراء ونظرات فى تاريخ العالم ، بل رغب فى الجانب اللطيف الرقيق ، وأن يهز أوتار القلوب الانسانية تجاه أبطال القصة .

وقد رأينا أن ماريا قد جاءت إلى انجلترا وهى آملة ؛ ولكن اليزابت لم ترض أن تضيع الفرصة السانحة منها ، بأن تقضى القضاء التام على عدوتها اللدود ، التى كانت تطمع فى الرجوع إلى عرش انجلترا ، وتحمى الحزب الكاثوليكى ، فوجهت إلى ماريا التهمة بأنها تطلب عرش انجلترا لنفسها. فتألفت لمحاكمتها جماعة من أعيان انجلترا ، ينتمون إلى الأمراء الحاكمين، فحكموا عليها بالاعدام بناء على قرار كاتبيها الكاذبين بذلك ، ولم تجعل المحكمة الشاهدين يواجهان المتهمة، كما تقضى العدالة ونظام المحاكم العادلة بذلك ، وتأخرت اليزابت فى توقيع حكم الاعدام ، وكان يزاحمها فى ذلك (برلى) وزير الخزانة ، فانتهز الكونت (ليستر ومورتمر) هذه الفرصة لانقاذ المسكينة، وكان أولهما يرى أن يصلح ذات البين بين الملكتين ، بينما كان الآخر يرى أن يطلق سراحها سرا ، ولم ينجح أحدهما فى مهمته ، وتقابلت الملكتان فى حديقة فوترنجهاى .

وقد جعل شلر ذلك الموقف أكبر المواقف وأكثرها استرعاء للأنظار، فترى ماريا المسكينة وهى خاضعة ذليلة تعمل بما فى وسعها للنجاة، وتنحنى أمام اليزابت وتطلب عفو عدوتها الباردة الاحساس ، الفاقدة الشعور ، المسلوبة العواطف ، ولكن اليزابت تصغ لم لتوسلات ماريا ، ومضت الحكم باعدامها. وبينا ترانا نقابل أعمال اليزابت المنافقة ، التى لا تعرف الرحمة إلى قلبها سبيلا ، بعدم العطف ، ترانا نعطف على ماريا لأول وهلة .

وربما كانت هذه المأساة مما يلائم ذوق المصرى للمسارح ، وحبذا لو عنى أحد بتعريبها ، وعنيت إحدى الفرق التمثيلية باظهارها كما رغب كاتبها ؟

(يتبع) على مظهر

٣ - تاريخ حيـــــاة

ألف ليلة وليلة

للاستاذ الـكبير احمد حسن الزيات

أستاذ الأدب العربى بدار المعلمين العليا ببغداد

مؤلف الـكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته

ذهبت جهود الباحثين باطلا فى تحقيق هوية المؤلف ، لأن هزار إفسانة نقل إلى العربية غفلا ، لم يسم واضعه ، ثم غشيته الطبقتان البغدادية والمصرية على التدرج ، فـكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع فى عصره من ثمرات القرائح ، وقطرات الاقلام ، دون أن يسندها إلى راو ، أو يعزوها إلى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقص ، لا أن يروى وينشر ؟ فلما هيأت الأحوال أسباب تدوينها فى العهد الذى ذكرته ، قيض الله لها من ضم شتات الفتها ، ونسق نظام وحدتها ، ثم دونها على هذه الصورة ، ولم يستطع ذلك الجندى المجهول أن يملى اسمه على الخلود ، إما لتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما تواطىء من النكران والنسيان ، أمات اسمه بعد مماته . ومن التوافق الغريب أن أسماء الـكتاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الـكبيرة ، فى العهد الذى دون فيه الف ليلة وليلة ، قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغانى (رولان) ، وقصص المائدة المستديرة ، وقصص الحكماء السبعة مثلا .

وقد اختلف العلماء فى أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ، ولست أرى لهذا الخلاف وجها ، فان الـكتاب تكون — على اليقين — من أعمال مستقلة ، ثم نما بالاتفاق على توالى الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الأعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ، ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذى قر فيه على هذا الوضع الأخير ، فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه فى السنوات العشر الواقعة بين سنتى ٩٢٣ — ٩٣٣ ، وهما توافقان سنتى ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحى .

وقد حصره الأستاذ (وليم لين) الانجليزى بين سنتى ١٤٧٥ — ١٥٣٥ للميلاد من مدى خمسين سنة ، فوافقناه فى الغاية وخالفناه فى البدء ، ولم نر هذا الرأى اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من النص الظنين من جهة أخرى ، وإنما اعتمدنا فى تحقيقه على دليل مادى ، وهو أن الأستاذ الفرنسى (جلان) لما أخذ ينشر ترجمة الـكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ ، وقد نقله عن نسخة

عربية مخطوطة فى ثلاثة مجلدات، أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠، وهى مكتوبة بمصر غفلا من التاريخ، ولكن الذى نقلها إلى الشام ـ وهو من طرابلس ـ كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة، ثم انتقلت من يده إلى يد آخر من حلب، فكتب عليها أيضا تاريخ هذا الانتقال وهو ١٠٠١، فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل ٩٤٣ بزمن تقدره كما قدره (لين) بعشر سنين.

هذا من جهة الطرف الأعلى، أما من جهة الطرف الأدنى، فانا نجد ذكر القهوة المعروفة، يتردد فى بعض الحكايات، كحكاية أبى صير وأبى قير، وحكاية على نور الدين، ومريم الزنارية مثلا، وذلك لا يكون قبل العقد الأول من القرن العاشر، لأن القهوة لم تنتشر فى الشرق إلا فى هذه المدة، ثم نجد لفظ الباب العالى وبعض النظم العثمانية تذكر فى حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكاف، وهى مصرية قطعاً. والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣، فيكون الكتاب إذن قد دون بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣.

ذلك تحقيق الزمن الذى صنف الكتاب فيه جملة، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة، فذلك عمل إن تيسر فى حكاية تعذر فى أخرى. وبعض الباحثين قد حاول ذلك فى شىء من التوفيق، كالأستاذ (وليم بوير) الأمريكى، فانه نشر سنه ١٩٢٤ بحثاً فى ٤٤ صفحة من المجلة الأسيوية، جزم فيه بأن حكاية الوزيرين: شمس الدين، ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس، أى بعد سنة ٦٧٦، ويرجح أنها كتبت سنة ٧٠٦، وأن قصة الخياط والأحدب ـ بما تشتمل عليه من الحكايات الأخرى كمزين بغداد ـ قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة. والدخول فى هذا الموضوع يخرج بنا إلى التفصيل الذى يمل فى الروح ويخمد نشاط الحديث.

سمى العرب هزار إفسانه الف ليلة، ولو أرادوا الترجمة الأمينة لقالوا ألف خرافة أو أسطورة، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين: إما أن الليلة كانت فى اصطلاحهم ترادف الأسطورة باعتبارها زمناً لها، وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق:

« ابتدأ أبو عبد الله الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره، وأحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ماحلى بنفسه.. فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء مافى نفسه من تتميمه ألف سمر ... » وإما أن يكون عدد الألف فى الأصل إنما أريد به التكثير لا التحديد، على حد قوله تعالى: «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم»، وأحر به أن يكون كذلك، فان ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً، وقال إن فيه دون المائتى سمر، وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لايتجاوز

٢٦٤ حكاية، قسمها المؤلف على ألف ليلة وليلة تقسيما فيه عبث الهزل، أو سخف الصناعة . فإن شهرزاد يدركها الصباح دائماً، ولما يعض على حديثها غير بضع دقائق، على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم إلا تلك الحكايات التى سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

أما زيادة الليلة على الألف فمن عمل القرن السادس، لأن النسخة التى رآها القرطى بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمى، كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة ، ويقول (جلد مستر) فى تعليل زيادة الليلة: إن العرب يطيرون بالاعداد الزوجية ، وهو زعم غريب ما رأيت فى تاريخنا ولا فى أدبنا مايؤيده .

ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى ألف ليلة، وكان الجهشيارى يريد أن يسمى كتابه ألف سمر . وعندنا ألفية ابن معطى وألفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم أن يؤيده (أوستروب) فى دائرة المعارف، ويزيد عليه أن ميل الناس فى تلك العصور إلى التسجيع فى عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً على هذه التسمية، وليس فى قولنا ألف ليلة وليلة - كما تعلمون - تسجيع ولا مزاوجة ؛ والغالب فى رأيى أن الليلة إنما زيدت فوق الألف لافادة الكمال ، كطفحة الاناء وميلة الميزان ، لأن الألف عدد تام بالنسبة إلى هذا الكتاب ، فاذا زيد عليه الواحد كان كاملا ، والكمال درجة فوق التمام ؛ وإن فى لغة التخاطب مايشبه ذلك فقد يقال فى المن، قضيت لك الف حاجة وحاجة ، وفى المبالغة زرتك الف مرة ومرة، وهلم جرا .

طريقة الكتاب وأسلوبه

كانت طريقة العرب فى القصص أن يسردوا الاسمار والاحاديث ، على نمط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها ، لا يربطها بما يسبقها ولا بما يلحقها علاقة ، وترون ذلك واضحاً فى أمثال لقمان وكتب النوادر. فلما نقلت الاقاصيص الهندية إلى العربية فى القرن الثالث عن طريق الفارسية، أدخلت فى أدبنا القصصى طريقة طريفة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات، متعاقبة الخطوات، متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الضرب الأول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية ، تكون فاتحة لبدايتها ، وسببا لروايتها، ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يحل، وذلك فى العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة ، وكتاب كليلة ودمنة ، وأغلب كتاب الف ليلة وليلة ، وهو فى الفارسية مذهب بختيار نامة، وقصة جهارد رويش، وقصة نوروز شاه، وكتاب طوطى نامة ، وأنوار سهيلى مثلا . والضرب الثانى أن تروى الحكايات موزعة فى الكتاب على عدة أبواب ، بحيث تكون الحكاية فى أى باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذى يليه . ومن هذا الضرب فى أدبنا كتاب سلوان المطاع فى عدوان الاتباع لابن ظفر الصقلى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، لاحمد بن عرب شاه الدمشقى، المتوفى سنة ٨٥٤ هـ. وفى أدب الفرس كتاب

مرزبان نامة،لمرزبان بن رستم بن شروين ، وقد ترجمه ابن عرب شاه واستمد منه ، ذلك فضلا عن الطريقة الفارسية التى أخذناها فى الاقاصيص الغرامية المطولة . فالف ليلة وليلة إذن يجرى على ثلاث طرق : يجرى على الطريقة الهندية فى الحكايات المتداخلة المتسلسلة، كحكايات الاصل وحكاية البنات الثلاث، والصعاليك الثلاثة، وحكاية الخياط والاحدب والطبيب ، وحكاية جان شاه وحكاية ورد خان ... الخ . ويجرى على الطريقة الفارسية فى الحكايات المفردة المجردة ، كحكايات العشاق فى بعض أقاصيص الاصل، وما جرى مجراها من حكايات الطبقة البغدادية ، فانها مضروبة على قالب القصص الفارسى فى الاعتماد على الحب الوهمى، الذى يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور فى الكرى، أو صورة تعرض فى الطريق، أو حكاية تلقى فى المجلس. ثم يجرى على الطريقة العربية الخالصة فى الاقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الادب : كحكاية حاتم الطائي، وحكاية معن بن زائدة ، وحكاية ابراهيم بن المهدى ، وحكاية خالد بن عبد الله القسرى مثلا . أما أسلوبه فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص، فاذا حكمنا عليه فانما نحكم على جملته لا تفصيله، ونتوخى الصفات العامة فى نقده وتحليله . فهو فى عمومه أسلوب سهل المأخذ ، مطرد السياق، سوقى اللفظ ، مبسوط العبارة ، كثير الفضول ، كثير التخمين ، جرىء الاشارة . لا يعرف الكناية ، ولا يتقى الحياء ، ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سبيل العامة ، فهو يسايرهم فى ثرثرتهم وفضولهم، وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم، ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك يسير سير الأعرج المفلوج وراء المذهبين الكتابيين اللذين راجا على التعاقب فى عهده ، وهما مذهب ابن العميد فى العراق، ومذهب القاضى الفاضل فى مصر ، فهو يسرف فى السجع ويكثر من اقتباس الأمثال وتضمين الملح، ويتظرف أحياناً بذكر مصطلحات النحو، على سبيل التشبه أو التورية، كقوله فى قصة قمر الزمان الثانية « باتا على ضم وعناق ، وإعمال حرف الجر باتفاق، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنوين الاضافة معزول » ، وهو يغالى فى تضمين الأبيات فى خلال الحكايات ، ويمعن فى ذلك غالباً حتى يمل . وترصيع النثر بالشعر أسلوب لا يألفه الأدب العربى ولا الادب الفارسى ، وإنما هو ميزة من مزايا الأدب الهندى أيضا .. اقتبسه الفرس ثم نقله كتابهم إلينا فى منتصف العصر العباسى ، وروجه فى عهد بنى بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات ، كابن العميد والصاحب والبديع والخوارزمى . ومن ترسم خطاهم ، أو سار على هداهم . وموضع هذه الاشعار يكون عادة فى مواقف السرور والحزن ، والوصف وثوران العواطف ؛ ولكن القصاص يسىء فى الغالب استعمال التضمين فيخطىء مواضع الاشعار أو يجهل محل المناسبة أو يردد الابيات نفسها فى كل موقف ، وقد تدفعه السماجة الى الاستطراد الغث فيقول : وقال الشاعر أيضاً فى المعنى ، ثم يورد أبياتاً لا يصلها بالموضوع سبب ، كما فعل فى مقدمة على نور الدين ومريم الزنارية مثلا ، فانه حين وصف البستان ، لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق فى ذلك

خمس صفحات من الكتاب .

إن خير ما يمتاز به أسلوب ألف ليلة وليلة هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعانى تسبق الالفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق الوصف الى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه،ويربط السامع والقارىء بموضوع القصة ، على أن القصاص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة،فى كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فاذا سما إلى مقام الملوك والخاصة خانته قدرته ، وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى فى الفن الكتابى (بالصبغة المحلية) ،وهى أن يسند إلى الشخص ما يلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل . فالأقاصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصاص الأسلامية ، كحكاية قمر الزمان ابن الملك شهر مان،والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية، كحكاية ابى الحسن الخليع ، ثم نراه يجرى على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكماله أن يقوله ، ويجعله يفعل ما لا يجوز فى العقل أن يفعله ، كأن ينادى وزيره جعفرا بقوله : يا كلب الوزراء، ويكلفه فى قصة الفتاة القتيلة بالعثور على القاتل فى مدى ثلاثة أيام، وإلا شنقه هو وأربعين من بنى برمك . وكأن يخلع فى حكاية على نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدى مرقعة بالية قذرة (لكريم الصياد) ، فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قذرها على منكبه وأعطافه ، ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزرى كان لضرورة ملجئة، لوجدنا له مساغاً من الفن، ولكنه جشمه ما جشم ليتسنى للخليفة أن يسمع غناء أنيس الجليس، وهى فى قصر من قصوره وفى ضيافة خادم من خدمه ، فهو يدخله فى هذا الزى الزرى على الحبيبين والبستانى ليقدم إليهم ما معه من السمك فيكلفوه بشيه فى المطبخ فيشويه!!.

وكثيرا ما تدفع القصاص شهوة الاغراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة، فتفوته من الفن صفة الأمكانية، وهى أن يلبس القصصى الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة، فيقرب ما بينهما من الظروف ويمهد لها أسباب الوقوع ، حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد ، والأمثلة على هذا العيب مستفيضة فى كل قصة ، وفى الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصى كلها كقصة الصياد والجن وقصة مزين بغداد ومقدمة حكايات السندباد، وقصة على بن بكار وشمس النهار .

هذا إذا نظرنا الى الأسلوب فى خطته وعمومه ، أما اذا تتبعناه باللمح الخاطف فى نواحى الكتاب ، وجدناه فيما بقى من الأقاصيص الهندية والفارسية، وماجرى مجراها من الحكايات المحدثة المقلدة ، بين السذاجة أبله الاشارة، لأنها من نوع الخوارق التى تدخل على القلوب الغريرة ولا تظفر الا بتصديق العقول البسيطة، فهو جار مع طبيعتها متفق اللون مع صورتها . وفى الطبقة البغدادية نراه متين العبارة، عفيف اللفظ، حسن السبك، دقيق الوصف، كثير السجع، قليل الفضول،

لأنه فى الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب. وقد يسف فى بعض الأقاصيص إسفافا قبيحا ليثقل بسخفه على الطبع ويعتدى بضعفه على الذوق كما نراه فى قصة النائم اليقظان مثلا. أما الاسلوب فى الطبقة المصرية فهو فى قسمها الأول وخاصة الاقاصيص المكتوبة منه أشبه شىء باسلوب الطبقة البغدادية مع اتساع فى السجع وجرأة على الحشمة، والغالب عليه التقليد، فتارة يجرى على منهاج الطريقة الهندية كما نرى فى حكاية وردخان والملك جلميعاد، وتارة ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله فى قصة قمر الزمان الثانية وحكاية مسرور وزين المواصف. وقد يجرى فى مجراه الخاص من التهكم الساخر والمزاح المضحك فيكون رقيقا كما نراه فى قصة الاحدب وخاصة فى مزين بغداد، ولكنه فى القسم الثانى وفى سائر القصص الالقائية التى ألفها القصاص ليلقوها فى السوامر، مهلهل النسيج، عامى اللفظ، مرذول المبالغة، سيء التلفيق، شديد الوطأة على الحياء والمروءة، لصدوره عن قصاصين محترفين جهلاء يتملقون شهوات العامة بالافحاش، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة، ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة، فيقال دائما فى وصف القينة العازفة «فعملت على العود من غرائب الموجود إلى أن طرب الحجر الجلمود وصاح العود فى الحضرة ياداود». وفى إيثار البعد «بعدك عن الحبيب أجمل وأحسن، عين لا تنظر وقلب لا يحزن». وفى غرابة الحادثة «لوكتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر»، وفى وصف الشيخ الفانى «قد أبقى ما أبقى وعركه الدهر فما أستبقى، كأنه مفنى ملقى فى خرقة زرقا تعبث بها الأرياح غربا وشرقا، كما قال فيه الشاعر»

أرعشنى الدهر أى رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشى ولست أعيا واليوم أعيا ولست أمشى

وفى وصفه ساحة الحرب ومجالس الانس ورياض الأرض وأثاث البيت لا يكاد يغير شيئا من الأسجاع والأوضاع ومقطوعات الشعر.

ذلك أيها السادة ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الأثرية فى الكتاب، وسترون حيث تعيدون قراءته، أن القصاص والمصنفين والمصححين فى مصر، قد أخضعوه إخضاعا شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم، حتى جعلوا البحث اللغوى الفنى من البعد بحيث لا تبلغ اليه وسيلة.

فلسفته ومراميه

إن من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة، كان كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة وطبيعة ثابتة وأغراضا متفقة. فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبى يصور الحياة الدنيا كما هى لا كما ينبغى أن تكون، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ومراميه تتعارض وآراءه تختلف، فذلك لأن المجتمع الذى يصوره كذلك. ولم يكن

الكتاب نتاج قريحة معلومة ، ولا نتيجة خطة مرسومة ، حتى تتلمس فى جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ، إن هو إلا صدى يتردد خافتا لعقائد الشرق القديم وعظماته وعاداته . ففى الفلسفة نراه يتأثر بالأفلاطونية الحديثة والأخلاق الاسلامية ، فيدعو إلى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال فى اللذة والمبالغة فى الحذر والتفويض المطلق للقدر . فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صورة البراقة ووسائله الطاحة وحوادثه العامرة . ثم نراه فى أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة يزين الأنانية ويرتضى القسوة ويتشوق الى المكاسب الدنيئة ويشره إلى اللذة الخسيسة، ولا يكاد يعتقد بالعواطف الشريفة .. وقد يصور المتاع الحسى واللهو الجموح بما لا يتمثل فى الذهن إلا على سبيل الخيال ، كالذى يحكيه عن فتى من أبناء الملوك رسا إلى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون ، فقضى بينهن فى هذا النعيم أياماً أقل ما أصاب فيها من اللذة انه كان يلقى الشبكة فى الماء على سبيل اللهو فتخرج اليه من الأصداف فريدة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجنان ، الخ .. فاذا اختبرناه فى السياسة والاجتماع رأيناه ملكيا يقيم فى كل مدينة عرشا وينصب على كل مجمع من الاحياء ملكا حتى الحيات والحشرات والنمور والوحوش والقردة ، ديمقراطيا يشرك الملك والملوك فى متع الحياة ومجالى الانس ، عائليا يبنى نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة والولد . لذلك تجده يستهل معظم اقاصيصه بحنين الوالدين الى النسل ، وفزعهما الى الله ، أن ينجيهما من داء العقم . وقد يسمو مغزاه الى الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والحمال . فالحمال يؤوده الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقى حمله على مصطبة امام بيت من بيوت التجار يتردد اليه النسيم الرطيب ، وتضوع منه روائح العتر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر فى كثرة خدمه وغلمانه ، ويسمع تغريد البلابل والفواخت فى بستانه ، ويصغى الى رنين أوتاره وغناء قيانه ، وينشق أفاويه الطعام الشهى من صحافه والوانه ، فيرفع طرفه الحائر الى السماء ويقول سبحانك . يارب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لأمرك أين حالى من حال هذا التاجر ؟!

أنا مثله وهو مثلى ولكن حمله غير حملى !!

على ان أسوأ ما سجله الف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة ، فان حظها منه منكود وصورتها فيه بشعة . وكيف ننتظر من كتاب بنى على خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟؟ إن شهرزاد المسكينة انما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهريار أعجب القصص ، ابتغاء الحظوة لديه ، حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر عن بنات جنسها . ومن الخطل الاليم أن يسند القصاص كل هذه النقائص الى النساء على لسان واحدة منهن فى مقام الدفاع عنهن ، وأن يجرى على فمها فى حضرة الملك تلك الكلمات الجريئة المخزية فى وصف بهيمية الرجل .

الف ليلة وليلة يصور لنا المرأة فى القسم الهندى والفارسى خطالة خائنة ، تبيع عرض الملك

للعبد فى قصة شهريار وأخيه ، لجوجة جموحة أنانية فى قصة الثور والحمار، تصر على أن يبوح لها زوجها بسره ، وهى تعلم أن فى إفشائه ضياع عمره، حاقدة كائدة منتقمة فى قصة الوزراء السبعة ، قاسية عاتية مرهوبة فى حكاية قمر الزمان الاولى. وهى فى بغداد سجينة فى قصرها مغلوبة على أمرها ، قد انتبذها زوجها وألقى زمامه بيد الجوارى والندمان . وعلى كلتا الحالين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمة . فاذا خرجت من ظلام الستار الى ضوء النهار، كانت طاغية جاهلة كزوجة معروف الاسكاف، أو لصة حيالة كدليلة بنتها زينب ، أو قوادة مرتادة كأولئك العجائز اللاتى ينقلن الفتنة من مكان الى مكان ، ويحلين المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقى فى القرون الوسطى من العادات والأخلاق والمراسم فى السوامر والولائم والأعراس والمآتم والأسواق والمحاكم، فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبقة المصرية فى هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع، لأن القصاص وهم مصريون، تكلموا عن علم ،ووضعوا عن رؤية،ونقلوا عن سماع . فاذا قرأتم مثلا حكاية نور الدين وشمس الدين ،وجدتم المصريين كانوا فى حفلة العقد، يطلقون البخور،ويشربون السكر،ويمسحون الوجوه بماء الورد ، وفى زفاف العروس ينقطون المواشط القيان ، بألقاء النقود فى الدف أو الاطار كما يسميه ألف ليلة وليلة ، أو الطار كما يسمى الآن فى مصر . وفى جلوتها على المنصة يجلسونها بين صفين من كرائم السيدات، فى يد كل منهن شمعة موقدة، ثم يلبسونها حلة بعد حلة فى فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلل،ومع كل سيدة من المدعوات إلى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة إلى تمام السبع ؛ ولا تزال هذه العادات باقية فى بعض البلاد وبعض الأسر فى مصر .

وإذا قرأتم حكاية علاء الدين أبى الشامات وجدتموهم كانوا يتعاطون الحشيش قوة للزوج، ويتخذون المحلل خلاصا من الطلقة الثالثة، وهما خلتان شائعتان اليوم فى الطبقة الدنيا. اقرأوا حكاية معروف الاسكاف ،تجدوه مثالا صادقا لبعض الناس هناك فى ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الأبهة،وتبذير ما فى الجيب اتكالا على الغيب،واهتضاما للحق ؛ وتجدوا زوجه فاطمة التى فر من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها إلى أقصى مجاهل الأرض فتبعته لايزال لها شبه فى الباقيات الطالحات بمصر من عهد الجهالة .

أما الطبقة البغدادية فقد عبث بها القصاص وشابوها بلهجاتهم وعاداتهم ، ولكنها مع ذلك حرية بثقة الباحث ، إذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقى علينا أن نعرف وجهة كتابنا فى الدين . وليس من العسير على القارىء العادى أن يتبين تلك الوجهة، فان فى كل صفحة من صفحاته دليلا على أنه مسلم صادق الايمان قوى العقيدة

يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العامى الواثق المطمئن، فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق، حتى فى مقام الحكمة والموعظة، لايكاد يذكر حديثا ولا آية، وإنما يستند فى ذلك إلى مأثور الشعر ومنثور الحكم. فسبيله فى الدين إذن، أن يدعو اليه، ويهتف به، ويتعصب له، لذلك تراه لايتحدث إلا عن المسلمين ولا يتخذ أشخاصاً لقصصه حتى الأجنبية منها الا من المسلمين، فاذا كان أحد الجنة أو الناس غير مسلم واضطر إلى الحديث عنه، انتهى به إلى الاسلام أو دبر له عقبى سيئة، وذلك نادر كما فعل فى حكاية مسرور المسيحى وزين المواصف وزوجها اليهوديين. فالحبيب والحبيبة أسلما فرفرفت عليهما ظلال النعيم والحب، وظل الزوج يهوديا فدفنته امرأته حيا. وألف ليلة وليلة بعد ذلك سنى، لايكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الاسلام حتى الشيعة، وكان لهم على عهده فى مصر دولة الفاطميين وفى العراق نفوذ البويهيين، لم يذكرهم إلا فى حكاية علاء الدين، وهى مكتوبة بمصر على عهد المماليك. ولقد دل حين تعرض لهم فى هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة، فقد أشار فى موضع منها إلى أن الروافض كانوا يكتبون اسمى الشيخين على بواطن الأعقاب، وقال فى موضع ثان: إن أهل بغداد كانوا يغلقون الأبواب خوفا من الروافض أن يلقوا الكتب فى دجلة، وقال فى موضع ثالث: إن الرشيد سأل الرجل الذى هم باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان، فنجاه أصلان من علاء الدين: أما أنت مسلم؟ فقال كلا، وإنما أنا رافضى.

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته

صنف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات ألف ليلة وليلة فكان ثلاث مجموعات مختلفة، مجموعة أسيوية ومجموعتين مصريتين. فأما المجموعة الأسيوية، وهى أقدمهن، فلا تشتمل إلا على القسم الأول من الكتاب، وإحدى نسخها مبتورة، وأشهرها نسخة كالكوتا، وهى تحتوى على مائتى ليلة، وقد شرع بطبعها الشيخ اليمنى فى جزأين بمدينة كلكوتا سنة ١٨١٤ وأتمها سنة ١٨١٨، فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب فى الشرق والغرب، ثم نسخة برسلو، وهى التى طبعها الأستاذ (هبكت) فى اثنى عشر جزءاً، ظهر الجزء الأول فى سنة ١٨٢٥ والأخير سنة ١٨٤٣. وأما المجموعتان المصريتان فهما أحدث من الأولى، وبين نسخهما اختلاف شديد فى الأسلوب والترتيب والعدد والقصص، ومن هاتين المجموعتين نسخة كالكوتا الثانية التى جمعها وطبعها الأستاذ (ماك نوكشن) فى أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٢، ثم نسخة بولاق التى طبعتها الحكومة المصرية فى مطبعة القاهرة سنة ١٨٣٥ فى مجلدين، وهى أكمل النسخ جميعاً وأصحها، وعنها صدرت جميع الطبعات فى مصر والشام وبومباى. ونقلت جميع الترجمات إلى جميع اللغات ماعدا ترجمة (جالان). فاما الطبعات فكلهن سواسية فى قبح الشكل وسوء النقل وقلة

العناية لصدورهن عن أرباب المكاتب وأصحاب المطابع ، وهؤلاء يبتغون أوفر ربح فى أيسر كلفة ؛ على أن أديبا من الأدباء المسيحيين قد طبعه ببيروت طبعاً جميلا فى أربعة مجلدات بعد أن قص من قصصه واقتضب من جمله وهذب من عبارته ، ثم جاء الأستاذ منشىء الهلال فأربى عليه فى الحذف والبتر والاختصار وطبعه فى مصر فى خمسة أجزاء صغار . وهاتان الطبعتان، ولا سيما الأولى،أليق الطبعات بأخلاق الفتى وحياء الفتاة، ولكنهما لاتنقعان غلة الأديب الباحث.

وأما الترجمات فأولها فى الوجود ترجمة الأستاذ جالان،وهى أنيقة الأسلوب رائعة السبك، إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية. على أن لها اليد الطولى على الكتاب فى التعريف به، والتنويه باسمه، والدلالة على فضله، طبعت هذه الترجمة فى باريس فى اثنى عشر مجلدا ابتداءاً من سنة ١٧٠٤ إلى سنة ١٧١٧ ، ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة إنجليزية مختصرة فى ستة مجلدات بعنوان الليالى العربية. وأشهر الترجمات بعد ذلك ــ فى السعة والدقة والصدق ــ ترجمة بورشن بالانجليزية، وترجمة ماردروس بالفرنسية وترجمة هبكت بالألمانية .

ذلك ياسادتى مايتحمله المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وإنكم لترون من هذا الاجمال فعل القريحة العربية فيه، ومظهر العقيدة الاسلامية فى جميع نواحيه ، وطابع العظمة السامية فى أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنوانا عريضا من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحيوية القاهرة والشخصية الآمرة فى آبائنا ، وإلا فماذا نفسر هذا ؟ لقد خلفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائماً فى رسالة محمد، وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً فى فلسفة ابن رشد ، وخلفوا الرومان على الحضارة فبهر العالم بالعمران والعدل فى عصر الرشيد، وخلفوا الفرس على الأدب فأخضعوا ألسنتهم وأفئدتهم لأدب القرآن، وخلفوا الهنود على القصص فأروهم روعة الجمال وقوة الالهام فى ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأمم العظمى على أكثر الأرض فأوشكوا أن يعربوا العالم : فليت شعرى أتغيرت الصحراء أم فسدت الدماء أم ضويت الابناء أم هى ربضة الأسد واستجامة المتعب واستجاعة الواثب ، ثم استئناف الهجمة الأولى على الموقع الأول فى الحياة . ؟ ؟

لقد أعنتكم طويلا وأتعبتكم كثيراً ، وكدت أخرج من المحاضرة إلى الخطابة ، فعذراً ياسادتى وشكراً ؟

أحمد حسن الزيات

بين انسان وحمامة ..!!

الحمامة : أيها الانسان العاتى الجبار ؟ لماذا تعتدى على عشى فتحطمه ، وقد لاقيت فى بنائه كثيراً من المتاعب ؟! لقد جمعته قشة قشة ، بعد جهد ونصب ، فكنت أهبط إلى الأرض فآخذ القشة بمنقارى ثم أطير إلى أعلى الشجرة فأضعها ، ثم أهبط وأصعد مئات المرات حتى صيرته صالحا للمأواى ووضعت فيه بويضاتى وفقست فيه أفراخى الصغيرة فلم تعدو على فتحطم عشى وتذبح أفراخى !!؟

لماذا أنت تعدو عليها ، وتكلم قلبى بفقدها ، وتورثنى الهم والحزن؟

***

أمن الانسانية التى تنتمى اليها أن تعدو على حماماتى ،وقد خلقنا سواسية من طينة واحدة وأباح الله لنا الأرض ننعم بخيراتها معا ونحن نشترك فى الحيوانية ؟ غير أن الله زودك بما لم يزودنى به من قدرة وقوة ، وإزاء ذلك كلفك بواجبات ، وأثقل كاهلك بتكاليف لم يكلفنى بها ، وأوصاك أن تكون بالضعفاء رءوفا رحيما ، وأن لاتخرب بيتا ، ولاتؤذ جارا ؟ فلم تعتدى على فتذبح أفراخى وتورثنى الهم والحزن ؟ !

***

إن خالقى وخالقك وهب لك عقلا وقوة ، وقيدك بتكاليف وواجبات ، وخلقنى ضعيفة لا أقوى على شىء فى الحياة ، ولذا وهبنى حرية مطلقة ، أتنقل فى أى من الأرض شئت ، وآكل من أى حقل أحببت ، لا يعيقنى عائق ، ولا يمنعنى مانع ، أسكن أعالى الأشجار وتحت رحمة الأقدار تظللنى السماء ، وأما أنت فتسكن على سطح الأرض تتخذ من جبالها بيوتا ، وتحجب ما بينك وبينها بكثيف الحجب بما تشيد من قصور وعمارات ، وقيدت نفسك ، ووضعت الغل فى عنقك بيدك بقوانين وضعتها أو تقاليد اخترعتها أفقدتك حريتك وصيرتك عبداً ذليلا ، وقد خلقك الله حرا طليقا ، فلماذا الان تعدو على وتذبح أفراخى وتورثنى الهم والحزن ؟ !

الانسان : لقد أسهبت أيتها الحمامة ، وأطلت اللوم والتعنيف ، وطالت توسلاتك

(البقية على الصفحة ٣٢٨)

نظرية الاعداد للحياة المستقبلة

ونظريات أخرى فى اللعب

للدكتور على عبد الواحد وافى

يلاحظ أن لصغار كل طائفة من الحيوانات — بما فيها الانسان — ألعابا محدودة تشبه تماما الأعمال الجوهرية التى تقوم بها كبار هذه الطائفة ، أو بعبارة أخرى ، تشبه تماما الأعمال الأساسية التى سيضطرها نوع حياتها هى إلى القيام بها بعد طور الطفولة .

فالهريرة مثلا تثب أثناء لعبها على الكرة أو على قطعة الورق التى تمررها أمامها ، كما تثب الهرة الكبيرة على الفأرة ، وكما ستثب هى نفسها فى المستقبل على فريستها ، وبعد لحاقها بها تعبث بها عبثاً مشبهة حركاته للحركات التى تعملها الهرة مع الفأرة بعد اقتناصها ، وواضح أن الصيد هو أهم مايحتمه على الهرة جنسها ونوع حياتها .

والحملان تتناطح أثناء لعبها مناطحة مشبهة حركاتها لما يعمله الخراف الكبار أثناء دفاعها عن نفسها ، الأمر الذى يتكون منه أهم قسم من مظاهر نشاطها والذى يحتمه عليها ضعفها وكثرة أعدائها الأقوياء . وما قلناه فى الهر والحمل يصدق على ما عداها من الطوائف الحيوانيـة .

ولكننا لانرى أبداً — من بين الألعاب التى تقوم بها صغار أية طائفة حيوانية — ألعابا تمثل مظاهر النشاط الأساسية ، التى تقوم بها كبار طائفة أخرى ، فلو أمررت أمام الحمل أو الطفل الانسانى حبلا ، ماحدثته نفسه باتباعه والوثوب عليه كما تفعل الهريرة ، ولم نر طفلا إنسانياً يناطح زميله ، أو هريرة تناطح هريرة أثناء لعبهما كما تفعل الحملان .

وقد دعت هذه الحقائق العالم الألمانى (كارل جروس) إلى تقرير « نظرية الاعداد للحياة المستقبلة » فى كتاب له ، عنوانه « ألعاب الحيوانات » ، ظهر سنه ١٨٩٦ . وهى تتلخص فى أن ألعاب كل كائن حيوانى فى طور طفولته ، ما هى إلا إعداد له للمستقبل ، أى تمرين له على الأعمال الجدية التى سيحتمها عليه نوع حياته فى طور الرجولة .

يولد الحيوان مزودا بكمية من الغرائز والاستعدادات الوراثية ، التى تتلاءم مع نوع حياته ، ومع الأعمال الأساسية للطائفة الحيوانية التى ينتمى إليها ، غير أن هذه القوى الوراثية ليست بحالة تسمح لها أن تؤدى وظائفها بشكل جدى وبطريقة منظمة ، بل هى محتاجة لأن تدرب أولا على أداء هـذه الوظائف فى أمور غير جدية وغير منهكة ، حتى تمرن

عليها وتقوى على القيام بها على الوجه الجدى الكامل . وكلما كانت الطبقة التى ينتمى إليها الحيوان راقية ، ومتعددة أعمالها ، كان الوقت الذى يتطلبه هذا التدريب طويلا وبالعكس ، لذلك زودت الطبيعة الطفل الحيوانى بغريزة اللعب ليقوم بوساطته بهذا التمرين ، وجعلت طور الطفولة ، أى الزمن المخصص للعب متلائما مع رقى الطبقة التى ينتمى إليها ومع أعمالها . فالطفولة تكاد تكون معدومة عند أحط طبقات المملكة الحيوانية ، كالحيوانات الصدفية وما إليها ، فى حين أنها أطول ما تكون عند أرقى هذه الطبقات وهو الانسان — وهذا ما دعا (كارل جروس) إلى أن يقول « لايلعب الكائن الحيوانى لأنه طفل، بل إنه قد منح الطفولة ليلعب » .

فأنت ترى أن العناصر التى تتألف منها النظرية التى نحن بصدد الكلام فيها، تجعلنا نعتبرها النقيض لنظرية ستانلى هول(١) : فبينما هول يقرر أن ليس للعب وظيفة إلا القضاء على غرائز لاتتلاءم مع بيئة الطفل ، وتطهيره من الماضى، إذ (جروس) يثبت أن وظيفته الفذة تقوية غرائز ضرورية لنوع حياته ، وإعداده للمستقبل .

هذا ، واعتبار اللعب عاملا من عوامل الاعداد للحياة المستقبلة قد رآه ، قبل كارل جروس ، كثير من العلماء ، نخص بالذكر منهم : جان جاك روسو ، وفروبل ، وجون ستراتشان (طبيب انجليزى أبدى هذا الرأى فى كتاب له عنوانه « ماهو اللعب ؟ » ، ظهر سنة ١٨٧٧ ، وظل مجهولا لكثير من المربين حتى أوائل القرن العشرين) . غير أن لكارل جروس يرجع الفضل فى عرض هذه النظرية بشكل فنى ، وفى بنائها على أسس علمية متينة ، فهو جدير — إلى حد كبير — بأن تنسب إليه .

وهى أصدق ماقيل فى وظيفة اللعب وفى أسبابه ، إذ لايكاد يرد عليها أى اعتراض من الاعتراضات التى وجهناها للنظريات السابقة، والتى يكفى الرجوع إليها(٢) ، ليتبين لك ماتشتمل عليه هذه النظرية الجليلة من صدق الملاحظة وبعد النظر ، ومتانة البحث .

ولكنه من الصعب التسلم ، مع بعض المتعصبين لها ، بأن ليس للعب وظيفة غير الاعداد للحياة المستقبلة . حقا إن الوظيفة الأساسية للعب هى تلك التى تحدثنا عنها هذه النظرية ، ولكن اللعب مع أدائه هذه الوظيفة الأساسية يقوم بوظائف أخرى ، كثير منها ذو أهمية فى حياة الطفل الفردية والاجتماعية . ومن هذه الوظائف ماتنبه له قائلو النظريات السابقة (الراحة(٣) ، تفريغ القوى الزائدة عن الحاجة(٤) ، التخلص من بعض اتجاهات وراثية ، لا يتلاءم بقاؤها عند الطفل مع الشكل الذى تتطلب حياته الاجتماعية أن يكون عليه(٥)) ، ومنها ما تنبه له قائلو النظريات التى سنذكرها لك .

---

(١) راجع عدد يونية سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » صفحات : ٢١١ — ٢١٤

(٢) راجع عدد يونية سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » صفحات : ٢٠٩ — ٢١٤

(٣) عدد يونية ٢٠٩ ، ٢١٠ (٤) ٢١٠ ، ٢١١ (٥) ٢١١ — ٢١٤

نظرية المساعدة على النمو الجسمي

قرر الأستاذ « كار » أن اللعب عامل من العوامل المساعدة على نمو أعضاء الجسم المختلفة ، وخاصة المخ وبقية أعضاء الجهاز العصبي ، نموا يساعد هذه الأعضاء على القيام بوظائفها على الوجه الصحيح .

عند مايولد الطفل لا يكون مخه بحالة تسمح له بأداء وظيفته أداء كاملا ، فإن كمية كبيرة من منسوجاته تكون وقتئذ مجردة من الغشاء « الميلينى » أى من الغشاء الدهنى الذى يفصلها بعضها عن بعض ، كما تفصل « الجو تابيرشا » (الصمغ السومطرى) الأسلاك الكهربائية بعضها عن بعض — ومن المقرر أن الأنسجة المخية لا يمكنها القيام بوظائفها حق القيام ، مادامت مجردة من هذا الغشاء الميلينى ، وأن مما يساعدها على اكتسابه تدريجيا إثارتها بأداء الحركات التى تشرف على أدائها مراكز هذه الأنسجة . فاللعب ، لاشتماله على حركات يشرف على أدائها كثير من المراكز العصبية ، يعمل على إثارة الأنسجة المخية وتحريكها ، إثارة وتحريكا يكسبانها تدريجيا ما يعوزها من الأغشية « الميلينية » ، ويعدانها بذلك لأداء وظائفها على الوجه الكامل .

وقد أيدت التجارب مايقوله الأستاذ « كار » بشأن المراكز المخية ، فإننا لو خطنا جفنى هر مثلا بعد ولادته مباشرة ، وتركناه كذلك مغمض العينين بضعة شهور ، ثم اختبرنا مخه لوجدنا مراكزه النظرية (أى المراكز المخية المشرفة على أعمال النظر) ، قد وقف نموها ولم تكتسب الغشاء الميلينى ، وذلك لأنه لم تتح له فرصة إثارة أنسجتها وتحريكها ، بأداء الحركات المشرفة عليها هذه المراكز ، فقد حالت عمليتنا بينه وبين استعمال عينيه . ولو قطع ذراع طفل أو رجله بعد ولادته مباشرة أو فى طور طفولته الأولى ، ثم اختبرنا مخه بعد بضع سنين ، لوجدنا مراكزه الحركية (أى المراكز المخية المشرفة على الحركة) ، قد وقف نموها ، ولم تكتسب الغشاء الميلينى ، وذلك لنفس السبب الذى ذكرناه فى التجربة الأولى . وما قلناه فى المراكز النظرية والحركية ينطبق على ما عداها من مراكز المخ المختلفة ، وبذلك تصدق النظرية البيولوجية التى تقول « الوظيفة تخلق العضو » أى أن استعمال عضو قاصر عن أداء وظيفته فى الأعمال التى خلق لأجلها استعمالا متكررا يشكله تشكيلا عضليا يسمح له بأدائها على الوجه الكامل .

هذا فيما يتعلق بتأثير اللعب فى نمو المخ ، أما تأثيره فى نمو العضلات نموا يساعد على قيامها بوظائفها على الوجه الكامل ، فلسنا فى حاجة الى البرهنة عليه ، فقد أصبح من البديهيات أن كثرة استخدام عضو فى أمر ما ، تنميه وتشكله تشكيلا عضليا خاصا ، يسمح له بأداء هذا الأمر بسهولة (وهذا من أسس تكوين العادة) . وفى الحركات اللعبية يستخدم الطفل كثيرا من أعضائه فيما خلقت له ، فلا جرم أن تكون هذه الحركات من عوامل

نموه الجسمى وإعداد أعضائه للقيام بوظائفها .

وهذه النظرية ، تتفق مع النظرية السابقة فى أن كلتيهما تعتبر اللعب عاملا من عوامل الاعداد للحياة المستقبلة ، لتمرين قوى الطفل على القيام بوظائفها ، وتختلفان فى تحديد القوى التى يؤثر فيها اللعب هذا التأثير : فالأولى تنظر إلى تأثيره فى الغرائز والاستعدادات النفسية ، وهذه تنظر إلى تأثيره فى المخ وبقية الأعضاء الجسمية

ومما يجب التنبيه إليه أن الأستاذ (كار) لم يزعم أن ليس للعب وظيفة إلا المساعدة على النمو الجسمى ، بل قد كان غرضه من نظريته مجرد بيان وظيفة من الوظائف التى أغفلها قائلو النظريات السابقة ؛ وبذلك لم يدع لأحد أى مجال للاعتراض عليه .

نظرية التوازن

ليس لدى الأنسان من الأعمال الجدية ، ما يسمح بأشباع كل اتجاهاته وغرائزه ، فلكل منا وظائف خاصة فى حياته العملية ، لا تكاد تغذى إلا طائفة قليلة من هذه الغرائز والاتجاهات. وقد زودت الطبيعة الأنسان باللعب، ليقوم بوساطته بتغذية مالا تسمح حياته العملية بتغذيته من غرائزه واتجاهاته ، وبذلك يستقر التوازن بين مختلف قواه النفسية . فالكاتب أو الطالب مثلا حينما يقضى أوقات فراغه فى ألعاب الصيد ، أو الزراعة ، أو الحرب ، أو الفروسية ، أو السباحة ، أو الغناء ، أو فى تسلق الجبال ، أو فى قطع المسافات سيرا على الأقدام ، أو فى تجذيف القوارب . . . يغذى بذلك مالديه من الاتجاهات التى لا تسمح أعماله الجدية باشباعها ، والتى لا يمكن أن يتركها معطلة تماما دون أن يختل التوازن بين قواه النفسية .

وأول من قرر هذه النظرية الأستاذ (كونراد لانج) وهى ، كسابقتها ، تنبهنا إلى وظيفة ذات أهمية ، غفل عنها قائلو النظريات السابقة ؛ غير أن هذه الوظيفة لا تتحقق بشكل تام إلا فى بعض ألعاب من جاوز طور الطفولة .

نظرية التنفيس أو التهدئة

قد زودت الطبيعة كل انسان بطائفة كبيرة من الغرائز والاتجاهات الشديدة السيطرة على النفس، والتى قيدت النظم الاجتماعية كيفية استعمالها تقييدا لا يسمح لكل فرد باشباعها. فغريزة المبارزة والغريزة التناسلية، مثلا، لم تجز النظم الاجتماعية تلبية ندائهما، إلا فى أحوال خاصة وبقيود كثيرة ، (الأولى فى حالة الحرب أو الدفاع عن النفس وما إليهما . . ، والثانية فى حالة زواج شرعى أو ملك يمين . . .). أحوال وقيود تحولان دون إشباعهما عند كثير من الناس ، فاللعب ـ لاشتماله

على عناصر غير محظورة اجتماعيا، وشبيهة بالأمور التي يتطلبها الأشباع الحقيقي لهذه الاتجاهات من شأنه أن يرضيها بعض الشيء فيهدىء سورتها، ويخفف من حدتها، ويحول دون ما عساه أن يحدث من جراء تركها بدون أي غذاء من الانفجارات السيئة المغبة للفرد والمجتمع، أو من جراء تلبية ندائها تلبية كاملة من تعدى الحدود الاجتماعية.

وإليك طائفة من العناصر اللعبية التي نشير إليها:

١ ـ ألعاب من شأنها أن تهدىء غريزة المبارزة: ألعاب الكرة، و«التنس»، والملاكمة، والشطرنج والنرد، والنكات الهجومية، والمسابات الهزلية... الخ

٢ ـ ألعاب من شأنها أن تهدىء الغريزة التناسلية (وتظهر بشكل واضح في طور البلوغ): رقص الرجل مع المرأة (عند الامم التي تجيزه تقاليدها)، قراءة الروايات الغرامية، قرض النسيب، الخيالات الغزلية ... الخ ... الخ.

وتتفق هذه النظرية مع النظرية السابقة، في أن كلتيهما تعتبر اللعب عاملا من العوامل المشبعة لاتجاهات غير ميسور إشباعها بطرق جدية، وفي أن كلتيهما لا تصدق تماما إلا في بعض ألعاب من جاوز طور الطفولة، وتختلفان في تحديد الاتجاهات، التي يؤثر فيها اللعب هذا التأثير: فالأولى تنظر إلى اتجاهات لا تسمح حياة الفرد العملية باشباعها، وهذه إلى اتجاهات تحول النظم الاجتماعية دون إجابة داعيها.

وصاحب النظرية التي نحن بصدد الكلام فيها، هو الأستاذ «كار» القائل بنظرية «المساعدة على النمو الجسمي» السابق ذكرها.

وظائف ثانوية للعب

للعب ـ فضلا عن الوظيفة الأساسية، التي تقدم لك ذكرها في النظريتين الاوليين: الاعداد للحياة المستقبلة والمساعدة على النمو الجسمي، وفضلا عن الوظائف التي تنبه لها قائلو النظريات الأخرى ـ وظائف أخرى ثانوية يرجع إلى الاستاذ كار، فضل الارشاد إلى كثير منها، أهمها ما يلي:

(أولا) اللعب ينقذ الانسان من الملل والضجر وضيق الصدر، وما إلى ذلك من الأمور الألمية، التي يسببها عادة عند بعض الناس عدم وجود أعمال جدية لديهم.

وهذه الوظيفة تقرب من الوظيفة المذكورة في نظرية القوى الزائدة (١) (ففيها تفريغ قوى مكدسة)، ومن الوظيفة المذكورة في نظريتي التوازن والتهدئة (ففيها إشباع اتجاهات غير ميسور إشباعها بطرق جدية). ومن الواضح أن هذه الوظيفة لا تكاد تتحقق بشكل تام إلا في بعض ألعاب من بلغ سن الرشد.

(ثانيا) اللعب ينسى الأنسان ما لديه من الالام الجسمية والنفسية، أو على الأقل يخفف

(١) راجع مجلة «المعرفة» عدد يونيه ١٩٣٢ ص ٢١٠

من وطأته . فكثيرا مارأينا مرضى تهون عليهم ألعابهم حدة مصابهم الجسمانى ، وجنوداً مبعوثا بهم إلى ساحة القتال ،تلهيهم أغنياتهم وجلباتهم اللعبية ، عن التفكير فيما يحيط بهم من المخاطر . . . وهلم جرا .

(ثالثا) اللعب عامل من العوامل التى تقوى فى الطفل غرائزه الاجتماعية ، فلا يخفى أن طائفة كبيرة من الألعاب تشعر الطفل بحاجته القصوى إلى الجماعة ، وأن بعض ألعاب تشتمل على أمور جديرة بأن تتعهد اتجاهاته المدنية ، وتعمل على إنمائها ، وتحبب إليه الجمعية (ألعاب الأعياد ، والرقص ... الخ) . ومن الممكن اعتبار هذه الوظيفة جزءا من الوظيفة المذكورة فى نظرية الاعداد للحياة المستقبلة .

(رابعا) بعض أنواع الألعاب يساعد على إيصال التقاليد الاجتماعية المعمول بها فى جيل ما إلى الجيل اللاحق له ، وذلك كالأغنيات القصصية (لكل شعب أقاصيصه التى تحتوى على كثير من تقاليده ونظمه الاجتماعية) ، وكالأغنيات الوطنية ، وكالألعاب التى يحاكى بها الأطفال أفراح أمتهم ، ومآتمها وأعمالها الدينية ، ونظمها التعليمية ، ومجتمعاتها السياسية ... وما إلى ذلك .— ومع أن هذه الوظيفة المهمة قد انتفعت بها الأمم الانسانية ، من منذ أقدم عصورها ، فان كثيرا من المربين الحاليين لم يتنبهوا لها .

هذا — ومن الميسور اعتبار هذه الوظيفة مظهراً من مظاهر الاعداد للحياة المستقبلة ؟

على عبد الواحد وافى

بين انسان وحمامة . . ! !

(بقية المنشور على الصفحة ٣٢٢)

وتعطفاتك ، ولكن كل هذا لا يجديك فتيلا ، ولا يغنى عنك بديلا ، فلقد خلقنى الله سيد المخلوقات ، وأقرنى على ما فى هذه الأرض من الكائنات ، ووهب لى عقلا أزن به كل شىء ولذا فضلنى تفضيلا ؛ فأقول لك إن الدموع لا تجدى فى الحياة ، وإنما الذى يجدى هو القوة . ! ! فان لها دائما الغلبة والسلطان ، وإن الحياة لا يستحقها إلا من يستطيع أن يقاوم ويتغلب ، ويجالد الأعاصير ويقهر ، ولا يستحق أن يعيش تحت الشمس إلا من يتحمل حرارتها ، ويقدر منفعتها ، ويستغل كل ذرة من ذراتها ، وأما الضعيف الواهن الذى لا يستطيع أن يقاوم ويعيش كلا على غيره فلا يستحق أن يعيش ، ولا أن يتمتع بحرارة الشمس ، والحياة جلاد لا تجديها الدموع ولا التوسلات !!!

السيد العنانى

٢ – الحكمة الصينية*

كونفوشيوس

بقلم الدكتور على العنانى

١ – ترجمة حياته

المفكر العظيم فى الحياة العقلية الصينية بعد الفيلسوف الكبير لاؤتسه هو كونفوشيوس، الذى بلغ الدرجة العظمى فى انتشار تعاليمه، وفى تأثيرها النافع فى الأمة الصينية وأنام وكوريا واليابان.

ولد كونفوشيوس فى سنة ٥٥١ قبل الميلاد، وتوفى سنة ٤٧٩ أو سنة ٤٧٦، وهو سلالة أسرة حسيبة فى مقاطعة (لو) المعروفة الآن باسم شانتونج. وقد أحاط الصينيون ميلاده بعجائب ومعجزات، شأن قادة الفكر العظام فى أممهم مثل زرادشترا عند الفرس، وفيثاغورس عند الأغريق مثلا.

وقد فقد هذا العظيم والديه، وهو لا يزال فى عهد الطفولة، فنشأ فقيراً، وتحمل – وهو فى ميعة الشباب – كثيراً من قسوة الدهر وشحه على أرباب العقول الكبيرة بالفطرة فى إبان الصبا، وإن سالمهم عادة، وفى الغالب بعد استكمال الرجولة، وظهور تفوقهم فى النبوغ العقلى وحملهم ألوية التفكير.

لم يعدم الصبى الفقير كونفوشيوس رغم فقره التخرج على أفاضل المعلمين، والتثقف فى الأوساط العلمية الراقية، فبلغ فى ذلك درجة عظمى فى قليل من الزمن وفى حداثة السن، لما كان عليه من الذكاء الفطرى وقوة العقل: حتى أنه نصب نفسه للتعليم وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، فألقى دروساً فى الأخلاق، وفى المبادىء الاجتماعية الموروثة عن الأسلاف الأولين، وبخاصة فى تقاليد وأوضاع رؤساء الأسرة الثالثة المعروفة باسم اتشى (١١٢٢ – ٢١٦)[1]

لم يكن كونفوشيوس ميالا إلى العزلة والانقطاع عن الناس، كما كان لاؤتسه، بل عاش

(*) راجع مجلة (المعرفة) العدد الاول من السنة الثانية مايو سنة ١٩٣٢ ص ١٤

(١) راجع العدد الاول من السنة الثانية لمجلة النهضة الفكرية فى مقالنا (الدولة الصينية)

موظفاً ومعلماً ومتصلا بالأفراد والجماعات والحياة العملية العامة . ومثله فى هذا عند الصينيين كمثل سقراط عند اليونان ، وبدل أن يسبح فى محيط الخيال ، وأن يدفع ذهنه إلى عالم المعنى كلاؤتسه ، ويسير على سننه فى بذل جهوده الفكرية فى المباحث النظرية الفلسفية العويصة ، والبعيدة عن متناول عقول الجماهير، عمد مباشرة إلى الحياة العملية وضرورات الزمن وحاجات الأمة ، ففكر فيها غرض إنقاذها إنقاذاً عملياً لا نظرياً من كبوتها الاجتماعية الأخلاقية، وانتشالها من الانحلال السياسى، وعودتها إلى الوحدة القومية .

لهذا اختط كونفوشيوس لنفسه فى تفكيره وتكوين تعاليمه خطة عملية، واصطنع له طريقة ناجحة سهلة ، وهى الرجوع إلى المؤلفات الصينية الرئيسية المعروفة باسم (القوانين) ، فاستقى منها معارفه وعلومه وثقافته العامة وعمد إلى تهذيبها وشرحها، ولم يدون كتباً عميقة فى التفكير النظرى يصعب فهمها على الجماهير، بل جعل كل ما دونه نصاً فى آرائه وتعاليمه مباشرة بعبارة واضحة سهلة يفقهها القارىء بدون أى عناء .

وبناء على ذلك لم يكن كونفوشيوس فيلسوفاً يفكر فى أسرار الوجود ومبدئه الأول ، ولا باحثاً فى ماوراء الطبيعة ، كذلك لم تصل رسالته فى أمته إلى تكوين دين جديد ، لأن تعاليمه العملية قد قضت بالاحتفاظ بالدين الأسطورى القديم ؛ ورغماً من أن كونفوشيوس لم يكن فيلسوفاً ولا زعيما دينياً، جاء برسالة من قوة معنوية عليا، فانه كان عظيما فى قومه مقدساً فى أمته ، ولم تعرف الصين أكبر منه فى نوعه ؛ وكانت تعاليمه الأخلاقية العملية ــ على أنها غير جديدة فى العموم ــ مؤثرة محبوبة استمالت الأمة اليها وبلغت عندها مكانة لم تبلغها أى تعاليم أخرى ــ لذلك استند اليها الدين الرسمى والنظام الاجتماعى القومى فى البلاد، ولا يزال التشريع الصينى يرتكز عليها حتى الآن .

كان كونفوشيوس فى تفكيره وفى نشر تعاليمه حراً لا يلجأ إلى مايرضى الحاكم، ولا يترك ما يغضبه ، لأنه يغضبه ، بل يذيعه غير هياب ولا وجل، وقد ترتب على ذلك نفور البلاط منه فى بعض الأحيان ووقوعه تحت عقوبة السجن؛ ورغم ذلك فانه قد وصل بمكانته السامية فى أغلب الأحيان إلى اجتذاب ولاء مولاه اليه، حتى وصل إلى درجة وزير له (لكن هذه الرعاية السامية لم تلبث للسبب المتقدم أن انعكست عليه، فاضطر إلى الهرب من البلاد والتجوال خارج الحدود الصينية ، ومكث على ذلك ثلاث عشرة سنة؛ وفى سنة ٤٨٣ ق.م تمكن من العودة إلى وطنه ، وإلى عمله الذى ابتدأه من قبل ، حتى وافته منيته سنة ٤٧٩ ق . م أو ٤٧٦ ق.م

بقى كونفوشيوس بعد وفاته عند الأمة الصينية خالداً مقدساً ، كما بقيت تعاليمه كذلك ، وقد ارتفعت أسرته به إلى أقصى درجات الشرف والنبالة ، لدرجة أنها نالت الاشتراك مع البيت المالك فى مزايا واختصاصات كثيرة .

أقام الصينيون لهذا المصلح العظيم تماثيل ومعابد فى كل أقاليم الصين، واعتبروه أباً لعامة الشعب الصينى، وقدسوا روحه بطقوس العبادة فى معابده التى شيدت تقديساً له.

٢ — تعاليمه

ترجع تعاليم كونفوشيوس إلى خمسة أسفار قديمة ، تعرف عند الصينيين بالقوانين،وإلى أربعة كتب تعزى إليه،والأولى هى : يك — كنج (Jik-King) كتاب التغيير . شو— كنج (Schu-King) كتاب التاريخ . شى — كنج (Schi-King) كتاب الأناشيد . لى ـ كنج (Li-King) كتاب العادات والعبادة . يوك كنج (Jok-King) كتاب الموسيقى .

هذب كونفوشيوس هذه الكتب الخمسة وعلق عليها واستقى منها تعاليمه التى وضعها فى الكتب الأربعة الآتية ، وهى : لون ـ يو (Lun-Ju) كتاب الحوار . تا ـ هيو (Ta-Hiu) كتاب الناموس الأكبر . اتشونج يونج (Tschung-Jung) كتاب الاعتدال . منج ـتسه (Meng-Tse) اسم المؤلف وهو من تلاميذ كونفوشيوس.

ويظهر أن هذه المؤلفات الأربعة لتلاميذ المعلم، ما عدا الكتاب الأول فانه من وضعه الخاص به . وتشتمل هذه الكتب المذكورة على مجهود كبير فى الأخلاق والعادات القديمة والنظم الاجتماعية ، وليس فيها مطلقاً أى تعرض لنظريات ما وراء الطبيعة ولو جاءت مناسبة للكلام والبحث فيها تخلص كونفوشيوس بقوله : « كل ما لا يتكلم فيه المعلم إنما هو معجزات وقوى وحركة وأرواح » ؛ وبتتبع هذه المؤلفات يصل الباحث إلى الحكم ، بأن الغرض منها ليس البحث فى الجهة العقلية النظرية، بل الاتجاه المباشر إلى الحياة العملية التى ترمى إلى إعادة الشعب الصينى إلى الأخذ ثانية بالأخلاق الفاضلة المرتكزة على التقاليد والعادات القديمة الموروثة عن الأسلاف الذين عاشوا فى هناء وسعادة بهذه العادات وتلك التقاليد . والخلاصة من ذلك ومما تقدم من ترجمة حياته، أن هذا المصلح الفذ لم يحاول وضع مذهب فلسفى، ولم يضع طريقة علمية ولا بحوثاً نظارية، ولم يقصد إلى وضع دين جديد ، رغم أنه قد تعرض هنا وهناك لى الكلام فى السماء (الاله) وتدبيره وانفراده بالقضاء والقدر اللذين لا يقاوماز ولا يعارضان. والنتيجة لذلك هى الحكم بأن تعاليم كونفوشيوس ليست فلسفة ولا نظراً علمياً ، بل هى آراء قويمة حاسمة فى الفضيلة والأخلاق وتهذيب الحياة الاجتماعية العملية فى هذه الحياة الدنيا وحدها دون أى نظر فيما وراء ذلك .

٣ — الانسان الفاضل

اذا بلغ الانسان الفضل الكامل كان مقدسا ، وطبيعة الانسان من حيث هى محض خير . والخير المحض موجب للقداسة ؛ فالانسان المقدس يمكن وجوده، غير أنه لا يوجد فى أفراد

الانسان -من وصل الى هذه القداسة- سوى عدد قليل. على أن كونفوشيوس يقول : « لا أعرف من هذا العدد أحداً ، ولهذا اكتفى لتكوين الانسان الفاضل بالقدر الأخلاقى الذى يرفعه إلى درجة السمو فى الخلق والنبالة فى المعاملة .... فالانسان الفاضل عنده من الجهة العملية هو الانسان النبيل الذى يتمتع فى ظاهر طبيعته وباطنها وفى تهذيبه الأخلاقى بالانسجام العام الموصل إلى الاعتدال بالجمع بين الافراط والتفريط .

٤ — الفضائل الأساسية

والفضائل الأساسية عند كونفوشيوس التى يرى أنها توصل إلى تكوين الانسان الفاضل هى : الحكمة — النبيل الانسانية — العدالة — الأمانة — الشجاعة .

والحكمة موصلة إلى الاعتدال، والانسانية تعلم الفرد كيف يكون إنسانا كاملا فى المجتمع، ينظم علاقاته الاجتماعية مع الناس تنظيما صحيحاً فاضلا ، وبذلك تنشأ العدالة السامية المهيمنة على الجرأة ، والمنظمة لحدود الشجاعة ، والباعثة على الأمانة ، والدافعة إلى العناية بالعادات القديمة والتقاليد الموروثة .

٥ — الواجبات

وأهم واجبات الانسان عند هذا المعلم الصينى، هى رعاية الفضائل الاجتماعية الخمس المذكورة سابقا ، فبها يهذب الفرد نفسه حتى يصير مثلا لغيره يقتدى به، وبها يعرف واجبه نحو الوالدين والمعلم والرئيس والوطن والمواطنين .

بهذه الواجبات والسير على مقتضاها يسعد الفرد وتسعد الأسرة ويصبح المجتمع فاضلا .

انتشرت هذه التعاليم فى البلاد الصينية، وأخذ بها جميع أفراد الشعب، وكانت عندهم المثل الأعلى ، ثم انتقلت إلى البلاد المجاورة للصين ، والتابعة فى عقليتها إلى العقلية الصينية ، وهى نام أوكوريا واليابان .

وقد استمرت هذه التعاليم حاكمة فى دولة الوسط إلى الوقت الحاضر، رغم مادخل عليها من التعاليم البوذية ، وما وصل اليها من المبادىء الاسلامية والنواميس المسيحية ، ومع ذلك فانها لم تسلم من العدوان عليها فى تاريخ تطورها. ففى منتصف القرن الثالث قبل المسيح وبعد سقوط أسرة إتشى وقيام أسرة اتزن قام قيصر شى - هوانج - تى (Schi-Hoang-ti) بتوحيد الدولة بالقوة لا بتعاليم كونفوشيوس . وكان من أمره أن أمر باحراق كتبه فى سنة ١٣٢ قبل الميلاد ،لأنه كان يبغضه ويبغض كتبه ومدرسته، ميالا إلى لاؤتسه وفلسفته ، وقرر عقوبة الاعدام على كل من يتكلم فى شأن هذه الكتب محبذاً لها ،ورغماً من ذلك فقد بقى منها بعض النسخ التى مكنت من دوام تعاليم كونفوشيوس حتى الآن ؟

على العنانى

ثروة المعادن الاقتصادية فى افريقيا

من أهم موارد الثروة الاقتصادية فى العالم ثروة المعادن وصناعة تعدينها ، إذ تستخرج كنوز دفينة ومواد معدنية ثمينة . وقد اختصت أفريقيا بمقدار وافر من المعادن العظيمة الأهمية التى تستخرج بنطاق واسع ، مما يجلب لها ملايين الجنيهات ، ولا تزال تعطى إنتاجات جديدة فى عالم الوجود ، وتكون هذه الثروة أساساً متيناً يبنى عليه نجاح مستقبل البلاد . وإليك بياناً تفصيلياً عن المعادن الهامة وإنتاجها المالى :

أولا — الماس : تعتبر افريقيا من أهم ممالك العالم الشهيرة باستخراجه ، حيث يوجد على شكل صخور بركانية ومنبعه «الترنسفال» . ويقدر ما يستخرج من هذه البلاد بنحو ٩٥ فى المائة من مجموع ما ينتجه العالم . وقد استخرج فى خلال الخمسين سنة الماضية من جنوب افريقيا مقدار عظيم ، إذ أن قيمة ما صدرته فى سنة ١٩٢٧ (١٢٫٠٨٢٫٥٠٠) جنيه مصرى ، بزيادة نحو (١٫٦٦٥٫٩٩٠) جنيها ، عن قيمة ما صدر منها فى السنة التى قبلها ، وذلك بالنسبة لما استخرج من الترنسفال . وقد أسست هناك حديثاً مناجم أهلية ، وهى سائرة فى سبيل النجاح التام .

ثانياً — الذهب : لقد أنتجت مناجم تعدين الذهب فى سنة ١٩٢٧ عشرة ملايين أوقية من هذا المعدن النفيس ، وتقدر قيمته بنحو (٤١٫٤٤٠٫٢٨٠) جنيها مصريا ، بزيادة (٧٣١٫٢٥٠) جنيها تقريباً عن السنة التى قبلها . والعمل يسير فى تحسين مستمر وتقدم مطرد ، ففى الستة الشهور الأولى من سنة ١٩٢٨ أنتجت الترنسفال وحدها (٥٫١١١٫٨٢٦) أوقية من الذهب ، وهى تعتبر من أهم موارد هذا المعدن فى العالم . وإن (جوهانسبرج) «مدينة الذهب» ، قد أنتجت وحدها ما مجموع قيمته (٨٩٢٫١٢٥٫٠٠٠) جنيه مصرى منذ إنتاجها ذلك المعدن ، وهذا من أهم المزايا الاقتصادية فى تاريخ حياة جنوب أفريقيا فى أثناء الأربعين سنة الأخيرة . وإن الشركات الأساسية لتعدين الذهب بجنوب أفريقيا يقدر رأس مالها بنحو (٣٣٫٠٩١٫٥٠٠) جنيه مصرى وعندها من الخامات ما قيمته (١٣٦٫٥٠٠٫٠٠٠) جنيه ، أى أن المتوسط المئوى للارباح يقرب من ١٦٠ فى المائة ، وأنه إذا ما هبطت الضرائب الباهظة التى تفرضها الحكومة هناك على صناعة تعدين الذهب ، يؤمل أن تمتد حياة هذه الصناعة فى المستقبل . وهذا مع العلم بأنه يترك جزء كبير من الخامات لا يستغل ، بالنسبة لأن ما يستخرج منها لا يعادل ما يصرف عليها ، فان متوسط العمق الذى وصلت إليه عمليات التنقيب فى هذا المنجم سنة ١٩٢٧ ، كان فوق الميل تحت السطح ، وهو عمق لا بأس به ، إذ أن أعمق حفرة فى العالم هى على عمق رأسى يقدر بنحو ٧٦٠٠ قدم أى نحو الميل والنصف تقريباً . ولا يخفى أن نقل الرجال والمواد إلى مثل هذه

الأعماق أمر شاق فى ذاته ولا سيما أن التهوية الكافية للمنجم تحتاج إلى عناية مستمرة يرعاها الموظفون المنوطون والمسئولون عن هذا العمل خاصة ، وتحتاج أيضاً عملية إمداد وتوزيع الهواء النقى فى الطبقات السفلى ، إلى مراقبة دقيقة ، ولا يخفى أن العمال الذين ينزلون تحت الأرض للعمل، يجب تعويدهم فى البدء على الأعمال البسيطة حتى تمكنهم أن يقوموا بعملهم خير قيام . وكل هذه الأمور (خلاف نقل أعمال المنجم والأشياء اللازمة للاسعافات) لها تأثير يعوق المنتج مالياً. ويعمل دائماً عمل خاص لتحاشى انفجارات الضغط ، وفى عدة أحوال يجب ترك بقايا الكتل، حيث إنها تصبح تحت تأثير ضغط عظيم، فيترك لهذا الغرض مساحات واسعة تبلغ نحو ١٠ فى المائة من مقدار الكتل المستخرجة قليلة من هذا المعدن .

أما القطر المصرى فيستغل الآن كميات قليلة من هذا المعدن ، بينما كانت مصر فى عهد المصريين القدماء ، هى المصدر الوحيد لاستخراج هذا المعدن على نطاق واسع ، ويتضح ذلك مما اكتشف من الآثار النفيسة المغشاة بالذهب الخالص .

ثالثاً — الحديد : تجرى التمهيدات لتأسيس صناعة عظيمة للحديد والصلب فى بلاد افريقية الجنوبية المتحدة ، حيث لا يوجد مجال للشك بأن تكون هناك موارد اقتصادية ذات أهمية عظمى . وقد أقام الدكتور (واجنر) الذكرى عن وجود رواسب الحديد فى بلاد اتحاد جنوب أفريقيا ، لأنها تسر الخاطر وهى أهم المساحات التى عرفت هناك. وإنه بمقارنة ما ينتج من اتحاد جنوب أفريقيا بما تخرجه البلاد الأخرى، نرى أن الخامات التى بهذه الرواسب العظمى لا يضارعها غير الهند والولايات المتحدة والبرازيل وفرنسا فقط ، وأن مقدار النوع الأعلى من الخام يبلغ مقداره ...ر...ر١٢٢ طن .

رابعاً — المنجنيز : قد اكتشفت رواسب عظيمة من المنجنيز الخام منذ بضع سنوات غرب مدينة كمبرلى بنحو ١٢٥ ميلا ، وهناك اتفقت الحكومة على بناء فرع للسكة الحديد يصل البقعة الموجود بها المنجنيز بالخط الأصلى ، ولما كان حاجز المنجنيز جسما شديد الصلابة متماسك الأجزاء، فبتأثير العوامل الجوية عليه يكون دائماً أملس. وهذا الخام لشدة صلابته لا تتفتت منه إلا قطع صغيرة أثناء النقل مما جعل لهذه الميزة الطبيعية أهمية خاصة . وبالنسبة لصعوبة تمييز مناجم المنجنيز الاقتصادية قد حللت كتل كبيرة فى المعامل الكيمائية (بجوها نسبرج) وأسفرت النتيجة عن صلاحية الخام من الوجهة الاقتصادية ، وخصوصاً عند ما قارنها الدكتور هاول (بالمصلحة الجيولوجية) بالخامات الأخرى التى تستخرج من أهم بقاع هذا المعدن فى العالم. وإن الدكتور هاول وآخرين من الاخصائيين بمعرفة المنجنيز بما فى ذلك بعض المهندسين الأمريكيين أصحاب الشهرة العالمية الواسعة، أجمعوا على أن الصفات الكيمائية للخامات التى تستخرج من هذه البقاع جديرة بالأهمية والاعتبار. ومما قاله الدكتور هاول بهذا الصدد: إن رواسب المنجنيز تدل على وجود كميات كبيرة من الحديد الخام ، فهى تحتوى من ٤٢ فى المائة إلى ٥٨ فى المائة من معدن

المنجنيز ، ومن ٣ر٢٥ فى المائة إلى ١٠ر٩٠ فى المائة من الحديد ، ومن ١ر٧٥ فى المائة إلى ٧ فى المائة من السليكا ، وليس بها فوسفور البتة ، وعلاوة على ذلك فان خواص الخام الطبيعية كعدم قابليته للسحق وسهولة كسره إلى قطع بالحجم المطلوب جعلته من الموارد ذات الاهمية العظمى . وإن التسهيلات التى عملت هناك جعلت تعدينه لا يكلف الكثير . ويمكن استخراج المنجنيز الخام بواسطة طريقة الصب ، وهذه الطريقة كما يظهر أرخص وسيلة لاستغلال هذا المعدن واستخراجه بكميات وافرة ، فان الكميات العظيمة التى تستخرج من الخام لا ينضب معينها . وليس ما يستخرج من المنجنيز قاصراً على تصديره بالسفن فى عرض البحار فحسب ، بل ينتظر أن تقام له المصانع فى هذه البلاد ليصنع منه منجنيز الحديد الكهربائى ، وإن ما ينتظر عمله يبعث على الأمل والنشاط لجنى الفوائد الكبيرة فى القريب مما قد يصبح صناعة جديدة منتجة .

خامساً — البلاتين : ولو أنه لا توجد زيادة محسوسة لانتاج البلاتين من (الترنسفال) بافريقيا إلا أن ما ينتظر استخراجه من هذا الفرع من الصناعة قد تحسن عن ذى قبل بكثير ، وتوجد هناك شركة هامة ، يرسم مهندسوها الخطط كى ينتجوا هذا المعدن النفيس من نبات خاص ، ليستخرج بنطاق واسع . ويؤمل أن ستساعد هذه الطريقة التى اكتشفها المعدنون والكيماويون جنوب افريقيا على إنتاج البلاتين بثمن أقل من أى ثمن آخر ، حيث إنه لندورة هذا المعدن وزيادة طلبه أصبح ثمنه أغلى من الذهب .

سادساً — الاسبستوس أو الحرير الصخرى : هو معدن لا يحترق بالنار بل شديد المقاومة لها ، وتصنع منه الخيوط لشباك مصابيح الاضاءة بالشوارع ، وغير ذلك من اللوازم الهامة . وقد اتجهت الأنظار أخيراً إلى أنه يوجد بجنوب افريقيا كميات هائلة من الحرير الصخرى الجيد لا سيما وأن الزبائن التى تطلب هذه الخيوط تسأل عن زيادة المنتج ويقدمون استعدادهم لزيادة الثمن . وحقيقة الأمر أن هذه البلاد المتحدة تمسك بيمينها دفة هذا الصنف ، إذ أنها تحرز قصب السبق بالنسبة لوجود الأنواع المختلفة ، ولأنها تنتج منه الدرجة الأولى من حيث الجودة . ويوجد من هذا المعدن بمدينة الرأس مساحة يبلغ طولها ٢٥٠ ميلا وعرضها نحو ٣٠ ميلا ، ويوجد أيضاً فى الترنسفال وناتال بكميات وافرة . ومن ذلك نرى أن ما تنتجه مدينة الرأس وحدها من الحرير الصخرى هو أكبر مساحة عرفت من هـذا المعدن . ومن البلاد التى تنتج النوع الأبيض لا يوجد غير كندا وروسيا فبذلك يكون باتحاد جنوب افريقيا كميات هائلة من هذا النوع خلاف وجود الصنف الأزرق اللون ، وقد أصبح النوع الأبيض يستخرج بمصر على نطاق واسع .

مما تقدم يتضح لنا جليا أن افريقيا من القارات العظمى الغنيـة بمناجم ثمينة من الذهب والماس والحديد الخام والفحم الحجرى والمنجنيز والبلاتين . . . . الخ ؟

كامل نجيب
مصلحة الطبيعيات ـ مصر

الشعر

لفيلسوف العراق وشاعرها الأكبر

الأستاذ جميل صدقى الزهاوى

الشعر ديوان العرب … والشعر عنوان الأدب
هو الذى قامت به … فى الشرق نهضة العرب
وهو الذى كان يخفـ … ـب ذائداً عن الحسب
ويكشف الحق إن الـ … ـحق عن العين احتجب
ويشعل النار التى … فى أول الحرب تشب
ويحفظ الأخلاق أن … تمسها يد العطب
يصور الاحساس منـ … ـهم فى الرضى وفى الغضب
يروع من يسمعه إذا … أهاب أو عتب
يذم من بماله … ضن ويطرى من وهب
إذا سمت قبيلة … فإنما هو السبب

***

قد شب يغذوه الشعو … ر فاستوى منه القصب
ثم رنا ثم دنا … ثم جثا ثم وثب

***

الشعر زهر عطر … أنبته أرض العرب
والزهر فى أشواكه … كالعين حولها الهدب
ما انقلبوا انقلابهم … من قبل أن يرقى الأدب
وهو إلى الوحى يمت … من قديم بالنسب
لقد روى وما افترى … ولا غلا ولا كذب
طوبى لمن مارسه … ومن رواه أو كتب

***

الشعر إما سله حر فسيف ذو شطب
وإنه لكاشف الغمات فراج الكرب
جوابة الآفاق يطوى الأرض من غير تعب
إذا مشى يمشى العرضنى أو مضى يمضى الخبب
وسابق إذا عدا ولاحق إذا طلب
وهو سرور للذى فيه السرور قد نضب
ريحان من يرتشف الرضاب من بنت العنب
وإنه لرحمة للناس إن أمر حزب
ونقمة لمن عن الحق الصريح قد نكب

***

كم خاض فى حرب وكم غالب جمعا فغلب
كم مرة أفضى إلى انقلاب شعب فانقلب
فيا له من بطل لم ينتكص على العقب
السيف فى يمينه ما ان نبا لما ضرب
والشمس فى جبينه ترسل عقيان اللهب

***

وهو حديث فى نهو ضه قديم فى النسب
كأنه لم يك بالمولود من أم وأب
لايعرف الأنسان كم مرت عليه من حقب
إن يكن النثر من ال فضة فالشعر ذهب
قال الذى قال فهل قضى جميع ماوجب
كلا فان الشعر يرجى منه فوق ماوهب
ولا يزال الشعر يأتى كل يوم بالعجب

***

يا ناقدى القريض بالباطل ما هذا الصخب
توبوا إلى أنفسكم فقد أسأتم للأدب
لايحسن النقد جهو ل بأساليب العرب
ما إن يضير بلبلا شدا غراب قد نعب

لا يعرف الشعر سوى من راضه حتى تعب
ليس الذى يرى من البعد كراء من كثب
ما أنت نبع منه يا ناقده ولا غرب
يا حبذا النقد النزيه من أساليب الكذب

* * *

نعوذ بالله معاً من غاسق اذا وقب
ما الحقد فى النقد السفيه غير نار فى حطب
محرقة من شبها كأنه لها حصب
قل أيها الشعر معى «تبت يدا أبى لهب»
«لم يغن عنه ماله» فى هلكه وما كسب

* * *

يا أيها الشعر ودا عا فرحيلى اقترب
إن فراقى لك يا شعر فراق من أحب
يا شعر أنت خالد إليك لا يرقى العطب
أما أنا فذاهب عنك كما غيرى ذهب
الموت خير من حياة كل ما فيها نصب

(بغداد) جميل صدقى الزهاوى

دموع منثورة

يسقط الجندى فى الهيجا قتيل فترى الدمع بعينيه يجول
ترك الكون مقرا بالجميل ولسان الدهر بالشكر كفيل

فلم الدمع يسيل ؟

ويحييك صديق راحل صادق الود وفى بالعود
فترى الدمع وقدروى الخدود عن قريب بسلام سيعود

فلم الدمع يسيل ؟

طلبه محمد عبده

الطبيعة فى فلسفة أفلاطون

بقلم الاستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية

(ا) لم يكتب أفلاطون فى العلم الطبيعى إلا فى شيخوخته بعد أن تقادم عهده بنفور سقراط من الطبيعيات، وفرغ من بحث المسائل السقراطية والسوفطائية. ولم يكن معقولا أن يقنع من الطبيعة بأنها شبح زائل وأن يدع أصلها خافيا بعد نقده لمعنى المشاركة، وأن يترك أبحاث الأكادمية فيها دون أن يسجلها بقلمه ويطبعها بطابعه، وهو الذى وهب عقلا وثابا إلى جميع نواحى الوجود. أقبل إذن على الطبيعة يقصد خاصة إلى أن يبين كيف تحصل الصور الكلية فى الأجسام، وكيف يتحقق النظام بين أجزاء العالم على حسب علاقات دائمة، فأنطق «ثيماوس» الفيثاغورى بقصة تكوين العالم. وإنما أورد آراءه على لسان واحد من الفيثاغوريين لأنها قائمة على مبادىء عقلية، وملأى بالمعانى والتشبيهات الرياضية، مما يؤيد تزايد ميله للفيثاغورية. وإنما آثر القصة على الحوار والخطاب، ليدل على أن العالم المحسوس لا يوضع فى قضايا ضرورية كالعالم المعقول، وأن العقل البشرى لا يستطيع أن ينفذ إلى أغراض الله فى الطبيعة، فليس أمامه إلا الرأى والتشبيه (Timée2gc) – وفى هذا الموقف نقد ضمنى لقدماء الطبيعيين الذين عرضوا مذاهبهم على أنها وصف حقيقى لنشوء الأشياء وتواضع يشعر بصعوبة البحث.

(ب) على أن المبادىء التى يصدر عنها أفلاطون أقدم من «ثيماوس»، اهتدى اليها منذ الشباب، ثم تعهدها بعد ذلك يحدد مرماها ويعالج تطبيقها فى الجزئيات، فقد قص فى «فيدون» حكاية حاله بازاء العلم الطبيعى حيث قال (بلسان سقراط) ماخلاصته: لما كنت شابا كان لى ولع غريب بهذا العلم لأنى كنت أجد له بهاءاً عديم النظير من حيث إنه يعلم علل كل شىء – ما بموجبه يظهر الشىء للوجود، وما بموجبه يفسد، وما بموجبه يوجد؛ وكثيراً ما كنت (أقاسى الأمرين فى بحث المسائل الطبيعية على طريقة القدماء)، حتى انتهيت إلى أنى غير كفء لهذا البحث، بل إنه وصل بى إلى حد من العماية بعيد، تشككت عنده حتى فى الأشياء التى كنت أعتقد من قبل أنى أعلمها، (وهذا نقد صريح للنظريات القديمة القائمة على المادة)، وسمعت ذات يوم قراءة فى كتاب لانكساغور فاذا فيه هذا الكلام «هو العقل الذى رتب الكل، وهو علة الأشياء جميعاً»، ففرحت لمثل هذه العلة وبدا لى أن من الخير جعل العقل علة كلية؛ وفكرت أنه إذا كان الأمر كذلك فان هذا العقل المرتب الذى يحقق النظام العام يرتب أيضا كل شىء بالخصوص على أحسن وجه ممكن بحيث إذا أردنا استكشاف العلة التى بمقتضاها يولد الشىء ويفسد ويوجد، فما علينا إلا أن نستكشف أحسن حال

لوجوده وفعله وانفعاله . وتناولت الكتاب بشغف ولكنى ألفيت صاحبه لا يضيف للعقل أى شأن فى العلل الجزئية لنظام الأشياء، بل بالضد يذكر فى هذا الصدد أفعال الهواء والأثير والماء وجملة تفسيرات أخرى محيرة ؛ مثله مثل رجل يبدأ بأن يقول إن سقراط فى جميع أفعاله يفعل بعقله، ثم يعلل جلوسى هنا (فى السجن) بحركات عظامى وانقباض عضلاتى وانبساطها، ويعلل حديثى بفعل الأصوات والهواء والسمع وما أشبه ،ولا يعنى بذكر العلل الحقة ، وهى : لما كان الأثينيون قد رأوا أحسن ان يحكموا على، فلهذا السبب عينه رأيت أنا أحسن أن أجلس فى هذا المكان أى أقرب إلى العدالة فأتحمل ببقائى -حيث أنا- القصاص الذى فرضوا، ولولا ذلك لكانت عظامى وعضلاتى منذ زمن طويل فى ميغارى أو فى بويسيا حيث كان حملها تصور آخر للأحسن. فتسمية مثل هذه الأشياء عللا منتهى الحماقة ،أما إن قيل لولا العضلات والعظام فلا أستطيع تحقيق أغراضى فهذا صحيح، وعلى ذلك فما هو علة حقاً شىء،وما بدونه لا تصير العلة علة شىء آخر . ولكن الأكثرين يدعون هذا علة ،أما القوة التى يتحقق بفعلها النظام،فلا يبحثون عنها، ولا يتصورون أنها إلهية ، ولا يدركون أن الخير رباط كل شىء وأساسه (Phédon 96a-99c)

ويعود إلى هذا التقسيم فى «ثيماوس» ، ويقول إن الأكثرين يعتبرون العلل الثانوية عللا رئيسية، ولكن يمتنع أن يكون مثل هذه العلل أهلا لأن يحصل على الفكر والاستدلال ، فان الموجود الوحيد الكفء للحصول على العقل هو النفس - يجب الجهر بذلك - والنفس غير منظورة ، بينما العناصر والأجسام جميعا منظورة . فمن يحب العقل والعلم يجب أن يطلب العلل ذات الطبيعة العاقلة وهى أوائل ، أما العلل التى تتحرك بعلل أخرى وتنقل الحركة إلى غيرها بمقتضى فعل ضرورى فلا يطلبها إلا فى المحل الثانى (46 d e) . -ويذكر فى المقالة العاشرة من «القوانين» أن الحركة قسمان :حركة منقولة أو قسرية خاصة بالمادة، وحركة ذاتية خاصة بالنفس، والأولى صادرة دائما عن الثانية (894-896) فينتج أن العلل نوعان : علة ذاتية عاقلة حاصلة فى النفس معلولها ملحوظ قبل وقوعه ، وهى علة أولى وبالذات تحدث بالعقل معلولات خيرة جميلة، وأخرى قسرية ثانوية خلو من العقل،تتحرك بغيرها، وتعمل اتفاقا إلا أن تستخدمها العلة العاقلة كوسيلة ومادة فتوجهها إلى أغراضها .

فمن هاتين الوجهتين - وجهة الحركة ووجهة الترتيب -يقرر أفلاطون أن العالم حادث لأنه جسم مرئى ملموس ،وكل ما هو محسوس فهو خاضع للتغير (Timée bc)، ولأنه آية فنية غاية فى الجمال ، ولا يمكن أن يكون الترتيب البادى فيما بين الأشياء بالاجمال ، وفيما بين أجزاء كل منها بالتفصيل نتيجة علل اتفاقية، ولكن صنع عقل كامل،توخى الخير العام، ورتب كل شىء عن قصد على حسب نموذج هو الوجود الدائم (Timée 28a, 29a)،ذلك بعد أن أعلن أن كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن علة (28a) . فأفلاطون روحى غائى يؤمن بالعقل من أعماق نفسه ويعليه على المادة ويضعه فى روح غير منظورة،ولكنه يمضى هنا (كما فى نظرية المعرفة(١)) مع ميله

(١) راجع الجزء الماضى (يونيو سنة ١٩٣٢) من مجلة (المعرفة) ص ٢٠١

لاستيعاب الأفكار جميعاً دون أية تضحية وسلكها فى مذهب واحد كلا منها بمقدار، فيفسح للمادة وللآلية (ويسميها الضرورة) مكانا إلى جانب الغائية، ويذهب إلى أن العالم إنما حدث وأن الاجسام إنما تفعل بسيطرة العقل على الضرورة وتوجيهها إلى الأحسن على النحو الآتى:

(ج) لما كان الصانع (Démiurge) خيراً والخير بريئاً من الحسد، فقد أراد أن تحدث الأشياء شبيهة به على قدر الامكان، فرأى أن العاقل أجمل من غير العاقل، وأن العقل لا يوجد إلا فى النفس فوضع العقل فى النفس والنفس فى الجسم، وصور العالم كائنا حياً عاقلا لا على مثال شىء حادث أياً كان بل على مثال «الحى بالذات» أجمل الاحياء المعقولة، والكامل من كل وجه، الحاوى فى ذاته جميع هذه الاحياء المعقولة، أى المثل، كما أن العالم يحوى جميع الأحياء التى من نوعه. فالعالم واحد لأن صانعه واحد ونموذجه واحد، وهو كل محدود ليس خارجه ما يؤثر فيه ويفسده فلا تصيبه الشيخوخة ولا الأمراض، وهو كروى لأن الدائرة أكمل الأشكال، متجانس يدور على نفسه فى مكانه. أما نفسه فهى سابقة على الجسم صنعها الله من الجوهر الألهى البسيط والجوهر الطبيعى المنقسم ومزاج من الاثنين فكانت غلافاً مستديراً للعالم تحويه من كل جانب، وتحركه حركة دائرية، وتدرك المحسوس المنقسم والمعقول البسيط، وتشعر بالسرور والحزن والخوف والرجاء والمحبة والبغض، وتملك أن تخالف قانون العقل فتصير شريرة حمقاء فتضطرب حركتها وتنزل النكبات بالعالم — واما جسمه فلما شرع الله يركبه أخذ ناراً «ليجعله مرئيا» وتراباً ليجعله «ملموساً»، ووضع الماء والهواء فى الوسط — (27d-37c)

(د) غير أن هذه العناصر لم تكن كذلك منذ البدء، بل إن العالم فى الأصل مادة رخوة (masse malléable) أى غير معينة بالمرة، عسيرة الفهم غامضة، كل ما نعقله عنها أنها موضوع التغير أو المكان (Lieu) والمحل (Receptacle) الذى تحصل فيه الصور المعينة، لأنه إذا كان الأصل معيناً، وكانت له صورة ذاتية فلا يفهم التغير. وعلى ذلك فليست العناصر مبادىء الأشياء لأنها معينة من جهة، ولأنها تتحول بعضها إلى بعض من جهة أخرى، فيدلنا تحولها على أنها صور مختلفة تتعاقب فى موضوع واحد غير معين فى ذاته. ألا ترى أن ما نسميه ماءاً إذا تكاثف صار حجارة وتراباً، وأن هذا الشىء نفسه إذا تخلخل صار هواءاً وريحاً، وأن الهواء إذا اشتعل تحول ناراً، وأن النار إذا تقلصت وانطفأت عادت هواءاً، وأن الهواء إذا تكاثف صار سحاباً وضباباً وأن هذه إذا تكاثفت جرت ماءاً وهكذا دواليك (48a-57b) — هذه المادة الاولى كانت تتحرك حركة اتفاقية باستمرار حتى اتحدت ذراتها على حسب تشابهها فى الشكل فألفت العناصر الأربعة — النار مؤلفة من ذرات هرمية أى ذات أربعة أوجه تشبه سن السهم، لذلك كانت أسرع الأجسام وأنفذها، والهواء مؤلف من ذرات ذات ثمانية أوجه أى من هرمين، والماء مؤلف من ذرات ذات عشرين وجهاً، والتراب من ذرات مكعبة، فالمادة تسخن وتبرد وتجمد وتلين أى تتقلد صور ما يسمى بالنار والهواء والماء والتراب، ثم صور المثل الأخرى «على نحو يصعب وصفه»

دون أن تكون فى نفسها كذا أو كذا (52d-57d)

(هـ) وبعد أن مر العالم بهذا الدور من الضرورة ، وتنظمت المادة هذا النوع من التنظيم بتوزعها عناصر أربعة ـ وهو أقصى ماتستطيع أن تبلغ إليه بذاتها ـ ظلت العناصر مضطربة هوجاء « كما يكون الشيء وهو خلو من الأله » حتى عين الصانع لكل منها مكانه ، ورتب حركته ، ثم فكر فيما عسى أن يزيد العالم شبها بنموذجه. ولما كان النموذج حياً أبدياً فقد اجتهد على قدر استطاعته أن يجعل العالم أبدياً لكن لا كأبدية النموذج فأنها ممتنعة على الكائن الحادث فعنى بصنع صورة متحركة للأبدية الثابتة، فكان الزمان يتقدم على حسب قانون الأعداد، ووجد الزمان منذ وجدت السماء، ولن ينتهى إلا إذا قدرت للسماء نهاية، فان أقسام الزمان لا تلائم إلا المحسوس ، ونحن حينما نطلق الماضى والمستقبل على الجوهر الدائم فنقول إنه كان وسيكون ندل على أنا نجهل طبيعته إذ لا يلائمه غير الحاضر ؛ ورأى الصانع أن خير مقياس للزمان حركات الكواكب فصنع الشمس والقمر والكواكب الأخرى متقدة مستديرة ، وجعل لكل منها نفسا محركة عاملة خالدة تدبرها . ولما كان مبدأ التدبير إلهيا بالضرورة فقد صنع هذه النفوس مما تخلف بين يديه بعد صنع النفس العالمية، إلا أنه جعل تركيبها أقل دقة من تركيب هذه فكانت أدنى منها مرتبة ، ولكنها إلهية مثلها خالدة بالرغم من كونها مركبة يأتيها الخلود لا من طيب عنصرها (وكان أفلاطون قد ذهب إلى هذا الرأى فى المقالة العاشرة من الجمهورية) بل من خيرية الصانع إذ تأبى عليه أن يعدم أحسن ماصنع 37c S99 .

ثم اتخذ منها أعواناً تصنع نفوس الأحياء الفانين . وإنما مست الحاجة إلى هذه النفوس لتتحقق فى العالم جميع مراتب الوجود نازلة من أرفع الصور إلى أدناها ، ويكون العالم كلا حقاً، وإنما وكل أمر صنعها إلى نفوس الكواكب لأن الصانع الأول لا يصنع إلا ما يماثله أى نفساً إلهية باقية ، فلا يكون هناك تفاوت .

أخذ ما تخلف له من الجوهرين الثانى والثالث ، وصنع مزاجاً قسمه على الكواكب وكلف آلهتها ، أى نفوسها ، أن تنزله أجزاءاً فى أجسام مهيأة لقبوله ، وأن تضم إليه نفسين مائتتين : إحداها انفعالية والأخرى غذائية ، أما الانفعالية فغضبية وشهوية تحس اللذة والألم والأقدام والخوف والشهوة والرجاء ، يضعونها فى أعلى الصدر بين العنق والحجاب لكى لا تدنس النفس الخالدة المستقرة فى الرأس ، وأما الغذائية فيضعونها فى أسفل الحجاب فاذا ما انحل هذا المركب عاد الجزء الخالد إلى الكوكب الذى هبط منه ؛ إن كان صالحاً قضى هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة الكوكب ، وإن لم يكن فانه يولد ثانية امرأة ، فان أصر على شقاوته ولد ثالثة حيوانا شبيهاً بخطيئته ، وهكذا بحيث لا يخلص من آلامه ولا يعود إلى حالته الأولى حتى يغلب العقل على الشهوة ، ويصعد السلم فيرجع رجلا صالحاً .

ودرجات هذا السلم: الأنواع الحيوانية التى أوجدتها الخطيئة والجهالة ، فان الآلهة صنعوا

الرجل كاملا بقدر ما تسمح به طبيعته ، ولكن اتصال النفس بالبدن أعماها ، فالرجال الجبناء الذين سلكوا سيرة رديئة تحولوا فما يظهر نساء عند ولادتهم الثانية . ونشأ الطير من رجال لم يكونوا أشراراً ، بل عنوا بالعلم ودراسة الظواهر السماوية ، ولكنهم كانوا طائشين سذجا ، فتوهموا أن البراهين التى تكتسب فيها بالبصر هى الأمتن ، وصنعت الدبابات من الرجال الذين لم يعنوا قط بالفلسفة ، ولم ينظروا فى الأجرام السماوية فكانوا منصرفين عن توجيهات النفس العاقلة ، منقادين للنفس التى فى الصدر فانحنت أعضاؤهم الأمامية ورءوسهم إلى الأرض ، مجذوبين بما بينهم وبينها من مشابهة ، واستطالت جماجمهم وتشكلت أشكالا عديدة بحسب الكيفية التى جعلت كلا منهم يكبت حركات النفس بالكسل ، وهذا هو السبب فى أنها تولد بأربع أرجل أو أكثر . ولما كانت الزحافات والديدان من أغبى الناس زاد الآلهة فى عدد قوائمهم لشدة انجذابهم نحو الأرض ، وبسط أغبى هؤلاء جسمهم كله على الأرض فحرمهم الآلهة الأرجل فزحفوا زحفاً . أما الحيوانات المائية فقد نشأت من أشد الرجال غباوة وجهلا ووضعت فى أوطأ المنازل . وهكذا كان الأحياء فى ذلك الزمان واليوم أيضاً يتحول بعضهم إلى بعض بحسب ما يربحون أو يخسرون من العقل Timée 76d, 90c S99 Lois 903d 899

وأراد الآلهة أن يلطفوا أثر الحرارة والهواء فى الانسان ــ مع ضرورتهما له ــ فمزجوا جوهراً مماثلا لجوهر الانسان بكيفيات أخرى ، وأوجدوا طائفة جديدة من الأحياء هى الأشجار والنباتات والبذور ، تحيا بنفس غذائية ، وليست هذه النفس حاصلة على رأى أو استدلال أو عقل ، ولكنها تحس اللذة والألم والشهوة ، وهى منفعلة أبدا ــ عدمت الحركة الذاتية فكانت حياً مثبتاً فى الأرض (Timée77)

(و) هذا إيجاز لحديث ثيماوس فى مواضعه الفلسفية ، أما ما يتخلله من كلام طويل فى الفلك ، وفى أشكال العناصر وتحولاتها ، وأصناف كل منها ، وفى الجماد المتكون من الماء والتراب ، وفى الجسم الانسانى ، حواسه وأعضائه ووظائفها ، وفى الطب ــ فعلم قديم لاشأن للفلسفة فيه ، سوى أنه يفسر الأجسام وأفعالها تفسيراً آلياً ، حتى الاغتذاء والدورة الدموية والتنفس والشيخوخة والموت ، فان الأجسام جميعاً مركبة من نفس العناصر ومتمشية على نفس القوانين ــ إلا أن هذه الآلية خاضعة لتدبير الصانع يتخذ القوانين والعناصر توابع وأعواناً (68 e) لتركيب العالم . فمذهب أفلاطون فى الطبيعة مزاج من الآليــة والغائية كما قلناه يستوعب المحاولات القديمة كلها ويؤلف بينها بمقدار ، فهو يأخذ الآلية عن قدماء الطبيعيين ، ويأخذ عنهم لفظ الضرورة ، ولكنه يحول معناه من النظام والقانون إلى الاتفاق الصرف ، فيسلب عن المادة ما كانوا يضيفونه لها من الحركة الذاتية المرتبة ، ليضع الترتيب والفعل الذاتى فى العقل الذى قال به انكساغور بحيث نستطيع أن نقول إنه إذا كان هناك أربعة عناصر أولية ، وكانت الكواكب تدور ، وكان

لكل منها مداره، وكان لكل جسم طبيعي خواصه، وكان رأس الانسان فى أعلى، وكان بالجملة كل مانشاهده، فذلك لأن الأمر لا يمكن أن يكون على خلاف بالاضافة إلى ما يقتضيه العقل والخير، فالغائية متحققة ولكنها خارجة عن الاجسام من حيث هى أجسام، مفروضة عليها من عقل الصانع، وبهذا التحقق يتم لأفلاطون معنى جديد للمشاركة هو أن الصانع يطبع المادة بصور المثل « على نحو يصعب وصفه »، فكأن الصانع والآلهة الأدنين حلقة الاتصال بين العالم المعقول والعالم المحسوس.

نقول « كأن » لأن حديث أفلاطون عن الصانع وأعوانه والنموذج موضع بحث نرجئه إلى ما بعد، كما أننا نرجىء الكلام على النفس لنقتصر هنا على ما يتعلق بالعلم الطبيعي؛ فثمة مسئلة تستدعى النظر هى مامعنى حدوث العالم فى القصة ؟ ذلك أن أسلوبها غير مألوف فى الفلسفة اليونانية، حتى لقد قال أرسطو « إن الأقدمين جميعاً ـ ماعدا أفلاطون ـ اعتقدوا أن الزمان قديم، أما هو فقد جعله حادثاً، إذ قال إنه وجد مع السماء (العالم) وأن السماء حادثة (Phys. VIII, 1, 251b)، على أن البعض يذهب إلى أن أرسطو قد أخذ الكلام على ظاهره، وأن أفلاطون إنما توخى سهولة الشرح فقط، ولم يقصد إلا إلى أن النظام من الله وليس من المادة، وأن العالم متغير وليس ثابتاً كالمثل (Touylor, Plato, 442-443) ولكنا إذا قرأنا مثل هذا النص الوارد فى مفتتح القصة، وهو هل وجد (العالم) دائماً، ولم يكن له بداية أم هل ولد وبدأ من طرف أول؟ لقد ولد (28 b)، وإذا ذكرنا قول أفلاطون فى « السوفسطائى » إن « الابداع إلهى وإنسانى، والفرق بينهما أن الله يبدع الأشياء من غير أية مادة سابقة، أما الانسان فيؤلف صوراً جديدة من مواد أبدعها الله » (265 c)، فهمنا من العبارة الأولى أن الحدوث معناه الحدوث فى الزمان لا مجرد الانعلال ولو منذ القدم، وفهمنا من الثانية أنه حدوث المادة والصورة معاً لا حدوث الصورة فى مادة سابقة، وأن مايوهم عكس ذلك من قوله قبل وبعد وفرض دور الضرورة قبل دور العقل قد يكون ساقه لسهولة الشرح فقط وأراد به بيان عجز المادة من حيث هى كذلك عن إيجاد الروح والنظام.

أما باقى المسائل التى ذكرناها فلسنا بحاجة لاطالة التعليق عليها، ومن الواضح أن أفلاطون أخذ صفات العالم عن برمنيد فجعله واحداً محدوداً كرويا، وكانت كثرة الفلاسفة على أن هناك عوالم غير متناهية، وجعله حياً بأظهر وأقوى مما قالوا، فاقتبس الرواقيون هذا التصور وأيدوا به قولهم بالحلول. وتعمق فى بحث المادة الأولى فمهد لنظرية الهيولى عند أرسطو، ومع أنه أضاف الاحساس للنبات فقد قصر التناسخ على أنواع الحيوان، وكان الفيثاغوريون يمدونه إلى الأحياء جميعاً؛ واستخرج من التناسخ فكرته الغريبة فى التطور العكسى من الرجل إلى المرأة إلى أدنى الحيوان تبعا للخطيئة ونقص العقل، هذه الفكرة التى لا ندرى أهو جاد فيها أم عابث أم رامز ؟؟

يوسف كرم

فى الادب التركى

فى الاقصر

لشاعر الاسـلام

الأستاذ محمد بك عاكف

أستاذ الأدب التركى بالجامعة المصرية

هذه دمعة من الدموع الغزيرة التى يسكبها شاعر الشرق والاسلام على عظمة الشرق ومجد الاسلام. زار عاكف بك الأقصر عام ١٩١٣، ثم كتب هذه القصيدة أثناء إقامته فى برلين، يرى المدنية الغربية وجلالها وقوة الغرب وجبروته، فلم ينسه كل هذا آلام الشرق ومصائبه وما يرزح تحته من كوارث وما ينتابه من خطوب:

***

لم يكن الهواء عليلا على الرغم من اعتدال الحرارة، وقد آذنت الشمس بالمغيب؛ وكنت أقيم على مقربة من الشاطىء، فسرت الهوينا إلى الساحل منحدراً من ربوة ذات أشجار.

تأملت ذلك الوادى الذى احتضن النيل فاخضر، ولم يستشعر الخريف قط فى حياته، وكأنه — وقد امتد أمامى ناشراً أمواجه الزمردية — سراب الحياة!!

فما أبدع منظر هذا الامتداد الجميل! هل له فى الحسن نظير؟

تلك الشمس التى تحتضنه طيلة النهار، وقد تركت النيل إلى شرقها متخطية إلى الغرب تتألق الآن فى الأفق بلمعاتها الأخيرة، ولما كانت أضواؤها لا تزال تعشى الناظرين التجأت إلى نخلة كبيرة نبتت وحيدة فى أرض منحدرة وتزملت ظلالها المتمزقة.

***

وحينما أنظر إلى الأمام من هذا المكان يتملكنى الدهش والاستغراب؛ فكأنما السهول المرتفعة من ضفتى النيل جناحان: كلما ترامى النظر على متنهما الفاتن يخطفان الخيال ويطيران به إلى عالم آخر!!

الآن تبعث الافاق إلى الأرض هواء عليلا بعد أن كانت طيلة النهار ترميها بلهيبها؛ فأخذ يبتسم وجه المحيط الريان بعد أن انهمرت عليه نسمات السماء، وأصبحت الابتسامة تطن هنا وهناك، بدلا من الصمت السائد قبل هنيهة!

فيبتسم هذا الوادى العظيم وتبتسم تلاله .

هنا تبتسم الزوارق ذوات المجاديف الطويلة والمراكب الشراعية الكبيرة ، وهى تتسلق التيار .

وهناك تبتسم مبانى الفنادق ، وقد ألقت ظلالها على النيل وعليها سيماء المن والجلال .

وتبتسم الآبار التى ليست بينها وبين الشاطىء إلا خطوات معدودة وماؤها يستقى بدلاء ذات حبال .

يبتسم الفلاح الذى يفرغ الماء بالقرب ، ويبتسم السائح الذى لم ير هذا المنظر فى حياته ، وتبتسم الفتيات راجعات من الترعة وعلى رءوسهن الجرار .

ويبتسم الأطفال العراة ، وهم يصطادون الأسماك من الجداول مقلبين الماء بعنازفهم .

* * *

إن التماثيل التى رأيتها حينما طفت صباحاً ، والتى قد نصبها غرام البشر بالخلود ، ذلك الغرام المجنون الذى أوحى إلى الطغاة أن ينحتوا فى جبهة الفضاء ظلهم الذى لا كرامة له ، بدل أن ينقشوا فى القلوب ذكرى رحمتهم ! ! نعم أقاموها باستعباد آلاف المساكين ،حتى صار كل حجر من أحجار هذه التماثيل مقبرة لهم ورمزاً لفنائهم ! !

وكان أملهم الوحيد أن تهتز السماء لأسرة جباهها ، وتخر الأرض ساجدة تحت أقدامها ؛ ولكن الزمان — وهو يد الكبرياء المهيبة — قد أدب هؤلاء الجبابرة تأديباً ، فجدع أنوف تماثيلهم وحطم أذرعتها وصيرها أنقاضا مبعثرة ! ! فلا ترى فى الجباه مهابة ، ولا فى الوجوه جلالا ! ! وهاهى أسرتها الطامسة قد علاها الوهن والفتور ! !

إن ظهور العدالة بهذه الصورة القاسية قد يبعث فى الزائر شعور المرحمة .

* * *

نعم ؛ كانت مقبرة تلك التماثيل حينذاك بعيدة عنى ، ولكنى كلما سرحت نظرى نحوها خيل إلى أنها تبتسم ؛ تبتسم عن بعد أطلال معبد ، ويبتسم الكرنك كلما تلفت يمنة ! ! تبتسم الأعمدة التى تعبث الأمواج بظلالها المرتعشة الغارقة فى النيل ! ! يبتسم النخيل من الشاطىء ، وعلى رءوسه الشعثاء تيجان من ذهب الأصيل ، ويتمايل كأنه ريشة مصور ترسم فى الفضاء ! !

* * *

قمت من ذلك السطح المائل الهادىء الذى كنت جالساً فيه لأرى مظلة قائمة على مقربة منى ، وما أحسن مافعلت ! رأيت أمامى نحو ثلاثة عشر نفراً من السائحين ما بين فرنسيين وانجليز وألمان مجتمعين زرافات ووحداناً ، وللكؤوس بينهم رنين ! !

فالفرنسيون يبتسمون لأن كيسهم المملوء يهز الدنيا المدينة لهم هزاً عنيفاً، وليس فى العالم مايحزنهم إلا هزيمة « سيدان(١) »، ومع ذلك فالرفاهية تنسى الانسان أنكى الجروح ! !

والانجليز يبتسمون — والابتسامة حق لهم — لأن الدنيا كلها رهن إشارتهم، إن أمروها أن تموت فستموت، وهم يسلطون كل أقوام البشر بعضهم على بعض، وينظرون عن بعد فرحين، فبينما يصطدم الحجر والفولاذ يشعلون غليونهم ! !

والألمان يبتسمون لأن قوة عضدهم كفيلة بأن يصدق العالم جميع مايقولون(٢)، وما دام البشر لا يعطون القوة للحق فما الحيلة فى الحصول على الحق بغير القوة ؟ ؟

هل أنت ضعيف ؟ ليس لك حق إذن سوى البكاء ! !

***

نعم، فى هذه الساحة من الهياج، هياج السرور وجلبة الحبور، أنا وحدى المسكين الذى لا يبتسم، قد جلست أبكى، وحق لى البكاء لأنى غريب فى ديار دينى ! !

لا فى تراب هذه الديار ولا فى نهرها أثر صديق ولا صوت خليل ! !

أيها الشرق العظيم ! أيها العالم المترامى الأطراف ! ليت شعرى فى أى بقعة من بقاعك تجد أبناءك المترفين المتمتعين بالدعة والطمأنينة ؟ إن رأسك (٣) ترزح تحت الشدائد ! وعضدك واه، وذراعيك مغلولتان ! ولما يهب نسيم الاستقلال على قلبك بعد ! !

---

(١) هذه الموقعة كانت بين الفرنسيين من ناحية والألمان من ناحية أخرى، وكان الجيش الفرنسى بقيادة مكماهون (Mc Mahon)، كان عدده ١٣٠ ألف رجل، إلا أنه هزم هزيمة فادحة فى سيدان هذه، وأرغم البروسيون الأمبراطور نابليون الثالث — ومعه ما يقرب من مائة ألف رجل — على التسليم فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠، وعلى أثر ذلك انفجرت الثورة فى باريس وأعلنت الجمهورية الثالثة فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠، وتألفت حكومة الدفاع الوطنى، إلا أنها فشلت فى الدفاع عن فرنسا، وتمكن الألمان من الاستيلاء على باريس فى ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ بعد أن أخفقت كل مقاومة فى داخلها وخارجها، وتقرر الصلح فى فرنكفورت فى ١٠ مايو سنه ١٨٧١ على أن تستولى ألمانيا على متز واستراسبرج مع الالزاس واللورين، وأن تدفع فرنسا لألمانيا غرامة حربية تقدر بخمسة آلاف مليون من الفرنكات، وأن تحتل الجيوش الألمانية بعض أراضى فرنسا حتى تنفذ هذه الشروط.

(٢) قيلت هذه القصيدة قبل الحرب العظمى أيام أن كانت ألمانيا فى أوج عظمتها البرية والبحرية.

(٣) يشبه الانجليز الشرق الاسلامى بانسان رأسه المفكر مصر، ويده الباطشة تركيا، وقلبه الشاعر الهند.

قد طفت فى أرجائك كلها لأرى أمامى داراً للاسلام فكلت قدماى ، وكلما سمعت أصوات الأجانب من كل صوب لم تفض عن روحى الباكية إلا خيبة الأمل ! فهل كان نصيبى أن أكون غريباً فى صميم الاسلام ؟ إن هذه العاقبة لأدهى انتقام الأيام ! !
والآن قد تقدمت بى السنون وضعف عضدى، فعلى أولادى أن يجاهدوا ويأخذوا ثأرى .

* * *

الآن ترتجف الشمس فى الأفق وهى على وشك الخمود ، إلا أن وجهها لا يزال وهاجاً ، وبعد هنيهة انتصب أمامى بغتة عمود نورانى لا تميد به الأمواج، ولكن ذلك الظل المتباهى ، ذلك الطابع الوقور الذى خلته يبقى زمناً طويلا حينما رأيته ممتداً ، قد محى فى بضع دقائق من ذاكرة النيل !

فوا أسفا ! إن هذا الظل لم يلق بنفسه فى تلك الدوامة إلا لينضم إلى ملايين الظلال التى غرقت فى النيل ! !

* * *

والآن لا تتراءى الشمس لأن الجبال تحجبها ، فهى حينئذ كشفت عن وجهها فى آفاق أخرى، والمغرب – وهو حزين – قد صب روحه المتألمة على الآفاق ، وجثمت غربة المساء رويداً رويداً على الأرض !

تغير وجه النيل ، وهو أمامى أصهب قليلا ، وفى مكان ذلك الظل أحمر قان ، ولكنه كان وراء ذلك قريباً من الظلمة !

والجبال أيضاً قد سكنت إلى لون المأتم هذا ، فجباهها المغطاة بالضباب قد اسودت !!

حينئذ لبست الأرض رداء الغروب ، فلما ألقت الظلال نسيجاً مهلهلا على الآفاق المبتسمة قبل هنيهة انبعث فى نفسى الغريبة خيال محال: ظننت أن العالم الصامت يبكى أمامى فنزلت من تلك المظلة وأصعدت نحو نور ! !

عبد الحميد الدواخلى
ليسانسيه فى اللغة العربية واللغات الشرقية

المحاماة

قديما وحديثا

بقلم الاستاذ ميناس خورى المحامى

المحاماة مهنة من أشرف المهن وأعظمها، لأنها وليدة عاطفة نبيلة تبغى تحقيق المساواة بين الخصوم ، وتمكين الضعيف من الوقوف فى نفس المستوى الذى يقف فيه القوى أمام منصة العدل والقانون ، ولهذا فقد كانت هذه المهنة ـ وما زالت ـ السلم الذى يرقاه الانسان إلى ذروة المجد، وهى فى حدود النزاهة تجعل المرء غنيا بلا مال، رفيعا بغير لقب، سعيداً بلا ثروة.

وقد بلغ من عناية الرومان بالمحاماة وتقديسهم لها أنهم كانوا يعتبرون حظيرة المحامين من الأماكن المقدسة ، فاذا حان وقت الترافع رشت بالماء المطهر دليلا على قداستها . وكان مجلس الأعيان لا ينتخب أحداً للمناصب الرفيعة إلا من بين المحامين ، لأنهم كانوا يعتبرون المحامى أرفع رجل فى أسمى مظاهر الرجولة . ولهذا فقد حرموا العبيد والنساء من أن يتطلعوا إلى هذا المطمح العالى الذى كانت تتوق اليه نفوس الأباطرة أنفسهم . فقد كان كاتو الأكبر، وجول سيزار ، وشيشرون ، وغيرهم من القياصرة والقناصل ، يترددون على حظيرة المحاماة وهم فى أوج مجدهم ، حتى لا تنقطع صلتهم بهذه المهنة التى كانت أسمى المهن وأرفعها شأنا ، فلا غرو إذا ما أحس المحامون بعظمتهم وجلالهم فحافظوا على ذلك الجلال الخالد ، واستشهدوا فى سبيل الذود عنه غير آبهين بالشدائد . ومما يرويه التاريخ بمداد الفخار ما حدث للمحامى الشهير بابنيان ، فقد استقدمه الامبراطور كراكلا ، وكلفه بأن يدافع عنه لأنه قتل أخاه، فأبى المحامى ذلك ، فتهدده الامبراطور بالقتل ، ففضله على الدفاع عن ظالم أثيم ؛ وقد مات هذا المحامى الخالد شهيد طهارة ضميره وشرف نفسه . فليس بدعا إذا ما اعتز المحامون بتاريخ أسلافهم ، وحافظوا على هذا التراث الخالد ، ولا عجب إذا ماتشبه المحامون بأسلافهم وآثروا رداء المحامى على منصة الحكم ، فاذا بـ«ميران» رئيس جمهورية فرنسا ، يهجر قصر الأليزة ليقصد ساحات المحاكم ، وإذا ببعض وزرائنا يعودون إلى مهنة المحاماة ـ وهم أشد الناس غبطة وفخراً ـ بعد أن فارقوا كرسى الوزارة .

والمحاماة مهنة لا تنمو وتنضج إلا فى الأمم الراقية ، وبقدر انحطاط الأمة ينحط حرصها على القانون ، ويزداد فيها نفوذ الموظفين ذوى السلطة ، ولهذا ، فان المحامين فى الصين ليسوا

إلا فريقا من المتشردين والنصابين . وقد كان العرب ينظرون إلى هذه المهنة نظرة كلها احتقار وازدراء ، فقد قال عنها علاء الدين الكندي:

ما وكلاء الحكم إن خاصموا إلا شياطين أولو باس
قوم غدا شرهم فاضلا عنهم فباعوه على الناس

وقديما كان المحامون في مصر يعرفون بالمزورين ، إذ كانت المحاماة مهنة لا يحترفها إلا كل عاطل ممن لفظتهم الحياة ، فكانوا أقذر الناس ذمما ، وأحقرهم منزلة ، وأجهلهم بالقانون عرفانا

ويكفى لبيان مقدار ثقافتهم أن أقدم للقراء مذكرة كتبها أحد محامى ذلك العصر ، ويدعى أحمد عجمى ؛ قال ما نصه :

« مجلس استئناف بحرى رئيسى عزتلو أفندم

أعرض لأسيادى أرباب هيئة المجلس وحضرة (ريسه!) الشهم المغوار أن كلامى هو الصحيح وكلام خصمى ليس إلا مجرد شقشقة وكركبة فى الكلام، وأقواله ليست إلا (هزيان !!) ومع أن تقريرى الأول (كافى !!) فى الرد عليه لما فيه من ادحاض حججه الوهمية ، لكن لا يمنعنى الحال أن أقول أول وآخر ما تقول فى هذه المادة ! ! ! إن عدم امتثالهم لأحكام المجلس وفرارهم من تنفيذ الأحكام عليهم دليلا!! على عدم مسيرهم على نمط الاستقامة ، وهذا مما يوجب تضاعف الجزوات عليهم فان عدم امتثالهم لأحكام المجلس وتكلمهم بلسان الفظاظة جناية أدهى وأمر، فحينئذ لا لزوم للاطالة بصفة التكرار وعلى أسيادنا أرباب المجلس أجرى ! ! المقتضى نحو إيصالى حقوقى بالشرع والسياسة وأنا فى حالة الخضوع وبكل آداب افندم ! ! ! ! »

وهذه المذكرة تدل على أسلوب الكتابة فى ذلك الوقت، ولكنها لا تدل على أخلاق المحامين التى كانت فى غاية القذارة، فقد كانوا أقل الناس احتراما للعدالة وحرصا على الحقوق، وأكثرهم تعديا على الناس واختلاسا لحقوقهم . وقد حدث ، أن الشيخ سليم الاسكندرانى، وهو أحد كبار العلماء ، ذهب إلى المحكمة الشرعية فراعه ما شاهده من فساد أخلاق المحامين ، فكتب إلى محمد على باشا يشكو إليه بعض ما شاهده «من التزوير الحاصل فى القضاوى ! ! من أفراد اتخذوا الكذب والتزوير كاراً !! مما لا يمكن حدوثه حتى فى بلاد الكفار !!»، وتقدمت شكاوى أخرى للوالى كلها تضج من أفعال هذه الزمرة الفاسدة ؛ فلما علم محمد على باشا بخطورة الأمر ، أصدر أمراً إلى رئيس الديوان الخديوى بتحقيق ما جاء بهذه الشكوى والتأكد منها . . فجاء فى جواب رئيس الديوان . . « بعد السؤال عن حقيقة المزورين تبين لنا ما يأتى :

أحمد أبو زيد — كان (عطار) بالصنادقية فاستبدل العطارة بالشطارة. صنعته يتوكل ويشهد فى كل الدعاوى وله علاقة فى ورود الشهود وخاطره معدوت ! !

عازر القسيس — له مقارشة فى دعاوى الأقباط مع بعضهم كذلك يقارش فى الدعاوى الذى !! الذى لهم مع ساير الملل ويتوكل ويشهد ويزور ويحضر بالمحكمة ! !

عبد الهادى العزبى — من مدة صار له التنبيه بعدم دخول المحكمة وانقطع منها ، وإنما من حيث إنه ذو معرفة بالتزوير فأرباب ذلك يراجعوه ويعملوا صورة لاجراء تزويرهم !!! » .. الخ ..

وعلى أثر ذلك أصدر المرحوم محمد على باشا لسماحة قاضى مصر ما يسمى بالارادة السنية . أباح فيها للقاضى « تحصيل رسوم من المحامين الذين يقيمون الدعاوى الباطلة لكسر قلوب الناس . مع تربية وتأديب هؤلاء المزورين وإظهار حسن الهمة معهم . » ؛ وقد كانت الارادة السنية هذه كفيلة بكبح جماح هذه الطائفة ، فقد أخذ القضاة فى تربية ! ! هؤلاء المزورين بحسن همة !! وقد حدث أن القاضى شنان رحمى أمر بحبس ١٨ مزورا فى جلسة واحدة ، وفى الجلسة التالية أمر بنفى ثلاثة من المزورين !!

وحدث بعد هذا أن أنشئت المجالس الملغاة فى عهد اسماعيل باشا ، فكان هذا مدعاة لوجود طائفة (العرضحالجية) وقد نموا وانتشروا حتى أصبحوا من لوازم الحياة القضائية ، وكانوا يسمون بوكلاء الأشغال . ومن ثم أنشئت المحاكم المختلطة والأهلية ، فتقدمت المحاماة تقدما باهرا ، حتى وصلت لحالتها الحاضرة ، فاذا بها سلم المجد ودعامته ، وإذا بها فى طليعة المهن المنتجة الشريفة التى تغذى الأمة بزعمائها القادرين وقادتها النابهين النابغين ؟

السنبلاوين　　　　　　ميناس خورى المحامى

احدى عجائب صحف التاريخ

موقعة الدردنيل فى الحرب العظمى

بمناسبة ماجاء فى العدد الماضى من مجلة « المعرفة » الزاهرة ، من الوصف البليغ لمعركة الدردنيل بقلم شاعر الاسلام محمد عاكف بك ، أردنا أن نطلع قراء « المعرفة » على وصف رجل انجليزى لهذه المعركة . وهذا هو الوصف معرباً بتصرف عن إحدى المجلات الانجليزية :

* * *

عند ما أرخى الستار على الفصل الأخير الحزن من ضياع جهود الجنود التركية فى غاليبولى ، قال جندى لقائد جيشه العام ـ مشيراً إلى المقبرة التى أعدت للقتلى من بنى جنسه ـ : « أتعشم ألا يسمعنا هؤلاء القوم ـ مشيراً إلى القتلى ـ ونحن فى سيرنا إلى الشاطىء .... » .

وقد كان غرض هذا الجندى من قوله ذلك : أن القتلى يحزنون أشد الحزن عند ما يعلمون أن جهدهم وتعبهم قد ضاعا سدى .

فكان ذلك التقهقر الذى حزن من أجله هذا الجندى ، هو أهم سبب فى إشعال فكرة غزو غاليبولى .

قامت الحملة الانجليزية إلى غاليبولى بكفاية عظيمة جعلتها من أعجب حملات الحرب العظمى، إذ عملت ما لا يعمل (المستحيل) . وكان اليقين فى أول الأمر أن الأتراك سيسلمون أنفسهم إلى الانجليز من غير تردد .

فلقد كانت هذه الحملة مؤلفة من ١٣٤٠٠٠ جندى و ٤٠٠ مدفع و ١٤٠٠٠ دابة لحمل الأثقال ، وكان الشاطىء المعد لنزول القوات الانجليزية محصنا بمدافع الأتراك القوية .

وعلى الرغم من هذه التحصينات ، فان القوات الانجليزية استطاعت أن تنزل إلى الساحل بغير عناء ، تحت عيون العدو الحريص .

خديعة الترك :

كان رجال القوة الأنجليزية لا يرتابون فى أن النصر سيكون حليفهم ، وأن الهزيمة لاشك لاحقة بالترك ؛ وقد عمدوا إلى طرق كثيرة من الخديعة ليوقعوا الترك فى حبالتها، وقد نجحوا فى ذلك بادى بدء.

وكان من النصر الذى نالوه أن كثرت جنودهم كثرة مضطردة وازدادت حصونهم مناعة.

ولقد بلغ من خذلان الترك أن كان أكثر عمل الجنود فى إعداد المقابر لدفن جثث قتلاهم ... فى هذا الوقت قال ذلك الجندى تلك الكلمة التى سبق الكلام عنها .

***

انقلاب غريب:

ما كاد الدهر يبتسم للانجليز فترة من الزمن حتى قلب لهم ظهر المجن ، إذ تلاحقت الأمداد التركية ، وحملت جنودهم حملات شديدة استبسلوا فيها وباعوا المهج رخيصة ، حتى بلغ من شجاعتهم الفائقة أنهم كانوا يخوضون النيران التى يشعلها الانجليز بمعسكراتهم بدافع الوطنية الحارة ، وكانوا يدافعون الجوع والعطش بصبر عظيم وجلد كبير . وما لبث الحال أن تقلب رأسا على عقب ، فبعد أن كانت الجيوش التركية منهزمة أصبحت مرتفعة الرأس منتصرة .

وفى إحدى الليالى قاتلوا الانجليز قتالا شديدا اضطرهم إلى إخلاء (سنفلا) بعد أن أخذوا كل مالهم بها ، وما لبثوا أن اضطروا أيضا إلى إخلاء (أنزاك).وكان الفصل الأخير من هذه الحرب أن أحرق الترك البقية الباقية من معسكرات الأنجليز ،وساعدهم على ذلك وجود مخازن البترول التى كانت قريبة من هذه المعسكرات،ولذا اجتهد من بقى من الانجليز فى الاسراع إلى الابحار من غاليبولى بعد أن حقت عليهم الهزيمة المنكرة وخسروا خسراناً مبيناً .

ولقد تلاشت بذلك قوى الانجليز فى هذه الجزيرة (رجالا ومدافع ودواباً)، وأصبحت كأن لم تكن بالأمس،وكانت هزيمة فظيعة لا تماثلها أية هزيمة أخرى حتى هزيمة فكتورى . ؟

المنصورة مصطفى صادق أبو ريه

فلسفة الحقوق الجزائية

١ تمهيد – ٢ الحقوق الجزائية ، تفاعلها مع الحياة – ٣ الانتقام الفردي – ٤ قانون (تاليون Talion) – ٥ الجزية الفردية – ٦ الجزية العامة – ٧ القبيلة تتولي الدفاع عن الفرد ٨ الاديان والمسؤولية – ٩ الدولة وصرامة العقوبة – ١٠ (روسو) (وفولتير) وأندادهما – ١١ النظرية التعاقدية – ١٢ النظرية النفعية – ١٣ النظرية الاخلاقية – ١٤ النظرية الانتخابية

— ١ —

تريد الفلسفة الحديثة أن لا يقف سلطانها عند حد ، وتريد أن تتناول جميع المعارف البشرية ، وتريد أن تضم إليها ، كل بحث ، له نصيب من العلم ، قليل أو كثير ، ولهذا فانها ما برحت لبضع سنوات خلت ، تسعى سعيا قويا ، لبسط نفوذها ، على العلوم التى كانت فى استقلال تام عنها ، فلم يمض عهد طويل ، حتى كانت لنا فلسفة التاريخ ، وفلسفة الأدب ، وفلسفة الاجتماع ، وفلسفة الاقتصاد ، ... وفلسفة الحقوق !

وهذه الفلسفة ، على حداثتها ، وفقت فى غزوها توفيقاً عظيما ، وافتتحت لها ميادين جديدة ، وافاقا جديدة ، قد تكون اللانهاية خير وصف ينطبق عليها ؛ ولعل سر هذا التوفيق ، أنها تهتدى بالتاريخ ، وتستوحى العقل ، وتعتمد على المنطق ، والمنطق السليم وحده .

ولعل فلسفة الحقوق أسهل مسلكا من غيرها ، وأجدى بحثاً ، لأنها فلسفة خصبة ، لانجد صعوبة لتامس آثارها فى فجر التاريخ ، وفى الكتب «المنزلة» ، وفى المراجع الأثرية القديمة ؛ وقد يكون هذا البحث على شىء غير يسير من الأهمية ، وقد تكون هذه الأهمية أوفر فى الحقوق الجزائية منها فى سائر الحقوق ، وقد يستمرىء القارىء هذا النوع من البحث الطريف .

— ٢ —

تتناول فلسفة الحقوق الجزائية ، البحث عن المستند العقلى ، الذى يخول الهيئات البشرية ، حق الاقتصاص من الجانين والمجرمين ، ولو عن طريق القتل ، فى بعض الظروف الاستثنائية ، ويتناول جانب هذا ، البحث عن نشأة هذا الحق ، وتطوره ، منذ أقدم العصور إلى هذا اليوم .

وليس من شك فى أن هذا المستند ، وذاك التطور ، لم يكونا فى جميع أدوار التاريخ على حال واحدة ، لأن القانون يحتاج أكثر من سائر العلوم الاجتماعية إلى مسايرة التطور الاجتماعى ومماشاته عن كثب ، ليكون نافذاً ؛ فحياة القانون يجب أن تكون مستمدة من حياة الهيئة البشرية التى وضع لها .

ونحن إذا عدنا بالفكر إلى العصور الأولى ، استطعنا أن نتلمس فى شىء من السهولة ، آثار الخشونة والهمجية ، المستوليتين على الهيئات البشرية الأولى ، فيما كان لها من قوانين ،

أو بالأحرى ، فيما يشبه القوانين . فلنماش التطور البشرى ، ولنبحث عن أثر هـذا التطور فى القانون ، نره معادلا ! أو يكاد يكون معادلا لأثره فى حياة المجتمع .

وإذن فقد كان لزاماً على القانون أن يفقـد خشونته ، شيئاً فشيئاً ، كلما فقـدت الهيئات البشرية الأولى شيئا من خشونتها ؛ وقد لبثت هذه حالها طيلة أجيال وأحقاب ، وهى ماتبرح جادة نحو الـكمال ، وهو غاية القانون والمجتمع .

وهكذا فانا نرى المتشرعين يلطفون من همجية الحقوق الجزائية ، فيزيلون عقوبة القتل فى بعض البلاد المتمدينة ، ويمنعون الاضطهاد والتعذيب ، ويطلبون إلى دوائر الشرطة ، ألا تلتجىء إلى شىء مما ينافى الرحمة البشرية ، للحصول على إقرار المتهم ، ويذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيضعون لذلك عقوبات صارمـة ، لايترددون فى تطبيقها فى حق من يسوغ لنفسه ـ أياً كان ـ استعمال أى شىء من وسائل التعذيب والاضطهاد .

— ٣ —

أجمع مؤرخو الحقوق وغير الحقوق على أن الأنسان فى الهيئات البشرية الأولى ، لم يـكن يعتمد ، لدفع الحيف والجور عنه وعن ذويه إلا على قوته ، وقوة من تحفزه القرابة أو الصداقة لحمايته والدفاع عنه .

وقد لبث الانتقام الفردى (Vengeance privée) شبه قانون عام ، أجيالا عديدة ؛ يطبق فى جميع أقطار العالم ، فلا يشعر أحد بفساده ، ولا يسعى لدرء خطره ؛ فكانت الحيوانيـة متغلبة على البشرية ؛ يأكل قويهم ضعيفهم ، كما تأكل كبار الأسماك صغارها ، وأقوى الوحوش ضعافها !

وهذا حق يدركه ويعتمد عليه العقل البشرى فى أول مراحله ؛ وقد يكون على شىء من المنطق ، ما دام ليس هنالك سلطة قوية لمنع اعتداء القوى على الضعيف ، ولـكنه حق لا يضمن الهدوء والسكينة والأمن إلا للقوى ، وبصورة أوضح ، للعائلات المتحدة الـكثيرة العدد ..

وهو إن عجز عن أن يضمن للضعيف شيئاً من هـذا كله ، فأحرى به أن يعجز عن أن يضمن الأمن العام فى هيئة لا تعرف غير القوة قانوناً ، والغزو مرتزقاً ! ! !

— ٤ —

وهكذا كانت حياة الهيئات البشرية الأولى تقلقها الفوضى ، وتخل فيها القوة إخـلالا فادحا ، تنشأ عنه الجرائم والجنايات ، وليس ما يردع المعتدى ، عن اعتدائه ، إلا قوة خصمه ، أو قوة من يلوذ بهم .

وكان الضعيف ، إذا ما أصابه حيف ، لا يأبى الالتجاء إلى قوى يحميه ويذب عنه ، ولعل

العبودية نشأت من هنا ، ونخال كل بحث عن منشأ العبودية ـ يؤول بالباحث إلى غير ما آل إليه بحثنا ـ خاطئاً فادح الخطأ .

إلا أن الهيئات البشرية لم تلبث أن شعرت ـ وإن متأخرة ـ بضرر مثل هذا الانتقام ، فقامت تلتمس القوة فى اتحاد أفرادها ، وتكاتفهم لردع الشقاوة وقمعها عن طريق بسيط ، هو : الاعتداء على المعتدى بمثل ما اعتدى على المعتدى عليه ، وبعبارة أوضح السماح للمعتدى عليه بالاعتداء على المعتدى ، إلى الحد الذى اعتدى على المعتدى عليه .

وإذا كان المعتدى عليه ضعيفاً ، ساعده المجتمع على الأضرار بخصمه بقدر ما أضر به ، وهذه أول مرحلة من مراحل التفكير البشرى من حيث الحقوق ، والحقوق الجزائية بصورة خاصة ، وهذا الحق معروف باللغة الأفرنسية بحق « Galoin » ولعل سبب هذه التسمية ما ذهب إليه أحد مؤرخى الحقوق من أن أول من فكر فى هذا الحق اسمه (Galion)

وقد لا تجد شيئاً من الصعوبة ، لتلمس آثار هذا القانون فى الكتب « المنزلة » ،ومن منا لا يذكر : « العين بالعين ، والسن بالسن .. » ؟؟؟

وهذه المراجع القديمة ، فى القانون الرومانى ، والقانون اليونانى ، طافحة بالشروح والتفاصيل ، عن كيفية تطبيق هذا القانون ، إذ لا يجوز ـ بحال من الأحوال ـ أن يحدث المعتدى عليه ضرراً للمعتدى أعظم من الضرر الذى ألحقه هذا الأخير به ، وإلا وجب عليه أن يعرض نفسه مرة ثانية للمعتدى ، ليلحق به ضرراً معادلا للضرر الزائد، الذى ألحقه المعتدى عليه بالمعتدى .

وأنت ترى أنه قانون غاشم ، لا ينظر إلى العدالة إلا من جهة واحدة ، ولهذا كان نصيبه البقاء رهن أول تطور يطرأ على التفكير البشرى فى مرحلته الثانية .

— ٥ —

وهذه المرحلة لم تلبث أن أشرقت من وراء التفكير الجدى الصحيح ، فتضافرت الجماعات لتحميل المعتدى مبلغاً من المال ، يتفق مع درجة الضرر الحاصل ، وقيمة المتضرر ـ لأن الأرستقراطية كانت فى إبان عزها ـ ، وهكذا فان المعتدى أصبح يستطيع أن يكون فى مأمن من الانتقام الفردى ، متى دفع للمعتدى عليه المبلغ الذى تعينه الجمعية أو الهيئة التى ينتسب إليها .

وهذه هى الجزية (Wergeld) التى ما تزال حية عند بعض القبائل البعيدة عن المدنية والحضارة، وهى المعروفة عند المتشرعين وعلماء القانون باسم Composition pécuniaire .

وقد ذهبت الهيئات البشرية الأولى ـ فى هذه السبيل ـ إلى أبعد حد،فوضعت قائمة مطولة وأكثر من مطولة ، لمختلف الاعتداءات التى يمكن أن تقع،كذلك حددت لكل منها مبلغاً من

المال ، يتفاوت بتفاوت مراتب المعتدى عليه ، فكان للقتل مبلغ ، وللضرب مبلغ ، وللجرح مبلغ ... وللقبلة مبلغ !!! ولغير ذلك .... مبلغ .

وقد نتج عن هـذا الأسراف فى التحديد ، وهذا التفاوت فى تعيين المبالغ ، أن وجهت البشرية أنظارها إلى حل آخر يرضى الجميع ويساوى بينهم .

— ٦ —

ولا بد لنا هنا ، قبل بحث هذا الحل الجديد ، أن نقرر بأن كل ماذكر ، لم يكن ليطبق إلا بين أفراد القبيلة الواحدة ـ إذ لم يكن لقبيلة سلطة على غيرها ـ بحيث تطبق قوانينها على أفرادها ، اللهم إلا إذا ضمت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة اليها ، عن طريق الفتح والغزو ...

ولكن ... ؟ إذا اعتدى أحد أفراد قبيلة (ا) على فرد من قبيلة (ب) ، فأى قانون كانوا يطبقون ؟

لا نخالنا واجدين حلا واضحاً لهذه الحالة ، إلا عن طريق الاستنتاج العقلى ، والأرجح أن الحرب كانت تنشب بين القبيلتين ، إلى أن يكتب النصر لاحداها ، ولكن هذه الحروب قد تذهب بالأخضر واليابس ، وقد لا يخبو أوارها ، ولا سيما فى عصور الغزو فيهـا مرتزق الجميع ، أو الأكثرية الساحقة على أقل تقدير !

فكيف حقنت الانسانية دماء أبنائها فى تلك العصور السحيقة ؟؟؟

يدلنا تاريخ القوانين على شىء من الغموض ، فان الجماعات البشرية الأولى أوجدت لهذه الحالة حـلا ، يعرف بين الفلاسفة والحقوقيين باسم (Vendetta) وهو أشبه شىء بالجزية العامة ، تدفعها قبيلة المعتدى لقبيلة المعتدى عليه .

— ٧ —

وقوى شعور الهيئات البشرية الأولى ، بوجوب تولى الدفاع عن أفرادها وعن سلامتهم ، وبالتالى عن نفسها وعن سـلامتها بنفسها ، فصارت تنظر إلى الضرر الذى يقع عليها ، أو الأهانة التى تلحق بها من جراء اعتداء المعتدى ، لا إلى الضرر الذى يقع على المعتدى عليه ، أو الأهانة التى تلحق به .. وراحت تحدد لذلك مبالغ تحتم على المعتدى ـ إذا كان الاعتداء واقعاً بين أفراد قبيلة واحدة ، أو على قبيلة المعتدى إذا كان الاعتداء واقعاً بين قبيلتين مختلفتين ـ دفعه فى مهلة تحددها قبيلة المعتدى عليه فى الحالتين .

ونما هذا الشعور فشعرت الهيئة ، أو العشيرة ، بأنها جسم يتألف من أعضاء كثيرة ، وأن كل اعتداء يجرى على عضو من هذه الأعضاء ، يجب أن ينظر إليه كأنه اعتـداء واقع على الجسم كله ، فحددت للخيانة التى تعرض سلامة القبيلة أو العشـيرة للخطر عقوبتين مختلفتين :

(١) عقوبة مالية (Wergeld) ، وقد تقدم شرحها .

(٢) وعقوبة تكفيرية (Sanction expiatoire) تتناول الخائن بصنوف التعذيب والأهانات ، وقد تؤدى به إلى القتل على أفظع الصور .

وهنا تبدو لأول مرة فى التاريخ فكرة الجنحة أو الجناية ، كما يفهمها القانون واضعو القوانين .

ولعل من الحق أن نوضح ، أن الجزية التى كانت تدفعها قبيلة المعتدى لقبيلة المعتدى عليه ، لم يكن المعتدى عليه ليحرم منها ، بل كان يتناول القسم الأكبر منها لأن الاعتداء وقع عليه ، ويترك لقبيلته القسم الباقى (Fredus) لأنها هى أيضاً اعتدى عليها ، لمجرد وقوع الاعتداء عليه ، وهكذا أصبحت العقوبة عامة ، يتضافر جميع أفراد القبيلة ـ لأرغام المعتدى ، فرداً كان أم قبيلة ـ على دفعها .

وكانت القبيلة ـ عند قوع حادث اعتداء ـ تجتمع وتصدر حكما بالعقوبة التى تفرضها ، ومن ثم يجرى التنفيذ حسب مراسيم دينية ، نجدها بأوضح صورها فى القانون الرومانى القديم ، وفى أكثر الشرائع الدينية .

وهذه الصبغة الدينية ، كانت ترغم المعتدى على الانصياع لتنفيذ العقوبة التى فرضت عليه ، وإلا ترك لغضب الآلهة !!!

ويعتقد المسيو (A. Rey) أن العقوبة ، فى هذا الدور ، لم تكن وسيلة لقمع الشر ، بل وسيلة للتكفير عن الشر ، وأنت ترى أن الفرق بين القمع والتكفير عظيم ، فالأول لمنع وقوع الشر ، والثانى لازالة الأثر السىء الذى أحدثه وقوع الشر ، وأقرب شبها إليهما : منع وقوع المرض باتخاذ أسباب الوقاية ، ومداواة هذا المرض بعد وقوعه !

— ٨ —

ثم جاءت الأديان ، فقررت أن الخطيئة المقصودة ، تنتج مسئولية شبيهة بالمسئولية القانونية ، ولكنها لم تتنكب عن استعمال مختلف أساليب التعذيب ، للحصول على إقرار المتهم أو الخاطىء ، ولم يسلم من استعمال هذه الأساليب دين فيما نعرف ، ولكن هنالك تفاوتاً كبيراً ، بين استعمال دين ودين لهذه الأساليب التعذيبية ، فمنها من أجازها إلى حد الأغراق ، ومنها من لم يجزها إلا فى حالات استثنائية ، وإلى حد معين !

ولما قويت الهيئات البشرية ، استطاعت أن تحول الانتقام من انتقام شخصى إلى انتقام عام ، ووضعت على هذه الصورة ، أول أساس « للدولة » (L'Etat)

ولكى تستطيع الدولة أن تقوم بمهمتها ، فرضت على رعيتها ضرائب لم تلبث أن تضاعف عددها ، وراحت تسعى لقمع الشر عن طريق القسوة والصرامة ، ظناً منها أن القسوة أدعى إلى ردع الشقاوة وأقرب .

وهكذا أصبحت العقوبة فى غاية الصرامة لا أثر للرحمة فيها ، حتى أن السرقة البسيطة ، كان جزاؤها القتل الفظيع !!!

وكانت عقوبة القتل تطبق فى ١١٥ حالة ! ! !

ورحمة بى وبك ، أستميحك العذر ، فلا أذكر لك كيف كانوا ينفذون عقوبة القتل ، ولا غيرها من العقوبات ، وبحسبك أن تعلم أن المتهم أو المحكوم عليه كان يموت فى الدقيقة الواحدة مرات ومرات ، وبحسبك أن تعلم أن أسهل أنواع الموت عند بعض الأقوام القديمة ، كان يقضى بدهن جسم المحكوم بالزفت ، ومن ثم إشعال النار فيه .

وكان من خصائص هذا الدور التاريخى التشديد فى العقوبة إلى حد الاغراق ، والاغراق اللامتناهى ، حتى لتتضاءل وحشية الانسان الأول أمام فظائع هذا العهد . . . فقد كانوا يحمون الحديد حتى لافرق بينه وبين النار ، ومن ثم يكوون به يد السارق ، ولسان الكاذب ، ورجل الغاصب . . . وكانت هذه العقوبة الوحشية وسيلة بدائية لاعانة الحاكم على تمييز المذنب من البرىء ! ! !

ولعلك لم تفهم كيف تتم للحاكم هذه « المساعدة » ؟ فلتعلم أن المتهم يجب أن يعود إلى الحاكم بعد ثلاثة أيام من إجراء عملية الكى ، فاذا بقى فى العضو الذى جرى عليه الحديد المحمى أثر للحرق عد مذنباً ، وأصدر الحاكم فى حقه حكما يقضى بعقوبة ، أخشى على نفسى وعليك من وصفها . . .

ولكن آثار الحرق قد تزول . . . وهذا دليل على براءة المتهم . . . وأما هذا الكى ، فلست أدرى ولا الحاكم يدرى ، لحساب من يجب أن يقيد ! !

وحذار أن تستنكر شيئا من ذلك لأن الحاكم لم يكن ولن يكون يوماً ما « إلهاً » يستطيع أن يدخل القلوب ويكشف الحقائق ! ! !

وهل من يقدر على ذلك غير الآلهة ؟ ؟ ؟

— ١٠ —

. . . . وانتهت القرون الوسطى ونبتت الفلسفة الانسانية على ضفاف « السين » وعلى شواطىء « البو » ، وإذا « روسو » وإذا « مونتسكيو » وإذا « فولتير » وإذا « بكاريا » وإذا الحملة العنيفة التى شنها الفلاسفة الانسانيون على القوانين والشرائع غير الانسانية . . . ففتحت الشعوب أعينها للضوء ، وراحت تطالب بالعدالة ، وتهتف فى آذان الحكام والمتشرعين : الرحمة فوق العدل ! ! !

والتفتت الانسانية إلى ماضيها تودعه بدمعة السرور والأمل . . . وهى مع الأسف لا يمكن أن تكون آخر دمعة من نوعها . . . .

وعلى كل ، فقد قذف أولئك الفلاسفة إلى عالم الوجود بنظريات حديثة لتلطيف الجزاء نلخصها فيما يلى : —

— ١١ —

وأول هذه النظريات ، وأهمها فى نظر بعض فلاسفة الحقوق ، هى نظرية « روسو » وهى المعروفة بين علماء القانون « بالنظرية التعاقدية » (Théorie contractuelle) .

وهذه النظرية تستوحى حق الاقتصاص من عقد اجتماعى خيالى وقعه البشر فى عهد نسى « روسو » أو تناسى أن يذكر لنا مكانه من التاريخ .

ويذهب هذا الفيلسوف إلى أن البشر فى فجر التاريخ ، كان لهم الحق فى الاقتصاص ممن يعتدون عليهم ، ولكننا نخالفه فى هذا الرأى ، وننضم إلى الفيلسوف الايطالى « بكاريا » (Beccaria) الذى لايرى فى منشأ الحقوق الجزائية ، إلا أنها وسيلة للدفاع فقط ، لا للاقتصاص !

ويتفق الاثنان فى نقطة واحدة ، فيقرر « روسو » ويؤيده الثانى فى أن هذا الحق - الاقتصاص أو الدفاع - تنازل عنه الفرد للمجتمع ، ليتولى هذا الأخير الحرص عليه والدفاع عنه!

ولعل هذه النظرية ولا سيما نظرية « بكاريا » أقرب إلى العقل وأدنى إلى الصواب من غيرها ، لأنها ترفع حق القصاص على دعائم الحق والعدالة ، وقد يستحسن أن نشير هنا إلى ما لاقته هذه النظرية من الاقبال والتشجيع فى القرن الثامن عشر ، حتى أن القانون الافرنسى ذاته لم يكن لينساها ، بل اقتبس منها الشىء الكثير .

والواقع أن هذه النظرية - كما يقول القانونى الافرنسى «رينه فوانيد»(René Foignet) وزميله « إميل ديبون» (Emile Dupont)- ترتكز على أسس فاسدة ، وغير صحيحة «لأن الانسان لايحيا ولا يمكن أن يحيا وحده ، فالحالة الطبيعية ، والعقد الذى وضع لها حداً نهائيا إن هما إلا افتراضات خيالية !»

وعلى كل ، نحن لا نرى كيف تجيز هذه النظرية للانسان الأول حق القصاص والاقتصاص ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية نحن نعلم أن حق الدفاع لا يكون مشروعا إلا عندما يتخذ وسيلة لدفع الهجوم والاعتداء ، ونعلم أيضا أن الهيئات البشرية القديمة لم تكن لتقتص من المعتدى إلا بعد وقوع الاعتداء .

وعدا هذا كله ، فان تنازل الفرد عن حقه فى الدفاع أو الاقتصاص للمجتمع إذا لم يكن مستنكراً فليس يسعنا إلا أن نستنكر قبول الجانى - برضاه التام - الخضوع للعقوبة التى يصدرها فى حقه المجتمع حسب العقد الخيالى الذى وقعه فى عهد لا يعرفه ولا يمكن أن يعرفه .

— ١٢ —

ويضطرنا التاريخ « الكرونولوجى » أن نردف النظرية التعاقدية « بالنظرية النفعية » (Théorie Utilitaire) وإذا كانت كلمة (Utilitaire) تؤدى المعنى المقصود ، باللغة الافرنسية ، فان كلمة « النفعية » أعجز ما تكون عن تأدية المعنى المقصود باللغة العربية ، ولعل الأصح أن نستبدلها بكلمة « الضرورية » ... والحقيقة أن الكلمتين معا لا تؤديان المعنى المطلوب ، فبحسبنا أن نلخص لك هذه النظرية لتضع لها اسماً بنفسك ...

ونحن نؤثر أن ندعوها « نظرية المصلحة العامة » ـ وإن لم تكن ترجمة لاسمها الافرنسى ـ وسترى أننا وفقنا إلى ذلك بعض التوفيق ، لا كله !

وأول من قذف بهذه النظرية إلى عالم الوجود ، فيلسوف اقتصادى يدعى « بانتام » (Bantham) ، فهو بعد أن نقض النظرية التعاقدية ، وأظهر ما فيها من عيوب ومفاسد ، أقام على أنقاضها نظريته هذه ، وإليك خلاصتها ، كما يلخصها بنفسه : « إن ما يسوغ العقوبة هو نفعها الأقصى ، وبعبارة أوضح وجوبها (يريد ضرورتها) . . . المجرمون أعداء المجتمع ! » .

اذن ، المجتمع يقتص من الجانين لانقاذ المصلحة العامة ، وإذن فالعقوبة تسوغها ضرورتها الاجتماعية ، واذن فالذنب الواحد قد يحتمل عقوبات متعددة ، متفاوتة فى الشدة والصرامة بالنظر الى الضرر الذى يحدثه للمجتمع .

وهذه النظرية على وجاهتها تنظر إلى الأعمال وحدها ، وتهمل الشخص الجانى والدوافع التى حملته على اقتراف جنايته . . . تهمل ذلك إهمالا ، لا يؤيده عقل ، ولا يستسيغه منطق ، وقد أثبتت النظريات الفلسفية الحديثة أن الانسان لا يبعد أن تبرئه الحاكم ، وإن اقترفه جناية القتل المتعمد ، ولا أدل على ذلك من قانون الجنايات الافرنسى ، الذى لا يأخذ الرجل الذى يقتل قرينته وعشيقها ، اذا فاجأهما يأتيان المنكر فى داره . وهنالك ظروف غير هذه ليس يتسع المجال لذكرها تبرىء المجرم ، مستندة فى هذه التبرئة الى الدوافع والعوامل النفسية .

وقد تعجب ، وتعجب بحق ، إذا علمت أن قانون الجنايات الافرنسى نفسه ، يعتمد فى أكثر مباحثه على نظرية « بانتام » . . . وهى التى تبشر بضرورة « الارهاب » (Intimibation) لقمع الشقاوة وردع الأشقياء .

— ١٣ —

وقد لا تكون « النظرية الأخلاقية » (Théorie morale) أوفر حظا من المنطق من النظريتين السابقتين ، فهى لا تنظر ولا تواجه النتائج الاجتماعية ، التى تحدثها الجنحة ، أو الجناية ، ولكنها

تحصر بحثها فى مواجهـة الجريمة من حيث هى جريمة فقط ، أى أنها تنظر إلى العمل من حيث هو عمل مفيد أوضار ، وتطبق العقوبة بحق الفاعل .

ويمثل هذه النظرية فى العصور السحيقة « أفلاطون » ، وفى العصور الحديثة : « كانت » (Kant) و« جوزيف دى مستر » (Joseph de maistre)، ولـكن « كانت » أعظم من دافع عنها وسعى لنشرها ، ولهذا الاخير ، طريقة فى البحث فلسفية بكل معنى الـكلمة ، فهو يبحث هذه النظرية على الصورة التالية :

١ ـ الانسان حر فى أعماله فهو إزاء عمل من الاعمال يستطيع أن يعمله وألا يعمله .

٢ ـ هـذه الحرية واحدة ، لأى انسان كان أمام عمل واحد . . . وهذه فكرة «سالى» Saleilles نراها عند « كانت » وننسبها اليه ما دام يريد أن ينسبها الى نفسه .

٣ ـ وهذه الحرية المتعادلة ، تخلق مسئولية متعادلة أيضا .

٤ ـ وبالتالى فهى تخلق عقوبة واحدة ، لجميع البشر أمام عمل واحد ! ! !

وهذه نظرية ، فيها الصحيح وفيها الفاسد ، ولـكن الفاسد فيها اكثر من الصحيح . ولعلك تستطيع أن تلحظ ذلك من الأساس الذى شاء (كانت) أن يرفع نظريته عليه ، فلم يتردد عن القول بأن الانسان حر فى أعمـاله ، مع أن هذه الحرية لا تزال ، ولن تزال ، تثير الجـدال والمناقشة العنيفة ، بين المفكرين والفلاسفة .

وغريب أن يجرد (كانت) ، وكذلك زميلاه ـ العقوبة من فكرة الضرورة الاجتماعية ، وأغرب من هذا أن لا يروا ضرورة لردع الجانى عند تـكرير عمله فى المستقبل ! والنتيجة التى تنتهى بنا إليها هذه النظرية هى وجوب التشديد فى العقوبة إزاء الاعمال المنـافية للأخلاق ، وإن لم يكن لها أقل ضرر اجتماعى ، ومعاقبة الأعمال الخطرة اجتماعيـا معاقبة خفيفة . . . أو العفو عنها ! ! وقد نقدها الفيلسوفان الشهيران « كوش » (Cuche) و « موريو » (Moriaud) نقداً وجيها ، خلاصته أنه ليس من الحق فى شىء ، أن ننظر إلى العمل من حيث هو عمل مفيد أو ضار فقط ، وأنه إذا كان هنالك من صلة بين المسئولية الاخلاقية ، والمسئولية القانونية ، فانها لا تعدو أن تـكون صلة واهية ، لا يحق لنا بحال من الاحوال ، أن نتخذها سبباً لتنفيذ العقوبات ، وعلى كل ، لم يكن للنظرية الأخلاقية أو النظرية التـكفيرية (Théorie de L'expiation) أقل تأثير على الشرائع المدنية .

— ١٤ —

وهنا لك نظرية رابعة ، معروفة (بالنظرية الانتخابية) (Théorie éclectique) وهى تحاول أن توفق بين نظرية المصلحة العامة ، والنظرية الأخلاقية .

(البقية على الصفحة رقم ٣٦٨)

فلسفة التاريخ الاسلامى

فى القرن السابع للهجرة

بقلم الاستاذ مصطفى جواد (بغداد)

لا شك فى أن التاريخ ركن من أركان الثقافة ، ويجب علينا أن نبنى الثقافة على أركان علمية ، فقد كان التاريخ الاسلامى من التواريخ المصابة بالجمود والتعصب ، فلم يتمحص من الأكاذيب والتوليدات والخرافات ، ولم يتخلص من قيود الرواية الشعوبية والاسناد التعصبى ، ولم يتملص من سلطة دجاجلة الدين إلا فى عهود هى فى تاريخ الاسلام كالشبابيك المنيرة لقرارات السجون الحالكة ، ولقصر هذه العهود المنيرة وللمواترة بينها ، نظر المحققون إلى تاريخنا الاسلامى نظرهم إلى الآثار المهملة والأبنية العتيقة المتداعية التى طالما استرمت فلم يرمها أحد ، واستهدمت فلم تجدد والحق فى ناحيتهم ، لأنه على كونه تاريخنا نرى فيه من الاضطراب والتناقض والاختلاق والمبالغات ما لا يسكت عليه إلا جاهل ، ولا يؤمن به إلا دجال مخادع ، وحسبك دليلا على ما ذكرنا أن بعض المنافقين كانوا يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته فيسمع بأكاذيبهم ، ويصعد المنبر ويعالن الناس بأنها مكذوبة ، والاسلام حينئذ غض فتى ، والايمان شمس مشرقة ، والفرائض ثابتة الأعلام راسخة الصوى .

إن كل تاريخ لا مندوحة لأهله عن تفهم فلسفته ، ولا بد لهم من فتنه فى مصهار التمحيص كفتن الذهب المخلوط بغيره فى البوطة ؛ وإن الفلسفة تساير حرية الدين وإباحة المعتقدات وعهد ترقى العقل ، وتخمد فى عصور دجاجلة الدين المتسلطين والسلاطين الجاهلين والشعوب المبتلاة بالتعصب الأعمى .

إن قلة فلسفة التاريخ الاسلامى ناشئة من أن أسلافنا — على رأى جماعة — ناس كاملون كمالا لبشريا ، فأفعالهم كاملة صالحة بعد أفعال أنبيائهم - إن لم تكنها - فمن تعرض لها بتمحيص أو نقد أو تحليل كان ملحداً زنديقا فيلسوفاً ، والفلسفة كانت عندهم ترادف الزندقة ، مع أن هؤلاء الجاهلين لو تتبعوا الأخبار تتبع ناقل عاقل - لا جاهل - لوجدوا أن أولئك الأسلاف الآدميين كثيراً ما غلطوا فاستدركوا غلطهم ، وطالما وهموا فوقفوا على أوهامهم ، وربما تاهوا فأرشدوا إلى لقم الطريق .

ومما نستحسن ذكره ههنا أنه قد جاء فى الأخبار أن الامام علياً - ع - كان يتكلم مع جماعة فمر به يهودى فقال له : « لو أنك تعلمت الفلسفة - يا ابن أبى طالب - لكان يكون لك شأن من الشؤون » فقال له الامام على : « وما تعنى بالفلسفة ؟ أليس من اعتدل طباعه صفا مزاجه ، ومن صفا

مزاجه قوى أثر النفس فيه، ومن قوى أثر النفس فيه سما إلى ما يرتقبه، ومن سما إلى ما يرتقبه فقد تخلق بالأخلاق النفسانية، ومن تخلق بالأخلاق النفسانية فقد صار موجوداً بما هو إنسان دون أن يكون موجوداً بما هو حيوان، وقد دخل فى الباب الملكى الصورى، وليس له عن هذه الغاية مصير » ، فقال اليهودى : « نطقت بالفلسفة جميعها فى هذه الكلمات يا ابن أبى طالب » (١).

فهذه الحكاية - سواء أكانت صحيحة أم مولدة - تثبت عليهم جواز تعلم الفلسفة لأن الذى يبتدع حديثاً لاستحسان شيء هو راض به مجيز له بداهة.

ولو تتبع منصف عاقل ضحايا الفلسفة البريئة والزندقة المختلقة فى تاريخ الاسلام لذابت نفسه أسفاً من اتخاذهم الدين وسيلة للتشفى والثأر وستر عيوب السياسة وإشباع الطمع ومماشاة الجشع وطلب الدنيا والجاه، ولا أترك القارىء وفى نفسه شيء مما قلت، بل أذكر له بعض الحوادث الدالة على صحة الدعوى: فقد نقل الجاحظ عن عبد الله بن ياسين «أن المهدى بن منصور كان فيه غزل وشدة حب للخلوة بالنساء، فبلغه جمال عن ابنة لكاتبه أبى عبيد الله، فقال للخيزران : استزيرها فاستزارتها وجاءت إليها، فقالت لها الخيزران : هل لك فى الحمام؟ قالت : نعم، فلما دخلت الحمام وافاها المهدى فبرزت له ولم تستتر عنه، فقال لها : أنا وليك فزوجينى نفسك، فقالت : أنا أمتك، فتزوجها ونال منها، فلما انصرفت أخبرت إخوتها بما كان، فقالوا : أمسكى عنه، فلما كان بعد مدة قالوا لها : استزيرى الخيزران، فاستزارتها، فلما صارت إليها قالت: هل لك فى الحمام؟ قالت : نعم، فلما دخلتا معاً ما شعرت الخيزران إلا ببنى أبى عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم، فقالوا لها: لو أردنا أن نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا، ولكنا لا نستحل، فقالت : والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم، فانصرفوا، فلما رجعت الخيزران أخبرت المهدى بذلك، فكان السبب فى قتل المهدى لمحمد بن أبى عبيد الله على الزندقة » (٢)

وكان الطغرائى أبو اسماعيل الحسين بن على الشاعر وزير مسعود بن محمد السلجوقى، قد أسر فى واقعة همذان، فاتهمه شهاب الدين أسعد الطغرائى بالالحاد، فقال وزير محمود السلجوقى « نظام الدين على بن أحمد السميرمى »: من يكن ملحداً يقتل، فقتل ظلما، وكان هؤلاء قد خافوا منه لأقبال السلطان محمود عليه لفضله فاعتمدوا قتله بهذه التهمة (٣).

واتهم جماعة شهاب الدين أبا الفتح يحي السهروردى بانحلال العقيدة واعتقاد مذهب الفلاسفة، فلما وصل إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة دمه فحبسه الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف، ثم خنقه بإشارة والده. (٤)

---

(١) صحيفة الأبرار « ج ١ ص ١٢٨ »
(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٣٠
(٣) الوفيات « ١ : ١٧٧ »
(٤) الوفيات « ٢ : ٤١٢ »

ولما استولى البويهيون على العراق وما إليه ازدهرت الفلسفة ازدهاراً عجيباً ، فنشأت رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء وغيرها، وسبب ذلك المسامحة الدينية وتحرير العقول، بل تجاوزت الفلسفة إلى الشعراء كالمعرى أبى العلاء ولكنه ضل وشكك .

والقرن الذى نريد الأبانة عن فلسفة التاريخ الأسلامى فيه كان فاتحة عصور الحرية الدينية فى الشرق، فقد كثر فيه الفلاسفة على اختلاف تفلسفهم ، وبلغ أولو الأمر فيه إلى درجة رفيعة من العلم كأبى العباس أمير المؤمنين أحمد الناصر لدين الله العباسى أعظم ساسة الخلفاء العباسيين ومجدد الدولة العباسية وخلافته من سنة ٥٧٥ إلى ٦٢٢ هـ ، كان العلم فيها سامى المكانة عظيم الحفاوة وافر الاقبال ، واشتهر من الفلاسفة فى هذا القرن السابع « ٦٠٠ - ٧٠٠ » محمد بن سلمان بن قتلمش حاجب الناصر لدين الله المذكور ، وسيف الدين أبو الحسن على الآمدى ، ومعين الدين سالم بن بدران المعتزلى ، وجعفر القطاع الملقب بالسديد البغدادى ، والموفق عبد اللطيف البغدادى ، وفخر الدين محمد بن عمر الرازى ، وركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلى ، والحسن بن الأمير أبى على بن نظام الملك الوزير ، ومحمد بن مبشر البغدادى ، والحسن بن محمد الأربلى الضرير الملقب عز الدين ، وعبد الحميد بن أبى الحديد المدائنى ، وعلى بن يوسف القفطى ، وموسى بن ميمون اليهودى الأندلسى ، ونجم الدين النخجوانى ، ونصير الدين محمد الطوسى شيخ الفلاسفة ، وموسى بن يونس العقيلى الموصلى ، وعز الدولة بن كمونة اليهودى صاحب الأبحاث عن الملل الثلاث ، وكمال الدين حسن بن يحيى ؛ أما أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوى نقيب البصرة فقد كان فريداً فى فلسفة التاريخ ، ويليه فى ذلك محمد بن سلمان بن قتلمش ؛ والآن ننقل للقارىء شيئاً من فلسفته فى التاريخ الاسلامى ، وكانت وفاته سنة ٦٢٠ هـ (١) .

قال عبد الحميد بن أبى الحديد المدائنى : « حدثنى جعفر بن مكى الحاجب - رحمه الله - (٢) قال : سألت محمد بن سلمان حاجب الحجاب (وقد رأيت أنا محمداً هذا ، وكانت لى به معرفة غير مستحكمة ، وكان ظريفاً أديباً ، وقد اشتغل بالرضيات والفلسفة ، ولم يكن يتعصب لمذهب بعينه) ، قال جعفر : سألته عما عنده فى أمر على وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بنى هاشم ، وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان يحسد محمداً - ص - وحاربه ولم تزل الثنتان متباغضتين وإن جمعتهما المنافية (٣) ؛ ثم إن رسول الله - ص - زوج

---

(١) راجع كتابنا « السنون الضائعة من الحوادث الجامعة » عن فوات الوفيات .

(٢) توفى سنة ٦٣٩ هـ كما فى صفحة ١٤٨ من « الحوادث الجامعة » لعبد الرزاق بن الفوطى ، الذى قمنا بطبعه حديثاً ، وكما فى ج ٥ ص ٤٦ من طبقات الشافعية الكبرى للسبكى . وراجع شرح ابن أبى الحديد ج ٢ ص ٢٢٠ ، ٤٠١ وج ٣ ص ٣٨٢ ؛ فقد كان صديقه .

(٣) المنافية هى النسبة الى عبد مناف

علياً بابنته وزوج عثمان بابنتـه الأخرى ، وكان اختصاص رسول الله لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الأخرى، وللثانية التى تزوجها عثمان بعد وفاة الأولى، واختصاصه أيضاً لعلى وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه إياه لنفسه أكثر وأعظم من اختصاصـه لعثمان ، فنفس عثمان ذلك عليه فتباعد ما بين قلبيهما، وزاد فى التباعد ما عساه يكون بين الأختين من مباغضة أو مشاجرة، أو كلام ينقل عن إحداهما الى الأخرى فيتكدر قلبها على أختها، ويكون ذلك التكدير سـببا لتكدر ما بين البعلين أيضا — كما نشاهده فى عصرنا وفى غيره من الأعصار —، وقد قيل: «ما قطع بين الأخوين كالزوجتين» ، ثم اتفق أن عليا قتل جماعة كثيرة من بنى عبد شمس فى حروب رسول الله — ص — فتأكد الشنآن ، واذا استوحش الانسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله — ص — فصبا إلى على جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ، ولا حضر فى دار فاطمة مع من حضر من المتخلفين عن البيعة،وكانت فى نفس على أمور عن الخلافة لم تمكنه إظهارها فى أيام أبى بكر وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه ، فلما قتل عمر وجعل الأمر شورى بين الستة ، وعدل عبد الرحمن بها عن على الى عثمان لم يملك نفسه على فأظهر ما كان كامنا وأبدى ما كان مستورا ، ولم يزل الامر يتزايد حتى شرى ما بينهما وتفاقم ، ومع ذلك فلم يكن على لينكر من أمره إلا منكرا ، ولا ينهاه إلا عما تقتضى الشريعة عنه نهيه،وكان عثمان مستضعفا فى نفسه رخواً، قليل الحزم واهى العقدة،وسلم عنانه إلى مروان يصرفه كيف شاء،فالخلافة له فى المعنى ولعثمان فى الاسم، فلما انتقض على عثمان أمره استصرخ عليا ولاذ به وألقى زمام أمره اليه،فدافع عنه حيث لا ينفع الدفاع ، وذب عنه حين لا يغنى الذب ، فقد كان الأمر فسد فساداً لا يرجى صلاحه » .

قال جعفر : « فقلت له : أتقول إن علياً وجد من خلافة عثمان أعظم مما وجد من خلافة أبى بكر وعمر ؟ فقال : كيف يكون ذلك وهو فرع لهما ولولاهما لم يصل إلى الخلافة ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ولا تخطر له ببال ؟ ولـكن ههنا أمر يقتضى فى عثمان زيادة المنافسة وهو اجتماعهما فى النسب وكونهما من بنى عبد مناف، والانسان ينافس ابن عمه الأدنى أكثر من منافسته الأبعد ، ويهون عليه من الأبعد ما لا يهون عليه من الأقرب »

قال جعفر : « فقلت له : فما تقول فى هذا الاختلاف الواقع فى أمر الامامة من مبدأ الحال؟ وما الذى تظنه أصله ومنبعه؟فقال:لا أعلم لهذا أصلا إلا أمرين : أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمل أمر الامامة فلم يصرح فيه بأحد بعينه ، وإنما كان هناك رمز وإيماء وكناية وتعريض لو أراد صاحبه أن يحتج به وقت الاختلاف وحال المنازعة لم يقم منه صورة حجة تغنى ولا دلالة تحسب وتكفى،ولذلك لم يحتج على يوم السقيفة بما ورد فيه لأنه لم يكن نصاً جلياً يقطع العذر ويوجب الحجة ، وعادة الملوك إذا تمهد ملكهم وأرادوا العقد لولد من أولادهم أو ثقة من ثقاتهم أن يصرحوا بذكره ويخطبوا باسمه على أعناق المنابر وبين فواصل الخطب ، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم والأقطار النائية منهم ، ومن كان ذا سرير

وحصن ومدن كثيرة ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك بحيث تزول الشبهة فى أمره ويسقط الارتياب بحاله، فليس أمر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير فى مظنة الاشتباه واللبس، ولعله كان لرسول الله - ص - عذر فى ذلك لا نعلمه نحن إما خشية من فساد الامر وإرجاف المنافقين وقولهم « إنها ليست بنبوة وإنما هى ملك أوصي به من بعده لذريته وسلالته، ولما لم يكن أحد من تلك الذرية فى تلك الحال صالحا للقيام بالأمر لصغر السن جعله لأبيهم ليكون فى الحقيقة لزوجته التى هى ابنته ولأولاده منها من بعده » ، أما ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل : « إن الله - تعالى - علم أن المكلفين يكونون على ترك الأمر مهملا غير معين أقرب إلى فعل الواجب وتجنب القبيح » ، ولعل رسول الله - ص - لم يكن يعلم فى مرضه أنه يموت فى ذلك المرض ، وكان يرجو البقاء فيمهد للامامة قاعدة واضحة ؛ ومما يدل على ذلك أنه (لما نوزع فى إحضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلون بعده غضب وقال : اخرجوا عنى) لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرفهم رشدهم ويهديهم إلى مصالحهم ، بل أرجأ الأمر إرجاء من يرتقب الافاقة وينتظر العافية ، فبتلك الأقوال المحجمة والكنايات المحتملة ، والرموز المشتبهة ، مثل حديث : خصف النعل، ومنزلة هرون من موسى، ومن كنت مولاه ،وهذا يعسوب الدين ،ولا فتى إلا على ،وأحب خلقك إليك، وما جرى هذا المجرى (مما لا يفصل الأمر، ولا يقطع العذر، ولا يسكت الخصم، ولا يفحم المنازع). وثبت الانصار فادعتها، ووثب بنو هاشم فادعوها ؛ وقال أبو بكر : بايعوا عمر أو ابا عبيدة، وقال العباس لعلى : امدد يدك لأبايعك ، وقال قوم - ممن رعف به الدهر فى ما بعد ولم يكن موجوداً حينئذ - : « إن الأمر كان للعباس لأنه العم الوارث، وإن أبا بكر وعمر ظلماه وغصباه حقه » ، فهذا أحدها . ؛ وأما السبب الثانى للاختلاف فهو جعل عمر الأمر شورى فى الستة ولم ينص على واحد بعينه ، إما منهم وإما من غيرهم ، فبقى فى نفس كل واحد منهم أنه قد رشح للخلافة وأهل للملك والسلطنة ، فلم يزل ذلك فى نفوسهم وأذهانهم مصوراً بين أعينهم مرتسما فى خيالاتهم منازعة إليه نفوسهم طامحة نحوه عيونهم، حتى كان من الشقاق بين على وعثمان ماكان ، وحتى أفضى الأمر إلى قتل عثمان ، وكان أعظم الأسباب فى قتله طلحة ، وكان لا يشك أن الأمر له من بعده لوجوه ، منها : سابقته ، ومنها أنه ابن عم لأبى بكر ، وكان لأبى بكر فى نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة أعظم منها الآن (١) ، ومنها أنه كان سمحاً جواداً ، وقد كان نازع عمر فى حياة أبى بكر ، وأحب أن يفوض أبو بكر الأمر اليه من بعده ، فما زال يفتل فى الذروة والغارب فى أمر عثمان، وينكر له القلوب ، ويكدر عليه، النفوس، ويغرى أهل المدينة والأعراب وأهل الأنصار به ،وساعده الزبير وكان أيضاً يرجو الأمر لنفسه ، ولم يكن

(١) أى الثلث الأول من القرن السابع للهجرة

رجاؤهما هذا الأمردون رجاء على، بل رجاؤهما كان أقوى، لأن علياً دحضه الأولان وأسقطاه وكسرا ناموسه (١) بين الناس، فصار نسياً منسياً، ومات الأكثر ممن يعرف خصائصه التى كانت فى أيام النبوة، وفضله؛ ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلا رجلا من عرض المسلمين، ولم يبق له مما يمت به إلا أنه ابن عم الرسول وزوج ابنته وأبو سبطيه، ونسى ما وراء ذلك كله، واتفق له من بغض قريش وانحرافها مالم يتفق لأحد، وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحب طلحة والزبير لأن الأسباب الموجبة لبغضهم له لم تكن موجودة فيهما، وكانا يتألفان قريشا فى أواخر أيام عثمان ويعدانهم بالعطاء والأفضال، وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة لا بالفعل، لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة، وعمر متبع القول مرضى الفعال موفق مؤيد مطاع نافذ الحكم فى حياته وبعد وفاته؛ فلما قتل عثمان أرادها طلحة وحرص عليها، فلولا الأشتر وقوم معه من شجعان العرب جعلوها فى على لم تصل اليه أبداً، فلما فاتت طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على على، وأخرجا أم المؤمنين معهما وقصدا العراق وأثارا الفتنة، وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف، ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين، فان معاوية لم يكن ليفعل مافعل لولا طمعه بما جرى فى البصرة، ثم أوهم أهل الشام أن علياً فسق بمحاربة أم المؤمنين ومحاربة المسلمين، وأنه قتل طلحة والزبير وهما من أهل الجنة، ومن يقتل مؤمنا من أهل الجنة فهو من أهل النار. فهل كان الفساد المتولد فى صفين إلا فرعا للفساد الكائن يوم الجمل؟ ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ما جرى من الفساد والقبيح فى أيام بنى أمية، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعا من فروع يوم الدار، لأن عبد الله كان يقول: إن عثمان لما أيقن بالقتل نص على بالخلافة ولى بذلك شهود، منهم: مروان بن الحكم. أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعا على أصل وغصنا من شجرة وجذوة من ضرام؟ هكذا يدور بعضه على بعض وكله من الشورى فى الستة، وأعجب من ذلك قول عمر — وقد قيل له إنك استعملت يزيد بن أبى سفيان، وسعيد بن العاص، ومعاوية وفلاناً وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء، وتركت أن تستعمل عليا والعباس والزبير وطلحة — فقال: أما على فأنبه من ذلك، وأما هؤلاء النفر من قريش فانى أخاف أن ينتشروا فى البلاد فيكثروا فيها الفساد، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا فى الملك ويدعيه كل واحد منهم لنفسه؟ كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين فى الشورى مرشحين للخلافة؟ وقد روى أن الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان فسر بذلك فلما، غابا عن عينه بكى، فقال له الفضل بن الربيع: مايبكيك يا أمير المؤمنين! وهذا مقام جذل لامقام حزن؟ فقال: أما رأيت لعبهما ومودة بينهما، أما والله ليتبدلن ذلك بغضاً وسيفا؛ وليختلس كل واحد

(١) يقصد بالناموس هنا « الهيبة والقدرة »

منهما نفس صاحبه عن قريب، فان الملك عقيم، وكان الرشيد قد عقد لهما الأمر على ترتيب هذا بعد هذا، فكيف من لم يرتبوا فى الخلافة، بل جعلوا فيها كأسنان المشط ؟» قال عبدالحميد بن أبى الحديد «: فقلت أنا لجعفر: هذا كله تحكيه عن محمد بن سليمان، فما تقول أنت؟ فقال:

إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام» (١)

ونحن لم ننقل هـذا ونحن مؤمنون بما جاء فيه، وإنما لنبين للقارىء كيف كانت فلسفة التاريخ الاسلامى فى ذلك القرن السابع، وإلى أى غاية بلغت من تحرى الحقائق ورجع الحوادث إلى أسبابها، وكان فى هذا العصر خروج التتر على الشرق الأدنى فاستحوذوا عليه بحروب دونها الحروب العظمى، ولكن الحرية الدينية زادت زيادة عظيمة مع حرية التمذهب والمذاهب فترقت الفلسفة فى الشرق الأدنى، فالقاآن قوبلاى مثلا (وهو سلطان المغول) كان يحب الحكماء والفلاسفة والعلماء والمتدينين من سائر المذاهب والأمم (٢)، وفى ذلك العصر ألف كتاب «الآداب السلطانية» المعروف بالفخرى، وهو مبنى على فلسفة التاريخ والاصول العلمية، ومنه اقتبس المرحوم جرجى زيدان قواعد التأليف فى التاريخ، كما يظهر لكل عارف بأساليب التأليف التاريخى؛ هذا ولا نرى فى أنفسنا حاجة الى ذكر مثال آخر لفلسفة التاريخ الاسلامى فى هذا العصر، لأن فى ما قدمنا إحسابا وكفاية بالنسبة الى مواضع النشر. ؟

(بغداد) مصطفى جواد

فلسفة الحقوق الجزائية

(بقية المنشور على الصفحة رقم ٣٦١)

ويمثل هذه النظرية، أربعة من أكبر عواهل الفلسفة الحديثة، وهم (كوزان Cousin) و(غيزو Guizot) و(دى بروغلى De Broglye) و(روسى Rossi)؛ وخلاصتها أن للمجتمع الانسانى كل الحق فى الاقتصاص، ولكن: (لا أكثر مما هو عادل ولا مما هو ضرورى) أى أنها تنظر إلى العمل وإلى الفاعل وإلى الضرورة الاجتماعية فى وقت واحد!

وقد لاقت هذه النظرية رواجا عظيما فى البلاد الاوروبية، ولاسيما فى البلاد الافرنسية، حيث أحدثت سنة ١٨٣٢ تحويراً عاما فى قانون الجنايات الافرنسى، وهى ماتبرح تسدد خطوات المتشرعين فى هذا العصر.

هذا وسنكتب فى العدد القادم عن النظريات العصرية الحديثة فى فلسفة الحقوق الجزائية ؟

(حلب) ايزاك موسى شموش

---

(١) السنون الضائعة فى حوادث سنة ٦٢٠، قلنا: وهذا يدل على رضا جعفر بن مكى شاعر ديوان الخلافة الشافعى بآراء محمد بن سليمان ويمثل هذا يفضل الشافعية غيرهم.

(٢) مختصر الدول ص ٤٩١

دموع الملوك

جلالة الامام يحيى

يبكي ولده الشهيد الامير محمد سيف الاسلام

هى دموع فيها ما يبعث الأسى ، ويزيد فى لوعة الأنين ، وهى دموع ملك جرى القدر على فلذة من كبده فنثرها بين البحر والبر . . . ولكنها إلى ما فيها من أسى ولوعة — جماع الصبر كله — وجماع الجلد من فروعه وأصله . . .

وإذا كانت النكبة الفادحة — موت فقيد الاسلام الأمير محمد سيف الاسلام — قد أتاحت لهذا الخيال الحق — خيال صاحب الجلالة الامام — أن يخلدها ويسترسل بها فى موطن البقاء ، فان « المعرفة » تساهم فى نشر هذه المرثية التى بعث بها إلينا حضرة الأديب يحيى أحمد زبارة أحد أفراد البعثة اليمنية التى أرسلها الفقيد لتتعلم على نفقته فى مصر . تساهم « المعرفة » بنصيب كبير فيه أوضح دلالة على التأثر البالغ ، وأجزل الدعاء لعاهل اليمن الكبير أن تكون هذه الرزيئة منتهى ما يكتنزه له الدهر . . من خديعة وفجيعة .

رضينا بحكم الله سمعا وطاعة ... وإن فت أكباداً وأهرق أدمعا
وعز علينا راحلا غير آيب ... على حين لم يلبث زمانا ممتعا
فقدناه ميمون النقيبة سيداً ... أغر غزير الفضل أبيض أروعا
وحمال أعباء ينوء بحملها ... ثبير ويهوى دونها متصدعا
وذا همة قعساء أمضى عزيمة ... من السيف فى شرع الآله وأقطعا
أقام قناة الشرع للظلم ماحياً ... وبالعدل أخاذاً وللحق مترعا
وأمجد ، من آل الرسول موقراً ... أشم طويل الباع ندبا سميدعا
له الله مفقوداً ، له الله آفلا ... له الله مدعواً اجاب فأسرعا
وبادر عن دار الفنا متحولا ... إلى داره الأخرى منيبا مودعا
فيا رحمة البارى عليه ترددى ... وبلى ثراه طاب مأوى ومضجعا
ولا زال رضوان الآله يؤمه ... بما شاء إكراماً وفضلا موسعا
ويامن له شرح الصدور ومنتهى ... الأمور وجبر الكسر غوثاً ممتعا
بأفراغ صبر من لدنك فانه ... تناهي بنا الخطب العظيم وروعا

مصاب صاحب (المعرفة)

يالهول المصاب ، ويالنكد الطالع ، ويالقسوة القدر ، ويالبطش الدهر ! !

تلك كلمات نرددها إذا ما ادلهم الخطب ، وريع المرء ، ولكن هل لها من قيمة فى الحياة ؟ لا ، لا ، لا . . . . إن هى إلا تعلات كاذبة ، وتوسلات من سراب. وهكذا شأن الحياة: آمال تفجؤها آلام ، وآلام تعاجلها آجال ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

أجل! ففى يوم الأحد ٨ صفر سنة ١٣٥١ — ١٢ يونيو سنة ١٩٣٢ اختار الله إلى جواره ، السيدة البارة المرحومة والدة صاحب « المعرفة » ، فيالها من نازلة انخلعت لها قلوبنا، وانفطرت لهولها أفئدتنا ، .... لقد اختارها الله إلى جواره ، تاركة صغاراً هم أولى بعطفها وحنانها ، اختارها وأطفالها فى مسيس الحاجة إلى رحمتها وشفقتها ، فيا لحكمة الله القوى الجبار ، الحى الذى لا يموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

اللهم إن كان فى الحياة بعد ذلك من هم فليأت ، فقد أضحى طعم الحياة مراً علقما ، وأمسى القلب من شدة مانزل به صلداً جامداً ، لا يأبه بالحوادث ولا يرتاع للخطوب - أياً كان نوعها - فما نحسب الخطب — وإن جل — يبالغ ذرة من الذى نزل .

فالى الله نتوجه بقلوب خالصة من أدران الشهوات ، سائلين أن يلهمنا الصبر والسلوان ، وأن يغدق على الفقيدة شآبيب الرحمة والغفران ، ونشكر من صميم أفئدتنا جميع الذين تفضلوا بمواساتنا فى هذا المصاب الأليم ، خاصين بالشكر : أمراء الشرق العربى ، وقادته وأدباءه ، ووزراء مصر ، ورجال الهيئات السياسية على اختلاف نحلهم ، ورجال الصحافة ، والقضاء ، والمحاماة ، والدين ، والتعليم ، والطرق الصوفية ، والجمعيات الاسلامية . سائلين الله أن يباعد عنهم الأرزاء . وبعد ، فهذه قصيدة من بعض القصائد التى تفضل بها جمهرة من أصدقاء « المعرفة » ننشرها دلالة على تقديرنا لعاطفة حضرات المعزين جميعاً :

(إلى صاحب « المعرفة »)

تعز فان الصبر أجدى وأجمل	وليس لنا مما قضى الله موئل
هو الأجل المحتوم لابد واقع	وإن نفدت دون الوقوع وسائل
هو الموت لامندوحة عنه إن أتى	فان حان حين المرء لايتمهل
فما دام فوق الأرض قبر ممهد	ومادام فوق الكون رب يحول
فليس لنا دون الخلود إلى الرضى	سبيل نراها أو عزاء نجادل
و « منها خلقناكم وفيها نعيدكم »	أليس إليها - أيها الأخ - نرحل
ومثلك يا « عبد العزيز » من اقتدى	بفجعته فى الذاهبين... فيجمل
فان فارقتك اليوم « أم » رضية	ففى جنة الرضوان والخلد تنزل
وإن تك أودعت التراب أمومة	فأمك « مصر » فى يراعك تأمل
فكن رجلا لا تحطمن ثباته	خطوب ألمت أو زمان ينازل

محمد الضاوى عمار

بين المتناظرين

حول الجنس الاسود

كتب الأستاذ الفاضل أحمد فؤاد الأهوانى بالجزء الثانى عشر (ابريل سنة ١٩٣١) من مجلة « المعرفة » مقالا عن الجنس الأسود ، لنا ملاحظات عليه نعرضها فيما يأتى : —

على الرغم من أن الأجناس البشرية تنتمى إلى أصل واحد هو جرثومة الحياة الأولى، فانى — منذ قدر لى أن أعرف الخير من الشر والصواب من الخطأ — لا أكاد أقرأ كتاباً وضع للبحث فى تلك الأجناس ، أو أغشى مجتمعاً مهما كانت خطورته ، إلا وأجد كليهما ينعت الحاميين بأمور هى أقصى مدى للغرابة والاجحاف ، ويجردهم غالباً من سجايا الشرف والمروءة ، والحقيقة تنادى بنكران ما زعموا فى كل أرض وزمان .

فالواقع أن الناس من جهة التمثال أكفاء ، وهم متوائمون فى الجبلة والنفسيات طراً ، متحدون فى الغرائز والاحساس بلا ريب ، ولا فرق بينهم إلا فى العوارض الخارجية كاللون والسحنة الناجين عن الوارثة والمناخ ، وإن كان ثمة أقوال غير هذه فانها راجعة إلى غباوة الدهماء ، وما يروى فى الأساطير العتيقة ، أو لتمسك الخاصة بآرائها فى معانى الكمال بالنقص ، ومعاداة الانسان كل شىء لم يألفه وإن كان هذا الشىء فى ذاته حسناً لطيفاً ، وفى بيئته كريماً مقبولا .

إذاً من الأسراف العظيم — والحالة هذه — أن يحكم على السود بكل ما يسمع ويقرأ، ويزدرى جيل من عباد الله، وهو لا يملك إرضاءاً فى الطبيعة لمشتهياته كلها ، وليس بيده تصاريف الكون فيتحلى بما يروق الأجناس الأخرى .

نعم إن كثيراً من ذوى الثقافة البريئة لم يفتهم أن الحمق والوداعة قد تكون مثلا من الأمور الاعتبارية ، كما يعزى إلى اللاتينيين اللجاجة والنزق ، وإلى السكسونيين التريث وطول الأناة ، ولكن الحق والمشاهد ، أن تغالى البعض بأخذ نظريات النفس والعقل كما رويت ، وتناوله الأخلاق البشرية برجم الغيب ، قد أدى به إلى تنزيل كثير من الأمور المبهمة كالروح منزلة العلوم الحسية ذات البرهان المادى والقانون المطرد ، واعتصموا فى دراستهم إياها بالتكهنات ولا اعتصام الغرقى بأسباب النجاة .

وإذا كان علم النفس ذاته يقول : إنه يتعذر جداً على الانسان أن يعلل ما يدور فى خلده من ضروب الوجدان والرغبات ، لأنه يتأثر فى تقديره ما يحل بنفسه من الخواطر بما يميل إليه

(البقية على الصفحة رقم ٣٧٥)

مملكة المرأة والبيت

خواطر فى النسائيات

بقلم عبد الحميد العمروسى

للفتاة أطوار ثلاثة : الطفولة ، الغلومة ، البلوغ . ففى منتصف دور الغلومة تبتدىء أفكارها تتحدد، ونظرتها إلى الحياة تستقر ؛ وعلى هذا – رويداً رويداً – حتى ينحصر تفكيرها فى نفسها قرب انتهاء هذا الدور، وبذا تنتقل من الحياة الهائجة المضطربة إلى الحياة الشخصية ، إلى الحياة التى تقاس بمقدار ما تجلبه للفتاة من نفع أو ضرر .

تخلو الفتاة إلى نفسها فتجد من الرغاب والآمال ما يملأ صدرها ، ويحتل منها بؤرة الشعور ، وتطرد ما عداه من خواطر الدروس والامتحانات وما شاكلهما من الشواغل التى هى فى المرتبة الثانية بله الثالثة بالنسبة للمرتبة الأولى التى هى « الحاسه الجنسية » .

تفكر الفتاة فينتهى تفكيرها إلى أن تحقيق بغيتها على أيدى الرجل . إذاً يكون الرجل نفسه محل تفكيرها .

نعم وإن كان الباعث لها على التفكير وإشغال الذهن هو هذه الحاسة، لكنها مرغمة على التفكير فى نواح أخرى ترى أن سعادتها وقف على تحقق هذه النواحى فيمن يكون لها بعلا ؛ وهنا تتفاوت العقول ، وتتفاضل البنات ومعهن الأمهات ، فقد ينتهى التفكير إلى تطلب نواح قد لا تتحقق فى الفتى طالب الزواج ، فيرفضن من يتقدم لأنه ليس ذا خلقة جذابة ، ليس ذا ظرف وأناقة ، ليس ذا حسب ونسب ، ليس ذا كفاءة لتقديم شبكة ومهر عظيمين .

وإذا كانت هذه رغائب المدنية على تعلمها ، فليست كذلك القروية على جهلها ؛ فالقروية أقرب إلى الصواب فى الشروط التى تشترط تحقيقها فيمن تود أن يكون لها بعلا ، فتنظر فيه من الناحية الخلقية ، من الناحية المادية المعتدلة ، هى ترضى بمن يتقدم إليها ما دامت تراه صالحاً لأن يكون رجلا رب أسرة ، يستطيع القيام بأعباء الزوجية على قدر طاقته ، فلا ترهقه فى شبكة ولا فى مهر ، ولا تشترط مسكناً خاصاً ، ولا تحتم الانفراد عن الأبوين كأختها المدنية .

أجيبينى أيتها المدنية أيكما كان أجدر بالاعتدال فى الطلبات؟ .

خبرينى وربك أيكما كان أقمن بتقدير الحياة الزوجية، وجعلها فى مستوى أرفع من أن يقف فى سبيلها خلاف على الشبكة ، ونزاع حوال المهر ؟ .

أظن أن قد آن الأوان لأن تدعى الأمور العرضية التى تشترطينها باجحاف فيمن يتقدم إليك راغباً فى حياة روحية تسمو فوق كل اعتبار ، وببعدك عن الاشتطاط فينهد ركن من أركان أزمة الزواج .

وإنى لآخذ عليك أيتها المدنية ظاهرة أخرى شغلت تفكيرك ،ولا تقل خطراً عن تفكيرك فى الشروط السالفة الذكر،هاته الظاهرة تفعلينها على أنها نافعة مجدية ، ولو كنت تدركين سوء مغبتها ما أقدمت عليها . لذا لزم علينا دينياً وأدبيا تنبيهك إليها ، وتحذيرك من عاقبتها .

نرى الفتاة المدنية تميل إلى التعارف ، تميل إلى الاختلاط معللة النفس بالمنى ، لكن سوء تدبيرها خيب آمالها، إذ نراها تجنح إلى التعارف بفتى ـ ما دامت تجد فيه بغيتها ـ فتعطيه من دلها ورقتها ما يستهويه ، ثم هى لا تكتفى به، بل تجد وتبذل جهدها فى الاتصال بثان وثالث ورابع . . . وهنا لا أنكر مهارتها فى إيجاد صلة بينها وبين من تريد . . . وهذه خطة إن أجدت مرة فقد أعقمت مراراً ، والحوادث ناطقة شاهدة على سوء المصير .

ثم لكل فتى رغبات ، فقد يدعوها هذا إلى نزهة خلوية ولا مناص لها من تلبية الطلب ، فما الذى يضطرم فى صدر الثانى إذا رآها متخاصرين متأبطين ؟ .

قد يتصادف ويتصادق اثنان،أو فى مجلس يجتمعان،ويفضى كل منهما إلى صاحبه بمكنون سره ، فاذا محبوبة أحدهما محبوبة الآخر ؟ فما موقفهما معاً ؟ وما موقفهما إن قضت الظروف بأن ينازعهما فى حبهما اثنان آخران ؟ .

هى وإن كان غرضها من كثرة التعارف نزيهاً ، لكنها لا تضمن أخلاق كل فتى تميل إليه بهذه السهولة ، فقد يكون بحيث لا يرعى للفضيلة حرمتها ، ولا يحفظ للنزاهة قدسيتها ، فيتظاهر بالصبابة ، وما هو بالولهان ، ويتصنع شدة الشوق ، وما هو بالحب ؛ فتأسرها هذه المظاهر الكاذبة ، وتظنه صادقا فى توسلاته ، أميناً فى تضرعاته ، فتسلس له القياد ، فتقع فى المحظور ، ثم يتركها تجر أذيال الخيبة والفشل ، ولا أمر فى الحلق من بنان الندم ، وكثيراً ما سمعنا بحوادث من هذا القبيل ، ذهبت ضحيتها فتيات ، لولا إهمالهن ما وقعن .

على أنه يجدر بكل فتاة ذاك شأنها أن تثق وتتأكد أن الفتى الذى تزين لارضائه ،وتتبتخر لأسره ، وتلبى داعيه لابقاء وده ـ لو قيل له:أترضى بهذه زوجاً لك ؟ لأبى وشمخ بأنفه وأجاب مسرعاً : حاشاى أن أتخذ زوجاً من وزعت قلبها بينى وبين غيرى فى أهم أدوار حياتها .

إنه لمحق فى هذه الاجابة ، ومنصف فى هذا الرفض، فهى فى الوقت الذى أسلست له قيادها قد أسلسته لغيره فتعودت سهولة الانقياد ، ومرونة الطباع ، وبذا تكون قد فقدت أعز خواص المرأة من التحصن والاحتباس .

هذا وغير هذا يقول علماء النفس : إن الخاطر الذى يحتل بؤرة الشعور لا يزول كلية ، بل تختفى صورته ويبقى أثره ، فاذا ما اهتاج الأثر بأى سبب جاءت الصورة وحل الخاطر ، فهذه التى مالت للكثيرين ، وأخلصت لكل واحد على انفراد لن تنسى ما كان بينهم

وبينها من الشئون ؛ فهي لا تفتأ تتذكرهم ، وتحن إليهم حنيناً قد يفوق حنينها إلى زوجها .

نخرج من ذلك إلى أن مراقبة البنت فى هذا الطور من ألزم الأمور ، ولا تكون المراقبة بحبسها والتضييق عليها ، فهي كالوعاء ، لا يلبث أن ينفجر ؛ وإنما نضع الخطط الناجعة، ونرسم الطرق النافعة ، ثم نجعلها تسلك هذه الطرق دون أن تشعر بأنها مجبرة على سلوكها ، فنحفظها من الاختلاط بقرينات السوء ، ولا ندعها فى البيت ، لا هم لها إلا المرآة والتجميل ، وإنما نشغلها ، فاشغالها يقطع عليها سلسلة التفكير فى نفسها، ونحترم رأيها، ولا نبدى لها احتقارنا ، بل نشعرها بأن لها شخصية كعضو فى الأسرة نافع ، ونحسن معاملتنا أمامها حتى لا تتأثر بسوءآتنا .

وليس مثل هذا العلاج صالحاً لكل فتاة ، فما يصلح لواحدة قد لا يصلح لأخرى ، وإنما يجب أن يختلف علاجهن باختلاف أمزجتهن وطبائعهن وبيئاتهن ، كما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، ومن هنا تنشأ الصعوبة التى تلاقيها الأمهات الجاهلات فى تقويم فتياتهن . م

عبد الحميد العمروسى (عمروس)

حول الجنس الاسود

(بقية المنشور على الصفحة رقم ٣٧٢)

ويستهويه ، وإن دراسة عقول الشعوب المتوحشة والبائدة « تحتاج إلى أمهر الباحثين وأحذقهم، لأنها تتضمن عقد مشابهة ومقابلة بين مظاهر عقولنا ومظاهر عقولهم ، وتحتاج إلى قوة كبيرة من الخيال تنتقل بنا إلى عالمهم البصير ، لنرى بأعينهم ونسمع بآذانهم ، وتقاسمهم الفكر والوجدان . » ، فهل يعقل فى شرعة الانصاف ـ والأمر كما ترى ـ أن يقتدر المرء على الوصول إلى أفئدة الناس وهو بمنأى ،فيحكم عليها ـ لأدنى ملاحظة لا تنهض بدليل ـ بركود القرائح وخسة الطباع ، ويزعم بملء شدقيه ؛ بأن قوة ذكاء الشيخ المحنك من السود لا تعدو قوة ذكاء الطفل عند الأمم البيضاء ؟ اللهم إنى :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

ولذلك رأيت ـ وقد دبت إلى الشرق تلك النعرات الجلدية ، المتفشية فى العالم المقول عنه ، أرض الحرية والمساواة والدمقراطية والعدل ـ أن أنشر هذه الكلمة الموجزة ، راجيا أن ترفع عنيهبة مما علق بالأفكار ، ريثما يوفقنى المولى ـ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ـ لطبع كتيبى الذى سأشرع فى تأليفه للبرهنة على فحوى هذا المقال بكلام : روحه العلم ؛ وشيمته النزاهة ، وغايته التثقيف ، ورائده الانصاف وهو حسبى ونعم الوكيل . م

محمد مسعود فشيكه

مكتبة المعرفة

فلسفة العقوبة

لسنا فى حاجة لأن نقدم الأستاذ محمد مهدى علام أستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم وفلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالأزهر، فهو أشهر من أن يعرف. وقد أهدانا كتاب « فلسفة العقوبة »، فألفيناه على [illegible]ره كتاباً فريداً فى نوعه، غزيراً فى مادته، سلساً فى أسلوبه، قويا فى عبارته.

فقد حوى طائفة كبيرة من الأبحاث النفسية التى تتعلق بالعقوبة ومنشئها؛ مثل: الشرور الأخلاقيـة وأنواعها، والرذائل وتقسيمها، ونشأة العقوبة ومعناها، والغرض منها، وآراء المشرعين فيها، والعقوبة عند الفلاسفة والمربين وغير ذلك من المواضيع الهامة التى تتعلق بها، أودعه خلاصة تجاريبه واختباراته فى هذا الموضوع وقد ذيله — عدا فهرس الكتاب والمراجع — بفهرس هجائى جميل، فنلفت إليه أنظار الأساتذة والمربين.

الصحة والحياة

تأليف الدكتور ا. س سلمون — تعريب « الزهرة »

يقع فى ٢٨٣ صفحة من القطع المتوسطة ثمنه ٣٥ قرشا — طبع القدس

لا شك فى أن المحافظة على الصحة من أهم مايتطلبه الأنسان فى هـذه الحياة ليعيش فيها سعيدا؛ فان « الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ».

وقد وقفنا على هذا الكتاب القيم، فألفيناه كتاباً جامعاً لكل ما يطلبه الانسان للمحافظة على صحته، وكفاه أنه من تأليف رجل ذائع الشهرة فى عالم الطب هو الدكتور سلمون، أتى فيه أولا على وصف جسم الانسان جميعه ومهمة كل عضو من أعضائه والأمراض التى تعتريه، ووصف بعض العلاجات السريعة فى الحالات التى لا تستدعى العرض على الطبيب، وقد ألفه بعد تجارب كثيرة واختبارات عديدة، وسافر إلى أكثر جهات العالم لهـذا السبب. وقد ضمنه كثيراً من النصائح المفيدة والارشادات النافعة فى هذا الموضوع؛ ترجم إلى أكثر لغات العالم تقريبا ولاقى نجاحا كبيراً.

وقد قامت باخراجه إلى العربية جمعية المطبوعات العربية ببيروت فى قالب جميل وعبارة سهلة خالية من الاصطلاحات الفنية ليكون أعم فائدة، ويرجع الفضل فى هذا كله إلى حضرة الكاتبة القديرة المعروفة الآنسة المهذبة أوليفيا عبد الشهيد المعروفة باسم « الزهرة »، فنثنى على عملها الجليل

ونلفت إليه أنظار القراء عموما والأطباء خصوصا لما فيه من الفوائد . والكتاب يطلب من معربته « الزهرة » بالأقصر .

تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية
مع ذكر أصلها بحروفه

(يقع فى ٧٨ صفحة من القطع المتوسط ـ نشره وصححه الشيخ يوسف توما البستانى)

كثر فى هذه الأيام استعمال ألفاظ كثيرة بين الكتاب تواضعوا على استعمالها، ولكن بينها كثيراً ليس له أصل فى اللغة العربية ، بل هو دخيل عليها من اللغات الأخرى سواء الشرقية منها والغربية ، وقد قام رجال قليلون ببحثها وإرجاعها إلى مصادرها الأصلية كالمرحوم الشيخ ناصيف اليازجى وغيره .

وفى هذه الأيام أخرج لنا حضرة الشيخ يوسف البستانى هذا الكتاب كما أخرج كثيراً غيره من الكتب القيمة ، وهو تأليف القس طوبيا العنيسى الحلبى ، حاوياً بين دفتيه كثيرا من هذه الألفاظ، ومرتبا على حروف المعجم، ومذيلا بحواش وتعليقات مفيدة للناشر ، وهو لا يستغنى عنه عالم أو أديب ، فهو على صغره مفيد كل الافادة ، ومطبوع طبعا متقنا ، فجزاهما الله عن العلم خيراً .

بولين أو غادة ليون

أهدانا حضرة الفاضل السيد أبو بكر المنفلوطى هذه الرواية ،وهى من تأليف اللورد بيرون الكاتب الانجليزى العظيم،والتى قام بتعريبها،فتصفحناها بشغف ونهم ،فاذا بها من خير ماترجم إلى العربية من الروايات . وهى تمثل حياة فتاة جميلة متغطرسة وشاب وضيع تيمه حبها،ومازال بينهما صراع الحب إلى أن خلق من هذا الشاب الوضيع رجلا حربيا عظيما رضيت بالاقتران به بعد أن كانت تعزف عنه وتحتقره ، ويصور لك كيف يلعب الحب دوره فى هذه الرواية ، وينفخ من روحه القوية فى هذا الشاب،فيجعله عظيما، وكيف يخضعها الحب له فترضى به وتكون له خير رفيق ،كل ذلك فى أسلوب شعرى جميل وعبارة عربية صحيحة فنشكر له هديته ، ونثنى على همته . وتطلب الرواية من المكتبة الأهلية بالفجالة .

تاريخ طرابلس الغرب
لأبى عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسى

لكل أمة من الأمم تاريخ تعتز به ، وقومية تحبوها وترعاها ، ولا شك فى أن التاريخ

خير ما يقدم للنشء ليغذى به عقله، ويأخذ من ذكرى آبائه وأجداده ما يفتخر به ، وما يجعله نبراسا له، وهاديا يهديه ويجنبه مواطن الزلل .

نقول هذا وبين أيدينا الآن كتاب تاريخ طرابلس الغرب، القطر الشقيق لمصر. قام بطبعه وتصحيحه الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى ، فأخرج أصله ـ الذى ليس منه إلا نسخة واحدة ـ من عالم الأهمال، وقام بطبع الكتاب وتنسيقه وتبويبه وقدمه هدية ثمينة لبنى وطنه إذ أنه لا يوجد لها كتاب فى التاريخ غير هذا الكتاب .

وقد تصفحنا الكتاب فألفيناه وافياً بالغرض الذى وضع من أجله ، حاويا لكل ما يهم الاطلاع عليه فى هذا الباب، وبه مقدمة نفيسة بقلم الناشر والتعريف بالمؤلف، وبه فهرس واف . ومطبوع طبعاً متقناً على ورق صقيل،ومصحح تصحيحاً دقيقاً ،ومشروح ما غمض من ألفاظه، فنشكر للأستاذ همته فى خدمة بنى وطنه ونلفت إلى الكتاب أنظارهم.

فرنسا وسياستها البربرية
فى المغرب الأقصى

صديقنا الأستاذ محمد المكى الناصرى من زعماء شباب المغرب الأقصى المجاهدين ، الذين يعملون على تخليص بلادهم من نير الاحتلال الفرنسى الذى ترزح تحته بلادهم ، وهو دائب فى جهاده لا يثنيه عنه نفى أو تشريد ، ولا يترك فى ذلك فرصة إلا وينتهزها سواء بالخطابة أو الكتابة .

وقد أهدانا كتاباً معنوناً بهذا العنوان ، قامت بطبعه اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب، مصدراً بكلمة قيمة له ، يحوى مطالب الأمة المراكشية التى لا تبغى أكثر من أن تكون فى مساواة الأمم الحية، إذ هى تريد أن تظل أمة محمدية،وأن تظل خاضعة للقوانين الاسلامية، وأن تظل متمتعة بوحدة عربية،وأن تستعيد استقلالها كدولة إسلامية، والكتاب رقيق الأسلوب رشيق التبويب ، قيم فيما طرقه صاحبه من موضوع أمته الجليل .

الاحنف بن قيس

هذا عنوان رسالة صغيرة تحوى نسب الأحنف بن قيس أحلم العرب، وصفته وأخباره وحكمه وأمثاله وما قيل فى رثائه، ملخصة من الجزء السابع من تهذيب تاريخ ابن عساكر الذى تقوم بطبعه المكتبة العربية بدمشق ، وهى رسالة قيمة عنيت المكتبة المذكورة باخراجها منفردة لتكون فى متناول الجميع ؛ فنشكر لصاحبها ذلك المجهود فى خدمة العلم والأدب .

« المعرفة »

فى نظر زميلاتها

نشرنا فى العدد الماضى جزءاً كبيراً مما قالته رصيفاتنا المصرية والشرقية عن « المعرفة » ، بمناسبة دخولها فى سنتها الثانية ؛ وننشر الآن قسماً آخر مما قالته الصحف الشرقية فى مختلف بقاع العالم ، مسجلين بذلك على أنفسنا ما يجب لها من شكر وتقدير .

***

قالت مجلة « الحديث » الغراء - التى تصدر فى حلب - فى عددها الصادر فى يونيو سنة ١٩٣٢ :

اجتازت مجلة « المعرفة » الراقية عامها الثانى ، بفضل الجهود الكبيرة التى يبذلها زميلنا الأديب الكبير الأستاذ عبد العزيز الأسلامبولى . وظهور « المعرفة » منذ عددها الأول حيث ولدت حية نامية كان يبشر بهذا النمو . ولقد أصبحت سجلا وافياً للمعارف الأدبية ولتطور الثقافة الاسلامية ، وإننا لايسعنا إلا أن نرحب بمثل هذه المجلات المفيدة التى تنشر الأدب والثقافة ، لا للكسب والربح ، بل للخدمة العامة ؛ وهذه هى النشرات التى يجب أن يشجعها الجمهور ، لأن شعارها فى كل ما تكتبه النفع والاخلاص .

***

وقالت مجلة « المناهج » الغراء - التى تصدر فى دمشق - فى عدد مايو سنة ١٩٣٢ :

كانت الصحافة العربية فى حاجة شديدة إلى مجلة شهرية جامعة ، فسد هذا الفراغ العلامة القدير الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى ، فأنشأ « المعرفة » التى هى اليوم منبر الخطابة العلمية ، وسوق عكاظ الأدب ، ومركز تتلاقى فيه آراء علماء الشرق والاسلام فى البحث عن شتى الموضوعات والشئون ، ويحرر فيها أعظم علماء مصر القديرين واختصاصيوها ، ويراسلها مشاهير الشرق ، وهى الآن ختمت سنتها الأولى واستهلت عامها الثانى ، فنرجو لها الثبات والاستمرار فى جهادها العلمى ونتمنى لها الرواج والانتشار .

***

وقالت جريدة « بغداد » الغراء - التى تصدر فى بغداد - بتاريخ ٢٩ محرم سنة ١٣٥١ :

وافانا البريد بالجزء الأول للسنة الثانية من مجلة « المعرفة » الزاهرة التى تصدر بالقاهرة فى ١٣٠ صفحة ، فرأيناه حافلا طافحاً بالمواضيع العلمية ، والاجتماعية والأدبية والاخلاقية ، من أقلام فحول الكتاب ، وأعاظم أدباء القطر الشقيق ، مفعما بالقصائد الرائعة والمقالات الرنانة لسادة شعراء العصر

الحديث . هذا عدا المواضيع التى تبحث فى الأدب الحى ، وقصص ومواضيع شتى،هى غاية فى الرونق والمتانة،ونهاية فى العظمة والابداع،فهى عصارة أدمغة طائفة من أكبر أساتذة البلاد العربية ولفيف من أعلام الأدب الخالد . فنحن نرحب من صميم القلب بجهود صاحبها الأستاذ الكبير عبد العزيز افندى الاسلامبولى، تلك الجهود الجبارة التى تسير بالحضارة الحالية و التمدن الحديث أشواطاً بعيدة إلى الأمام، وتعمل على بث روح الثقافة و الرقى والعمران .

***

وقالت جريدة « الرقيب العتيد » الغراء ـ التى تصدر فى طرابلس الغرب ـ بتاريخ ٩ يونيو سنة ١٩٣٢ :

وصل الينا العدد الأول من السنة الثانية من مجلة «المعرفة» الغراء لصاحبها الأستاذ العلامة الماجد السيد عبد العزيز الاسلامبولى ، ولما سرحنا فيها النظر وجدناها حافلة بالمواضيع القيمة الاخلاقية ،والمباحث الحيوية، مما لايستغنى عنه كل أديب اقتطف من رياض المعالى ثمرات الأدب. وهى جديرة بأن تتخذ أساسا وأنموذجا للتعليم العربى فى المدارس جميعا.

فنحث جميع من له صلة بالأدب من الطرابلسيين، ولا سيما أساتذة المدارس، على الانخراط فى سلك مشتركيها ، حتى يتسنى لهم معرفة طرق أبواب التعليم .

ولا يسعنا أمام هذا إلا أن نوجه شكرنا وامتناننا لحضرة الرصيف الأستاذ الكبير الاسلامبولى الذى لم يتبع خطة الصحفيين الآخرين فى كافة الأنحاء ، فله منا جزيل الشكر.

***

وقالت جريدة « أم القرى » الغراء ـ التى تصدر فى مكة المكرمة ـ بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٩٣٢ :

مجلة « المعرفة » هى أولى المجلات الراقية فى مصر ، تعتنى بالأبحاث الدينية والاجتماعية والأخلاقية، وإن الرواج الذى لقته الزميلة فى سنتها الأولى، يدلنا على عظم ما لأبحاثها من قيمة وتأثير فى النفوس .

وقد قطعت الزميلة سنتها الأولى وهى تكافح وتناضل فى مصلحة الشرق عموماً ؛ وقبل مدة استقبلت سنتها الثانية ، وهى مواصلة فى جهادها ، وعاملة كل مافى وسعها لتحسينها وتقدمها.

فنحن نهنىء الزميلة بعامها الجديد ونحث القراء لمطالعتها ونلفت اليها الانظار .

***

وقالت مجلة « الصراط المستقيم » الغراء ـ التى تصدرها جمعية الهداية الاسلامية فى بغداد ـ بتاريخ ٨ صفر سنة ١٣٥١ :

«المعرفة » مجلة شهرية جامعة، شعارها: اعرف نفسك بنفسك، يصدرها بالقاهرة غرة كل شهر أفرنجى حضرة الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى، دخلت فى سنتها الثانية، وهى قد سدت فراغا فى عالم

العلم والثقافة العربية الصحيحة والصحافة العلمية الراقية، فما من شك فى أن « المعرفة » قد أضحت مجالا للبحوث العلمية المختلفة التى تتصل بكل ما يمس الشرق من علم أو معرفة، ويرتبط وتاريخه من فن وأدب، كما أنها لم تنس الثقافة العربية ، وما يتصل بها من أدب عال أو علم نافع أو فن رفيع .

***

وقالت جريدة « ملتقى النهرين » الغراء – التى تصدر فى الخرطوم – بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٣٢ :

أهدى الينا حضرة العلامة الأستاذ عبد العزيز افندى الاسلامبولى الجزء الأول من السنة الثانية من مجلة « المعرفة » ، فألفيناه جامعاً لأهم المواضيع العلمية التى تقتطف من ثمارها اليانعة ما نقدمه لقرائنا . . . . الخ

فنكتفى بهذا القدر ، ونحض قراءنا على الاطلاع على هذه المجلة المعدودة بحق كبرى أمهات المجلات العربية القليلة العدد.

***

وقالت جريدة « العدل » الغراء – التى تصدر فى طرابلس الغرب – بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٣٢ :

دخلت رصيفتنا مجلة « المعرفة » الغراء فى سنتها الثانية ، فنبارك لصاحبها الأستاذ الألمعى السيد عبد العزيز الاسلامبولى ، ونحث القراء على اقتنائها ، لأنها مجلة جامعة لا يستغنى عنها ، وصاحبها من الكتاب المشهود لهم بطول الباع فى الكتابة، فنرجو لهذه المجلة القيمة كثرة الذيوع .

***

وقالت مجلة « الصرخة » الغراء – التى تصدر فى دمشق – بتاريخ ٩ حزيران سنة ١٩٣٢ :

مجلة « المعرفة » خير المجلات المصرية ، وأغزرها مادة ، وهى السبيل الوحيد إلى الثقافة العالية والمعرفة الصحيحة، تظهر فى مئة وثلاثين صفحة، يحررها كبار علماء ومفكرى الشرق... الخ

***

وقالت مجلة « الحكمة » الغراء – التى تصدر فى بيروت – بتاريخ ١٥ يونيو سنة ١٩٣٢ :

استقبلت هذه المجلة « المعرفة » الراقية عامها الثانى ، وهى سائرة فى معارج التقدم والازدهار، حافلة بالمقالات الأدبية والاجتماعية العالية، فنهنىء صاحبها الزميل الأستاذ عبد العزيز الأسلامبولى بالعام الجديد، ونستحث أهل الفضل على مطالعة هذه المجلة والاشتراك بها.

* * *

وقالت جريدة « الهدى » الغراء – التى تصدر فى سنغافورة – بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٩٣٢ :

« المعرفة » مجلة شهرية جامعة، تصدر فى أول كل شهر إفرنجى، وصل إلينا الجزء الأول منها لسنتها

الثانية فتلوناه فاذا به ممتاز على سابقيه، حافلا بالمواضيع القيمة التى يندر وجودها مجموعة فى مجلة غيرها ، مما جعل لها مركزاً ممتازاً فى عالم الأدب والصحافة .

وإننا نغتنم هذه الفرصة لتقديم شكرنا الجزيل لحضرة صاحبها ومحررها الأديب السيد المفضال عبد العزيز الاسلامبولى على عمله المبرور الذى يعد من أعظم الخدم للناطقين بالضاد ، مقدرين له ومعجبين به فى جميع مواقفه المحمودة وجهاده المجيد وسيره المتواصل نحو الغاية السامية والمقصد الشريف اللذين جعلهما نصب عينيه .

وإننا نلفت أنظار قراء « الهدى » الكرام والمتصلين بهم إلى اقتناء هذه المجلة .

***

وقالت جريدة « المقطم » الغراء بتاريخ ٢٣ ابريل سنة ١٩٣٢ :

أتمت هذه المجلة « المعرفة » عامها الأول بصدور عددها الثانى عشر ، فقدمت للقراء أكبر مجموعة راقية من المقالات الممتازة التى دبجها جمهور من أفاضل الكتاب المصريين والشرقيين ، والحق يقال أن هذه المجلة خلقت قوية بما تعهدها به صاحبها الفاضل الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى ، وكانت تزيد قوة فى كل شهر عن سابقه . ولقد حازت المجلة إعجاب جمهور كبير من القراء فى الاقطار العربية والمهاجر . فنرجو لها دوام التقدم حتى تتسع دائرة النفع بها .

هدية السنة الاولى

الرسالة العذراء

﴿ الرسالة العذراء ﴾ اسم لرسالة نفيسة ، تعد إحدى ذخائر الأدب العربى النفيس، لابراهيم بن المدبر ، حوت من جليل البحث ، وطريف الفكر ، ورقة الأسلوب ، وسلاسة اللفظ ، ما جعلها ــ بحق ــ كنزاً من كنوز أدبائنا العرب المغاوير .

وقد صححها وشرحها باللغة العربية ، ووضع لها مقدمة مفصلة بالفرنسية ، تناول الكلام فيها على فن الانشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث ، الأستاذ البحاثة والعالم الفاضل الدكتور زكى مبارك .

وقد بعثنا بهذه الهدية النفيسة إلى حضرات المشتركين (الذين سددوا قيمة اشتراك السنة الأولى)

ورجاؤنا أن يتفضل حضرات الذين لم يسددوا قيمة اشتراك تلك السنة بتسديدها ، لنبعث إليهم بتلك الهدية .